المدرسة السلفية في التفسير

في العصر الحديث



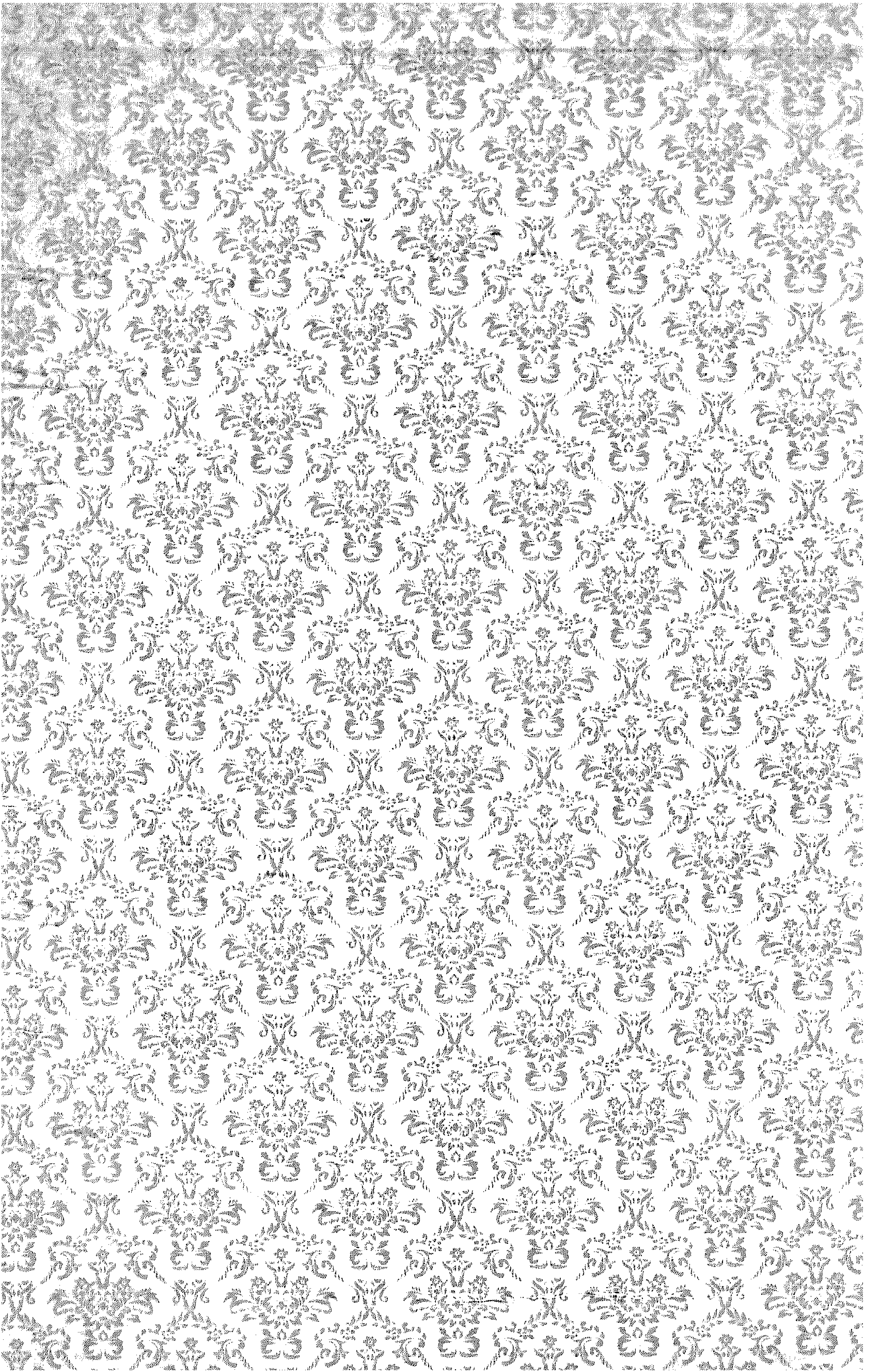
تأليف

د. محمد السيسي



مؤسسة البحوث والدراسات العلمية
(مبدع)
فاس - المغرب

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

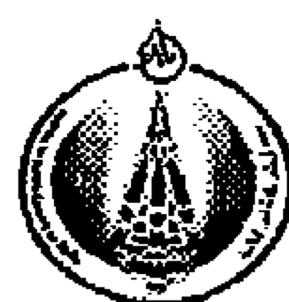


دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

المدرسة السلفية في التفسير في العصر الحديث

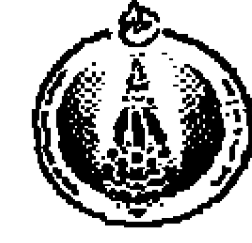
تأليف

د. محمد السيسي



مؤسسة البحوث والدراسات العلمية
(مبدع)
فاس - المغرب
Foundation For Scientific Research and Studies

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



مؤسسة البحوث والدراسات العلمية

(مبدع)

فاس - المغرب

Foundation For Scientific Research and Studies

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بطاقة فهرسة : فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية .

السيسي ، محمد . المدرسة السلفية في التفسير في العصر الحديث / تأليف محمد السيسي .
- ط ١. - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ؛ فاس : مؤسسة البحوث والدراسات العلمية ،
[٢٠١٠] .
٢٦٤ ص ؛ ٢٤ سم . تدمك ٧ ٨٨٧ ٣٤٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الإسلام - دعوات سلفية .
أ - العنوان . ٢١٧

نشر مشترك

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - جمهورية مصر العربية

الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)

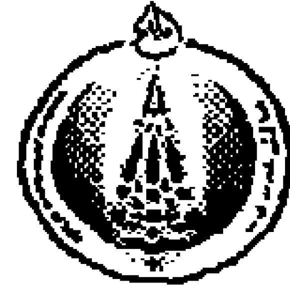
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الأسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الأزاريطة قسم باب شرق بجانب جمعية الشبان المسلمين هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)

بريديًا : ص.ب ١٦١ الغورية الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com



مؤسسة البحوث والدراسات العلمية

(مبدع)

فاس - المغرب

Foundation For Scientific Research and Studies

مؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع)

الهاتف : 535962884 (212)

الناسوخ : 535962920 (212)

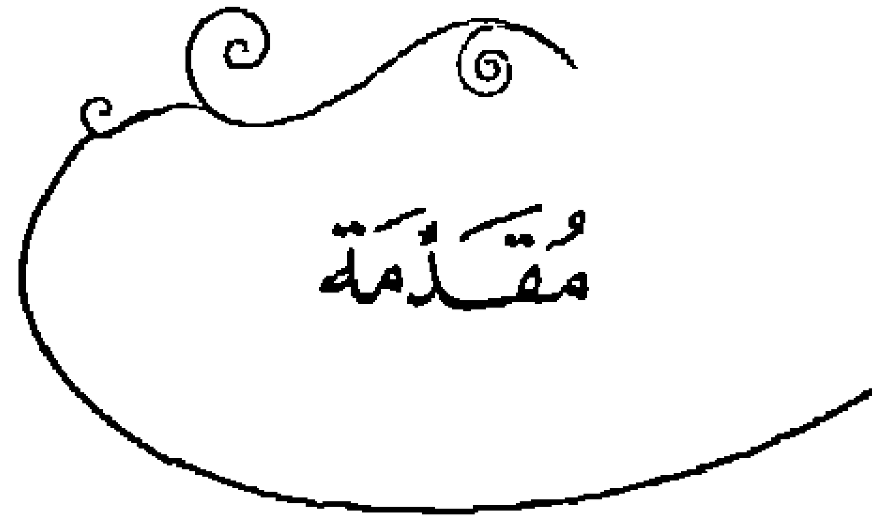
البريد : ص.ب 6012 الأدارسة فاس المغرب

البريد الإلكتروني : mobdii@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعات

* * *



مُقَدِّمَة

الحمد للّـه رب العالمين وبه أستعين ولا حول ولا قوة إلا باللّـه العلي العظيم، وبعد:

فإن أهم ما تشغل به النفوس، وتصرف إليه الهمم والطاقات، وتسموا إليه الغايات، هو كتاب اللّـه ﷻ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والهادي كل من أتاه بقلب سليم إلى التي هي أقوم.

غير أن القلب السليم وحده لا يكفي الباحث عن درس القرآن الكريم وفرائده، ليخرجها معاني ومفاهيم أقرب ما تكون إلى مراد اللّـه تعالى، دون تحصيل جوانب كسبية علمية آلية لبناء منهج سليم وسير قويم في البيان، ولا سيما ونحن في عصر كثرت فيه المناهج وتعددت فيه الاتجاهات والمفاهيم، الشيء الذي يوجب على الباحث تلمس التي هي أقوم بمزيد من الدرس وأخذ الحيطة والحذر، وسط الركام الهائل من المناهج والمصطلحات والمفاهيم التي غطى سيلها منهج التعامل مع القرآن الكريم بألوان شتى من حصائل الفكر البشري.

والبحث في موضوع « المدرسة السلفية في التفسير في العصر الحديث » يقصد العلم بأسلوب ومنهج الرعيل الأول من علماء الإسلام في تعاملهم مع القرآن الكريم وفي معالجتهم للمادة القرآنية فهمًا وتطبيقًا لها في الحياة العملية لهو مما يقرب المنهج السليم في التفسير وقواعده، من الباحثين والدارسين، وذلك من خلال التعرف على التطبيق العملي في التفسير، والقول النظري في ضبط القول فيه منذ أولياته وعبر سيرورته التاريخية إلى أن استقر قواعد ضابطة ثم من خلال عطاءات المدرسة في العصر الحديث وما أسفر عنه منهجها من تصحيح وتجديد ووعي بالذات.

ولضخامة العطاء السلفي في التفسير وفي غيره من مجالات المعرفة الإسلامية، فإنه يعسر على الباحث تقديم دراسة موضوعية ذات أهمية في المجال كله، لذلك حصر موضوع البحث في حقبة من حقب التفسير هي « العصر الحديث » ويقصد به: الحقبة الزمنية الممتدة من أواخر القرن الثاني عشر إلى منتصف القرن الرابع عشر بالتقويم

الهجري من حيث كونها إطارًا زمنيًّا لظهور حركات إحيائية تجديدية أثبتت حضورها في الساحة العلمية والإصلاحية بما جددته من أدوات منهجية ونظرات بيانية كفيلة - في نظرنا - بتصفية الخلط المريع الذي أحدثه الاستعمال غير المسؤول للمصطلحات والمفاهيم ولا سيما مصطلح « السلفية » الذي ألصق به كل ما من شأنه عرقلة السير الحضاري للأمة.

وليس الغرض من البحث في الموضوع إيضاح كل صغيرة وكبيرة تتصل بالسلفية، وإنما الهدف إثبات الصلة المنهجية والرابطة الروحية بأعمدة المدرسة السلفية وقواعدها في حقبة زمنية تميزت بالدعوة إلى استئناف حياة إسلامية من خلال منابع الإسلام الصافية، تراعى فيها ثوابت الإسلام ومتغيراته. ومن ثم كان لا بد من التساؤل عن المنهج الذي سلكته « المدرسة السلفية الحديثة » في رفع التحدي، وعن كيفية توظيفها للخطاب القرآني في معالجة قضايا الأمة وتجديد صياغتها وفق هويتها القرآنية.

ولتوضيح منهج المدرسة وتطبيقاتها العملية في التفسير، وربطه بالواقع وتحدياته اختار البحث « تفسير المنار » نموذجًا لذلك لأسباب ثلاثة رئيسية:

الأول: للتصريح بأنه تفسير سلفي أثري مدني عصري إرشادي اجتماعي سياسي يجمع بين صحيح المأثور وصريح المعقول... ويوازن بين هداية القرآن وما عليه المسلمون من الضعف والعجز... وما كان عليه سلفهم من السيادة والعزة[(١)].

الثاني: لأنه اجتمع في تأليفه رجلان لهما أهميتهما البالغة في المدرسة: محمد عبده بمنهجه وفكره وصياغته الأساسية لقواعد ومناهج التفسير، ومحمد رشيد رضا بتكوينه العلمي الأثري وبحرصه الشديد على إخراج تفسير للقرآن الكريم يعالج قضايا العصر بمنهج سلفي متجدد.

الثالث: للحقبة التي أنجز فيها هذا التفسير، وهي في رأيي أهم حقبة تمثل نضج المنهج السلفي وخصوبته في التفسير، مع ما تحتويه مادته التفسيرية من قواعد محددة وبانية لمنهج السلف في فهم الوحي والاستنباط منه، وما يتبع ذلك من تطبيقات عملية في التجديد والإحياء، تصديقًا لطبيعة هذا الدين بأن يبعث اللـه إلى أهلـه من يجدد لهم ما

---

(١) انظر: تفسير المنار (٢/ ١) وقد تكرر مضمون هذا الكلام في الصفحات الأولى في كل أجزاء التفسير.

بلي من أمر دينهم كلما توفرت دواعي التجديد...

وأصرح في ختام المقدمة أن البحث - في بابه الأول - فيه من القضايا ما يحتاج إلى زيادة تعميق، وفي بابه الثاني ما يحتم العودة إلى تفسير المنار - الموسوعة - لاستخراج كثير من الجوانب، وخاصة الجانب الاجتماعي الذي يعد من أهم وأعوص قضايا الأمة في هذا العصر.

وما توفيقي إلا باللّه، عليه توكلت وإليه أنيب، وما التقصير إلا من النفس ومن الشيطان، واللّه المستعان.

والحمد للّه رب العالمين

د. محمد الشليبي

***

الْبَابُ الْأَوَّلُ

المدرسة السلفية في التفسير في العصر الحديث

ويشتمل هذا الباب على فصلين:

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ: **مفهوم المدرسة السلفية في التفسير.**

الْفَصْلُ الثَّانِي: **المعالم المميزة للمدرسة في العصر الحديث.**

الفَصْلُ الأوَّلُ

مفهوم المدرسة السلفية في التفسير

المَبْحَثُ الأَوَّلُ : مفهوم المدرسة:

من مميزات اللغة العربية سعة الاشتقاق والتجوز... استيعابًا للمواضعات الثقافية، واستجابة لضرورات العصر اللغوية. ومن ذلك شيوع استعمال مصطلح (المدرسة) موصوفًا باتجاه فكري، أو علمي أو نقدي أو أدبي في العصر الحديث. شاملًا كل موضوعات المعرفة الإنسانية، وجميع أصنافها، للدلالة على اتجاه معرفي معين، له خصوصياته ومقوماته المميزة.

ولإيجاد الصلة بين مفهوم « المدرسة » في العصر الحديث، وأصل الوضع - باعتباره ثابتًا من ثوابت اللغة - نعمد إلى معاجم اللغة نسألها عن أصل كلمة « مدرسة » وعن معناها المصطلحي في العصر الحديث.

أ - الأصل اللغوي:

لقد تحدثت المعاجم اللغوية، ومعها مفردات ألفاظ القرآن الكريم وغريبه، عن الأصل الثلاثي للكلمة، وأتت بأنواع من الاشتقاقات والدلالات، غير أنها لم تذكر في وزن « مفعلة » ما تدل عليه كلمة « مدرسة » في العصر الحديث، ولم تتعرض لهذا، إلا المعاجم اللغوية الحديثة - حسب اطلاعي -.

ففي « مفردات ألفاظ القرآن » للراغب الأصفهاني[1]، نجد أن من معاني: « درس »

(١) أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل، أصله من أصفهان، وإليها ينسب، له عدة مؤلفات؛ منها: جامع التفاسير، ومقدمة لتفسير القرآن (ت: ٤٠٢هـ) على خلاف في هذا التاريخ، انظر بغية الوعاة (٢/ ٢٩٧)، وكشف الظنون (١/ ٣٦)، وهو الذي اعتمدناه في ضبط اسم الأصفهاني.

الحفظ ومداومة القراءة فـ « درست العلمَ تناولتُ أثره بالحفظ، ولما كان تناول ذلك بمداومة القراءة، عبر عن إدامة القراءة بالدرس، قال تعالى: ﴿ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وقال: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩] وقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ﴾ [سبأ: ٤٤]... »[١].

أما ابن فارس[٢] في مقاييسه فيقول: « الدال والراء والسين، أصل واحد يدل على خفاء وخفض وعفاء، فالدرس: الطريق الخفي... ودرستُ الحنطة وغيرها من سنبلها إذا دستها.. كالطريق الذي يُدْرَسُ ويُمْشى فيه... ومن الباب درَسْتُ القرآن وغيره، وذلك أن الدارس يتتبع ما كان قرأ، كالسالك للطريق يتتبعه »[٣].

وفي لسان العرب: « ... ودرست الكتاب... ذلَّلته بكثرة القراءة حتى خفَّ حفظه علي... والمِدْراس: الموضع الذي يُدرس فيه... وفي الحديث: « تدارسوا القرآن »[٤] اقرأوه وتعهدوه لئلا تنسوه... وأصل الدراسة: الرياضة والتعهد للشيء »[٥].

واضح جدًّا أن مادة: « درس » تدور حول مداومة القراءة والحفظ ومكان الدرس والتعهد، لذلك نجد معاجم اللغة الحديثة تجعلها ذات ولادة أصلية من مصدرها الأصلي واستعمالات اشتقاقه، مدخلة في معاني: درس المفهوم المعتمد في التواضع الثقافي في العصر الحديث. جاء في المعجم الوسيط: « ... والـمُدَرِّسُ الكثيرُ الدَّرْسِ والتلاوة في الكتاب.. والمدرّسُ المعلم، والمدرسة مكان الدرس والتعليم، والمدرسة المذهب، مُوَلَّد »[٦] والعلاقة وثيقة جدًّا بين هذا المعنى المولد والمعنى الذي تؤديه غالب مشتقات درس... ذلك أن صيغة « مفعلة » موضوعة للدلالة على المكان الذي يكثر فيه وجود شيء ما. ومن هنا قالوا: مدرسة للموضع الذي يتعلم فيه الطلبة...

ب - المعنى الاصطلاحي:

رأينا المعاجم اللغوية تحدد المدرسة بأنها المذهب. ورأينا أن هذا التحديد ذو صلة

---

(١) مفردات الراغب، مادة: درس.

(٢) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، كان نحويًّا فقيهًا (ت: ٣٩٥هـ)، ن. بغية الوعاة (١/ ٣٥٢).

(٣) معجم مقاييس اللغة، مادة: درس.

(٤) ذكره أيضًا ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث « باب الدال والراء » ولم أعثر عليه بهذا اللفظ.

(٥) اللسان، مادة: درس.

(٦) المعجم الوسيط، مادة: درس، وفيه « المولد من الكلام، ما استحدثوه ولم يكن من كلامهم فيما مضى ».

حميمة بالأصل الذي تولد منه، وذلك ما أعطى المشروعية البنائية والدلالية لهذا المولود المستحدث، الذي تعرِّفه شهادة الميلاد في المعاجم الفكرية الفلسفية قائلة: « المدرسة بالمعنى الواسع: جماعة من العلماء والفلاسفة ينتسبون إلى مذهب واحد أو يدافعون عن مبدأ أساسي واحد »[(١)]. و « المدرسة أو المذهب اتجاه فكري له قواعده ومقوماته، ينتمي إليه أنصار وأتباع يحددون قواعده ويتبنون مقوماته، ويسعون إلى تحقيقها »[(٢)].

وبهذا يتحدد المعنى الاصطلاحي الوطيد العلاقة بالدّارس والـمُدَرِّس ومكان الدَّرس ومادة الدرس، من الناحية التربوية والمنهجية والفكرية. ومن هنا قالوا: من مدرسة فلان، أي: على منهجه ورأيه.

ولما تعددت الاتجاهات بتعدد فنون العلم والمعرفة قالوا: مدرسة فلسفية أو أدبية أو فقهية أو حديثية أو تفسيرية.

كما قالوا: مذهب فلسفي أو أدبي أو تفسيري أو فقهي، تصنيفًا للاتجاه الفكري ذي الطابع المشترك في المنهج والوجهة... في أي ميدان معرفي، صار فيه العلماء والباحثون على نهج من سلفوهم في الموضوع المدروس، باستعمال أدوات الفهم والتحليل الأساسية في هذا المنهج أو ذاك.

***

المَبْحَثُ الثَّاني: مفهوم السلفية:

أ - الأصل اللغوي:

إن اتسام العديد من المصطلحات في العصور المتأخرة بتضارب استعمال مفاهيمها، ظاهرة ميزت العديد من الكتابات الأدبية والفكرية، إما نتيجة الاستعمال السطحي لمفهوم الكلمة، دون عناء البحث عن المعنى الأصيل، اللغوي والتاريخي، أو بسبب الاستعمال غير المسؤول الذي أحاط جملة من المفاهيم بضبابية كثيفة، جعلت الباحث المسؤول أدبيًّا وعقديًّا لا يجد مناصًا من معاناة استجلاء مدلول هذه المفاهيم إحقاقًا

(١) المعجم الفلسفي: د. جميل صليبا (٢/ ٣٥٩).
(٢) المعجم الفلسفي: د. مراد وهبة (ص ٤٠٠) (بتصرف).

للحق، وتقويمًا للفكر.

وعليه، فنحن في حاجة ماسة إلى تحديد المفاهيم بالرجوع إلى أصل وضعها اللغوي والاصطلاحي، خصوصًا إذا تعلق الأمر بكلمات ينعكس مفهومها على الفكر والسلوك والمنهج، في المسار الحضاري للأمة، كما هو الشأن في كلمة « السلفية ».

ولهذه الأهمية الحضارية التي لكلمة « السلفية » نجد أنفسنا ملزمين بالرجوع إلى الاستعمال القرآني والسني لها، على اعتبار أن كل المظاهر الحضارية للأمة الإسلامية تستقي مفهومها من هذين المصدرين، فضلًا عما للقرآن والسنة من علاقة بموضوع البحث، على المستوى الفكري والتاريخي والمنهجي، ومن بعدهما تأتي معاجم اللغة لتأكيد أو توضيح ما نحن بصدده.

١ - القرآن الكريم:

إن المتتبع لاستعمال القرآن الكريم لمادة: « سلف » يجدها لا تخرج في العموم عن وجهين اثنين.

الأول: ما تقدم من الأعمال عامة، ومن هذا الاستعمال قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ [يونس: ٣٠].

الثاني: التقدم في الزمان والاعتبار، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٦]، قال الفراء[(١)]: « يقول جعلناهم سلفًا متقدمين ليتعظ بهم الآخرون »[(٢)].

وهناك استعمالات أخرى[(٣)]، لكنها لا تخرج عن هذين الوجهين، ومن هنا قال الدامغاني[(٤)]: إن « سلف في القرآن على وجهين فقط: العبرة وما تقدم »[(٥)].

---

(١) أبو زكرياء يحيى بن زياد بن عبد اللّه بن مروان الفراء (ت: ٢٠٧هـ)، ن. الفهرست: (ص ٩٨، ٩٩)، وبغية الوعاة (٢/ ٣٣٣).

(٢) اللسان، مادة: سلف، وقد رجعت إلى معاني القرآن للفراء فلم أجد العبارة فيه ولعلها في غيره من مؤلفاته.

(٣) إذ التدقيق في الاستعمال القرآني يبين عن وجوه أخرى للمادة، كما في قوله تعالى: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤].

(٤) أبو عبد اللّه حسين بن محمد بن إبراهيم الدامغاني.. فقيه حنفي (ت: ٤٧٨هـ)، ن. هدية العارفين (١/ ٣١٠).

(٥) إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم.. مادة: سلف.

٢ - السنة:

نبادر إلى القول بأن « سلف » في السنة النبوية قد استعملت بالوجهين اللذين لها في القرآن الكريم.

أ - بمعنى الماضي المتقدم كما في قوله ﷺ: « **إنما بقاؤكم فيما سلف من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس** »[١] وعلى هذا قولة خباب رضي الله عنه وهو في حالة المرض: « إن أصحابنا الذين سلفوا، مضوا وتنقصهم الدنيا، وإنا أصبنا ما لا نجد إلا التراب »[٢].

ب - بمعنى الاعتبار، ومنه قوله ﷺ: « **إن اللّـه ﷻ إذا أراد رحمة أمة من عباده، قبض نبيها قبلها، فجعله لها سلفًا وفرطًا** »[٣].

٣ - معاجم اللغة:

تقول معاجم اللغة: إن لمادة « سلف » عدة دلالات، منها: الماضي المتقدم، ومنها القرض والسلم، ومنها العمل الصالح المتقدم، ومنها خالص الشيء وأوله.

جاء في معجم مقاييس اللغة: « السين واللام والفاء: أصل يدل على تقدم وسبق، من ذلك: السلف الذين مضوا، والقوم السُّلّاف: المتقدمون »[٤]، وقال في اللسان: « .. سَلَفَ سلفًا أي: مضى، والقوم السُّلّاف: المتقدمون... ويجيء السلف على معانٍ، السّلفُ: القرْضُ والسَّلَمُ، ومصدر سَلَفَ سلفًا: مضى. والسَّلَفُ أيضًا: كل عمل قدمه العبد. والسَّلَفُ: القوم المتقدمون في السير... وكل شيء قدمه العبد من عمل صالح، أو ولدٍ فرطٍ يقدمه، فهو له سلف... والسَّلَفُ أيضًا: من تقدمك من آبائك وذوي قرابتك، الذين هم فوقك في السِّن والفضل... ولهذا سمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح...، والسُّلافَةُ من كل شيء: خالصه... »[٥].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب إذا رحم اللّـه أمة قبض نبيها قبلها.

(٤) معجم مقاييس اللغة، مادة: سلف.

(٥) اللسان، مادة: سلف. وفيه أن السلف في المعاملات له معنيان:

- أحدهما: القرض الذي لا منفعة للمقرض فيه غير الأجر والشكر، وعلى المقرض رده.

- والثاني: هو أن يعطي مالًا في سلعة إلى أجل معلوم بزيادة في السعر الموجود عند السلف.

وانظر أيضًا: النهاية في غريب الحديث: باب السين واللام.

والسياق المعجمي للكلمة، يتجه بها إلى ثلاث دلالات أساسية، تنحصر فيما مضى وتقدم من كل شيء، ومن العمل الصالح خاصة، والمتقدمين من ذوي الفضل والسن.

وهذه المعاني في عمومها، لا تخرج عن الإطار العام الذي استعملت فيه مادة « سلف » في القرآن والسنة. عدا الاستعمالات الأخرى كالسلف بمعنى السلم والقرض، في باب المعاملات عند الفقهاء. ويرجع في أصل معناه إلى التقدم والمضي.

ب - المعنى الاصطلاحي:

من الظواهر الثابتة أن عامة الاصطلاحات المتواضع عليها بين العلماء في شتى مجالات العلوم، قد أخذت دلالتها المصطلحية بالتخصيص أو بكثرة الاستعمال، من أصولها اللغوية.

وإن مما يسترعي الانتباه، فيما يتعلق بكلمة سلف، هو بداية ظهور تخصيصها منذ أواخر المائة الأولى الهجرية بأهل العلم والفضل، وذلك عند إطلاقها في خطاب العلماء. يقول الزهري[١] في عظام الموتى - نحو الفيل وغيره -: « أدركت ناسًا من سلف العلماء يمتشطون بها ويدهنون فيها، لا يرون به بأسًا »[٢].

وظاهر من قولة الزهري أنه يقصد بها الاستدلال على جواز استعمال هذا النوع من العظام، بعمل أهل العلم السالفين، المشهود لهم بالفضل والورع.

وهذا تلميذه الإمام مالك يقول: في صيام ستة أيام بعد عيد الفطر... « لم أر أحدًا من أهل العلم والفضل يصومها، ولم يبلغني ذلك عن أحد من السلف »[٣]. فالسلف عنده هم أهل العلم والفضل من العلماء موازاة لمن وصفهم من أهل عصره، الذين تتلمذ عليهم ومضوا قبله. وهذا المفهوم هو ما تؤكده قولة راشد بن سعد[٤] عند

---

(١) محمد بن مسلم بن عبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن شهاب الزهري، عالم الحجاز والشام، من علماء التابعين ومن شيوخ الإمام مالك، فقيه حافظ متفق على جلالته وإتقانه (ت: ١٢٥هـ). تقريب التهذيب (ص ٣١٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب ما يقع من النجاسات في السمن والماء.

(٣) الموطأ: كتاب الصيام، باب جامع الصيام. روى مسلم، أن رسول اللَّه ﷺ قال: « من صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شوال كان كصيام الدهر » كتاب الصيام، باب اتباع رمضان بصيام ست... وصيام الست من شوال، مذهب الجمهور إلا مالكًا، ن. بداية المجتهد (١/ ٣٠٨)، وسبل السلام (٢/ ١٦٧).

(٤) راشد بن سعد المقرئ الحمصي، روى له الجماعة (ت: ١٠٨ أو ١١٣هـ) تقريب التهذيب: (ص ٩٩).

البخاري: (كان السلف يستحبون الفحولة...)[١] بل بوب البخاري في صحيحه بهذا المفهوم بقوله: « باب ما كان السلف يدخرون في بيوتهم وأسفارهم »[٢] وساق تحت هذا العنوان قول عائشة وأسماء - رضي اللّـه عنهما -: « صنعنا للنبي ﷺ وأبي بكر سفرة... »[٣].

وحتى أوائل القرن الثالث الهجري وكلمة « السلف » على هذا الاستعمال، دون تحديد تعريفي لها، لعدم الحاجة إليه، في تلك الفترة، لأنه كان واضحًا بشيوع استعماله في علماء الأمة وفضلائها، تمييزًا وتخصيصًا لهم عن العامة، ثم أضيف إليها مدلول آخر نبت من مفهوم العلم والفضل وتغذى على المقولات التي أفرزتها الفترة دفعًا للزيغ العقدي وتوضيحًا للحـق، أخذًا بسلـوك سلفهم من الصحابـة والتابعين في قضايا الاعتقاد خاصة، والتكاليف الإيمانية عامة. فصار مفهوم « السلف » يعني الجماعة الإسلامية التي بقيت على الحق الصريح الذي جاء به الرسول ﷺ، ولم تسلك بظنونها مسلك الفرق التي بدأت تتحزب داخل الآراء الشاذة، التي وردت على الفكر الإسلامي الصافي. نتيجة العوامل البيئية والسياسية والثقافية، التي برزت إثر الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين وعهد الأمويين، وكثرت في عهد العباسيين.

ذلك أن البلدان التي فتحها المسلمون، كان قد انتشر فيها الفكر اليوناني، ممزوجًا بالوثنية واليهودية والنصرانية[٤]. وقد تسرب هذا الفكر إلى ميدان المعرفة الإسلامية، إما عن طريق الحوار والمناقشة، الذي كان يمليه مبدأ الدعوة إلى الإسلام، بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وإما عن طريق الدس والكيد والوضع، وهو الطريق الذي نهجه من أعلى الإسلام نفاقًا، ليحاربه من الداخل، وقد أعجزته المواجهة[٥]، وإما عن طريق ترجمة الفكر اليوناني، خاصة في عهد المأمون، الذي جعل من بيت الحكمة مكتبة للنسخ والترجمة وإلقاء الدروس والمحاضرات[٦].

---

(١) ذكره البخاري في كتاب الجهاد، باب الركوب على الدابة الصعبة والفحولة من الخيل.

(٢، ٣) نفس المصدر: كتاب الأطعمة.

(٤) انظر: الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي (ص ٧٩) وما بعدها.

(٥) مثل ظاهرة السبئية التي تسببت في قتل عثمان ﷺ، وحدوث الفتنة الكبرى التي تولد عنها الخوارج والشيعة، وتبنيهما مبادئ عقدية وسياسية خاصة. انظر الملل والنحل (ص ١٧٤).

(٦) انظر: الفهرس (ص ٣٣٩)، والقاموس الإسلامي (١/ ٤٠٣ - ٤٥٦).

وهذه الفترة بالذات هي التي شهدت فتنة القول بخلق القرآن على المستوى الرسمي، حيث تبنى بعض ملوك الفترة الفكر الاعتزالي، وحاولوا إلزام الأمة بمبادئه، حتى علمائها، ذوي الدور القيادي فيها[١]. ولئن كنا لم نجد بروز الاختلاف في الجانب العقدي في الإسلام أول عهد الصحابة[٢]، فلأن الوحي - قرآنًا وسنة - قد تحدث عن عالم الغيب أو ما يسمى « بالميتافيزيقيا » في الفكر الفلسفي - بتفصيل، لم يبق معه أي غموض، وبمنهج يتلاءم والفطرة العربية، والصفاء الإيماني الذي امتاز به الأصحاب ﷺ[٣].

ولئن كنا نجد الاختلاف في عالم الشهادة قد وقع منذ الوهلة الأولى، فلأن الوحي قد عرضه في صورة مبادئ عامة وخطوط عريضة[٤]. فصار واضحًا في أذهان جيل الصحابة أن « العلم ما قام عليه الدليل، والنافع ما جاء به الرسول، وقد يكون علم من غير الرسول، لكن في الأمور الدنيوية مثل الطب والحساب... وأما الأمور الإلهية والمعارف الدينية، فهذه العلمُ فيها ما أُخذ عن الرسول لا غير »[٥].

إن ما حدث في المجتمع الإسلامي الأول من اتجاهات تتعامل مع عالم الغيب وعالم الشهادة بأدوات معرفية وافدة ومشوهة، دون مراعاة لخصوصيات الوحي، ولا سيما في الأمور الغيبية، جعل علماء الأمة الممثلين لوحدتها مضطرين إلى الرجوع إلى الوحي - قرآنًا وسنة - في ميدان عالم الغيب (ذات اللّـه وصفاته - القضاء والقدر - الوعد والوعيد - الجنة والنار والخلود فيهما) قصد إيجاد منهج ينطلق من الوحي - قرآنًا وسنة - مهتدين في هذا بسلوك الصحابة وفهمهم، لنقض التصورات العقدية التي كانت وليدة المناهج والمفاهيم الغريبة عن أصول المعرفة الإسلامية.

وهكذا صار مفهوم السلف يعني: سلف الأمة من أهل العلم والإيمان الذين لزموا

---

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك (٩/ ٤٩٨) وما بعدها، ذكر خبر المحنة بالقرآن.

(٢) وإن كان قد ظهر في زمنهم القدرية في شخص معبد الجهني الذي قال بنفي القدر، والجهمية في شخص الجهم بن صفوان (ت: ١٢٨هـ). انظر كتاب التوحيد لابن منده (١/ ٢٤)، وكتاب السنة لابن حنبل (ص ٨٠) وما بعدها.

(٣) فلقد استفسر الصحابة الرسول ﷺ عن مسائل كثيرة في العبادات والمعاملات... ولم يثبت أن صحابيًا استفسره ﷺ عن الأسماء والصفات، انظر كتاب التوحيد لابن منده (ص ٢٠).

(٤) فقد تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام، وهم سادات المؤمنين.. ولكن بحمد اللّـه لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٢١٩)، وانظر الفتاوى (٣/ ١٦).

منهج القرآن والسنة في تقرير أصول الاعتقاد على « طريقة أصحاب رسول اللّـه ﷺ، خير القرون وأفضل الأمة. وطريقة الذين اتبعوهم بإحسان »[١]. وهو مفهوم استمد أصوله من قول اللّـه تعالى: ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [التوبة: ١٠٠] حيث كانت ميزة السابقين الأولين، الرضا دون قيد أو شرط، وميزة التابعين لهم، الاتباع المقيد بالإحسان.

قال ابن خويز منداد[٢]...: « تضمنت هذه الآية تفضيل السابقين إلى كل منقبة من مناقب الشريعة في علم أو دين أو شجاعة أو غير ذلك... وبين تعالى بقوله: ﴿ بِإِحْسَـٰنٍ ﴾، ما يتبعون فيه من أفعالهم، وأقوالهم... لا فيما يصدر عنهم من الهفوات والزلات، إذ لم يكونوا معصومين[٣].

بعد هـذه الجولة في رحـاب السابقين الأولين، والتابعين لهم على السبيـل، وصفًا لملابسات الفترة الفكرية والتاريخية، نعود إلى محاولة تحديد المعنى الاصطلاحي للسلف، فنقول: **إننا نستطيع تحديد المصطلح من خلال عنصرين أساسيين:**

الأول: وصفي، قوامه: الإيمان والعلم والفضل، فالإمام مالك مثلًا، « وهو من أهل القرن الثاني، إذا قال في موطَّئه وعلى هذا أدركت الناس، وما رأيت عليه الناس فإنما يعني بهم العلماء، والقدوة من باب أولى أن تكون في العلماء العاملين ليس إلا في ذلك الزمان المخصوص »[٤].

الثاني: زمني؛ بدءًا بعصر الصحابة والتابعين أصلًا، وامتدادًا إلى نهاية القـرن الثالث تبعًا لذلك الأصل، لذلك جاء في تعريف ابن حجر للسلف قوله: « هم الصحابة والتابعون من أهل القـرون الأولى ثم أطلـق هذا المصطلح توسعًا على من تبعهـم من الأئمة وأصحاب السنن، كالأئمة الأربعة وسفيان الثوري[٥]، وسفيان بن عيينة[٦]، والليث بن

---

(١) الفتاوى (٣/ ١٢٦).

(٢) محمد بن أحمد بن عبد اللّـه بن خويز منداد، متكلم فقيه أصولي من أهل العراق، ن.شجرة النور الزكية: (ص ١٠٣) وذكر أنه لم يعثر على وفاته.

(٣) تفسير القرطبي (٨/ ١٣٨).

(٤) المدخل لابن الحاج (١/ ٧٣).

(٥) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري فقيه حافظ عابد حجة (ت: ١٦١هـ)، ن. تقريب التهذيب (ص ١٢٨).

(٦) سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي الكوفي المكي ثقة حافظ إمام حجة (ت: ١٩٨هـ)، ن. تقريب التهذيب (١٢٨).

سعد[١]، وعبد اللّـه بن المبارك[٢]، والبخاري ومسلم، وغيرهم، ممن اتبعوا طريقهم جيلًا بعد جيل، وتبرأوا من بدع أهل الأهواء، كالخوارج والشيعة... والمعتزلة »[٣].

بالإضافة إلى ذلك، اعتمد البعد الزمني « للسلف » على قول رسول اللّـه ﷺ: « **خير القرون قرني[٤]، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم** »[٥].

قال ابن حجر في الفتح: « واستدل بهذا الحديث على تعديل أهل القرون الثلاثة، وإن تفاوتت منازلهم في الفضل... واتفقوا على أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله، من عاش إلى حدود العشرين ومائتين، وفي هذا الوقت، ظهرت البدع ظهورًا فاشيًا، وأطلقت المعتزلة ألسنتها، ورفعت الفلاسفة رؤوسها، وامتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن[٦].

وفي هذه الفترة بالذات تحددت المعالم الرئيسية للمنهج العلمي الإسلامي في فهم النصوص، واستنباط الأحكام الاعتقادية والعملية، اعتمادًا على فطرة الإيمان وعلى الاتصال المباشر بالقرآن والسنة، في وقت كان فيه اللسان العربي والسليقة العربية صفة عامة العصر وأهله.

يقول عبد اللّـه بن مسعود في هذا السياق: « من كان مستنًّا، فليستن بمن قد مات،

---

(١) الليث بن سعد بن عبد الرحمن المصري فقيه إمام مشهور (ت: ١٧٥هـ)، تقريب التهذيب (ص ١٨٧).

(٢) أبو عبد الرحمن عبد اللّـه بن المبارك المروزي الفقيه المجاهد، جمعت فيه خصال الخير، واشتهر بالمرابطة في سبيل اللّـه (ت: ١٨١هـ)، ن. الفهرست (ص ٣١٩)، وتذكرة الحفاظ (١/ ٢٧٤)، وتقريب التهذيب (ص ١٨٧).

(٣) العقائد السلفية لابن حجر، نقلًا عن التأويلات السنية والمعتزلية (ص ١٣٠).

(٤) قال ابن فارس: القرن له عدة معان، تتولد عن مفهومين رئيسيين له، الأول: جمع شيء إلى شيء، والآخر: شيء ينتؤ بقوة... ن. مقاييس اللغة، مادة: قرن.

وقال في النهاية: القرن أهل كل زمان، مأخوذة من الاقتران، واختلف في تحديد مدته من عشر سنين إلى مائة ، ن. النهاية في غريب الحديث، باب القاف والراء. وفي اللسان: القرن الأمة تأتي بعد الأمة... واختلف في تعيين مدته أيضًا، والقرن من الناس: أهل زمان واحد، اللسان، مادة: قرن. وفي الفتح: القرن أهل كل زمان واحد متقارب، اشتركوا في أمر من الأمور، والمراد بقرن النبي ﷺ في الحديث: الصحابة، الفتح (ص ٧، ٨).

وفي تفسير المنار: والمعقول أنه مقدار متوسط أعمار الناس في كل زمان. وذهب بعضهم إلى تحديد القرن بالحالة الاجتماعية التي يكون عليها القوم، قالَ: وهذا أقرب إلى استعمال القرآن، تفسير المنار (٧/ ٣٠٦).

(٥) رواه الشيخان عن عمران بن حصين، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ ومن صحب النبي أو رآه من المسلمين... واللفظ للبخاري.

(٦) الفتح (ص ٧، ٨).

فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة أبرها قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا، اختارهم اللّـه تعالى لصحبة نبيه، ولإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم... فإنهم كانوا على الهدى المستقيم »[١].
ولقد كان التابعون لهم بإحسان « خير الناس قرنًا بعد الصحابة لأنهم شافهوا أصحاب النبي ﷺ وحفظوا عنهم الدين والسنن ». ذلك هو مفهوم مصطلح « السلفية » في فترة نشوئه تبعًا لاستعمالات أهل العلم في هذه الفترة المشهود لها بالخيرية، نسبة إلى طريقة السلف ومنهجهم في المعرفة والسلوك؛ لأن النسبة إلى السلف، « سلفي ».

ففي القاموس « ومنه عبد الرحمن بن عبد اللّـه السلفي المحدث، وآخرون منسوبون إلى السلف »[٢]. ولم يكن المنهج والطريقة سوى الالتزام بالمصادر الأساسية للإسلام نصًا واستنباطًا. ومن هنا قال اللغويون أيضًا في تعريفهم للسلفي بأنه « من يرجع في الأحكام الشرعية إلى الكتاب والسنة، ويهدر ما سواهما »[٣]. اقتداء بالسلف الصالح « الذين اجتمعوا على الحق الصريح، من كتاب اللّـه وسنة رسوله ﷺ »[٤].

واستنادًا إلى كل ما سبق نقول: إن السلفية التزام منهج السلف الصالح[٥] في فهم معاني القرآن، ومقاصد السنة، لاستنباط الأحكام وتقرير الاعتقاد، والاقتداء بسنتهم في القيام بأمر الدين، وسيرتهم في الدعوة إليه.

إنها تأمين للعقل المسلم من التيه والوهم والعجب والهوى، بوضعه على الجادة التي مضى عليها « خير القرون، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان، يوصي به الأول الآخر، ويقتدي فيه اللاحق بالسابق، وهم في ذلك كله بنبيهم محمد ﷺ مقتدون، وعلى نهجه سالكون »[٦].

هذه الجادة، هي المنهج التي وضعت أسسه قبل أن تظهر الفتن وتبتدع المبتدعات

---

(١) المدخل لابن الحاج (١/ ٧٤).
(٢) معرفة علوم الحديث للحاكم، (ص ٤٢).
(٣) القاموس المحيط، مادة: سلف.
(٤) المعجم الوسيط: مادة: سلف. وانظر القاموس الإسلامي، نفس المادة.
(٥) سنوضح أسس هذا المنهج في مبحث قادم بحول اللّـه.
(٦) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٦٨).

التي بدأ دخنها يصيب فكر وسلوك المجتمع الإسلامي منذ حرب صفين(١)، منهج نسج على منواله أئمة الإسلام، من أهل القرون الثلاثة الأولى « بعمق علومهم وقلة تكلفهم، وكمال بصائرهم »(٢).

ومن هنا قيل « وليكن موضع التأمل أن الشافعي والأئمة الآخرين. الذين سبقوه أو عاصروه، أو تأخروا عنه قليلًا، من أهل الاجتهاد، هم من الصدر الأول ومن السلف »(٣).

تنبيهات:

١ - تجب الإشارة هنا إلى أن « السنّة والاتباع » باعتبارهما منهجًا علميًّا مبنيًّا على الدليل القائم على الكتاب والسنة، يرادفان معنى السلفية لأن « المراد بالسنة الطريقة التي كان عليها رسول اللّه ﷺ وأصحابه، قبل ظهور البدع والمقالات... »(٤). ولأن الاتباع، معناه « أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه »(٥)؛ ولذلك كان أهل السنة والجماعة هم « سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين الذين اجتمعوا على الحق الصريح، من كتاب اللّه تعالى، وسنة رسوله ﷺ »(٦).

٢ - إن الدلالة الخاصة لهذه الكلمات: السنة/ الاتباع/ السلف، قد أخذت هذا المنحى منذ عهد النبوة والخلافة الراشدة وعهد التابعين. فقد ورد في السنة أن رسول اللّه ﷺ قال: « ... **إنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ** »(٧)، وجاء عن

---

(١) هي الحرب التي كانت بين علي ومعاوية أوائل سنة (٣٧هـ)، وتعتبر أول حرب أهلية في الإسلام.. وصفين سهل على الجانب الغربي لنهر الفرات، ن. معجم البلدان: (٤/ ٤١٤)، والقاموس الإسلامي: (٤/ ٢٩٥).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٧٣).

(٣) مجلة دار الحديث الحسنية، عدد (٣/ ١٤٠٢هـ)، (ص ٣٤٢).
مقال حول « جدول الألفاظ المتداولة ».. لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، إعداد: د. فاروق حمادة.

(٤) شرح العقيدة الواسطية (ص ١٦).

(٥) إيقاظ همم ذوي الأبصار (ص ١١٣)، وأصول الإمام أحمد (ص ١٧٨).

(٦) شرح العقيدة الواسطية (ص ١٦).

(٧) رواه ابن ماجه في سننه عن العرباض بن سارية، باب اتباع سنة الرسول ﷺ وقد أنجز الأستاذ زيد بوشعرا بحثًا قيمًا لنيل دبلوم الدراسات العليا، في مفهوم سنة الخلفاء الراشدين بعنوان: « سنة الخلفاء الراشدين » بحث=

عبد اللـه بن مسعود: « اتبعوا آثارنا ولا تبتدعوا فقد كفيتم »[(١)].

أما دلالة السلف فما رأيت من استعمال الإمام الزهري لها[(٢)].

٣ - كانت فتنة القول بخلق القرآن التي حدثت في عهد المأمون العباسي سببًا مباشرًا في تدوين المنهج السلفي في الاعتقاد، وهو ما اصطلح عليه بأصول الدين، أو الفقه الأكبر، في ميدان المعرفة الإسلامية، ومنه إلى تقرير المنهج السلفي في الأمور السياسية والاجتماعية للدولة الإسلامية، مع الدعوة إليه والدفاع عنه.

ذلك ما نستطيع إدراكه بدون صعوبة تذكر، إذا ما اطلعنا على مجمل اعتقاد السلف، كما سجله الإمام أحمد في رسالته: (كتاب السنة) التي يقول في بدايتها: « هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر، وأهل السنة المتمسكين بعروقها، المعروفين بها، المقتدى بهم فيها، من لدن أصحاب النبي ﷺ إلى يومنا هذا... فمن خالف شيئًا من هذه المذاهب أو طعن فيها... فهو مبتدع خارج من الجماعة.. »[(٣)].

وذلك بعد ذكر أصول الإيمان الستة[(٤)] والخلافة الإسلامية وكيفية تنصيب الخليفة وما توجبه الولاية من: قيام بواجب الجهاد، وعدم منازعة الأمر أهله. ومن أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ودفع الصدقات والخراج والأعشار... وهذا أيضًا ما يفهم من: « العقيدة الطحاوية »، للإمام أبي جعفر الطحاوي[(٥)] وهو من علماء القرن الثالث الهجري. ومن كتاب: « عقيدة السلف، أصحاب الحديث » لأبي عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني[(٦)] أحد علماء القرن الخامس الهجري.

=في المفهوم والحجية، محوره بيان: مفهوم سنة الخلفاء الراشدين وحجيتها، بالإضافة إلى توثيق الحديث وبيان طرقه، ودلالة لفظ السنة عند الصحابة والتابعين، وفي اصطلاح الفقهاء والأصوليين، مفهومًا وحكمًا.

(١) الاعتصام (١/ ٥٤).

(٢) انظر (ص ١٧، ١٨) من هذا البحث.

(٣) الرد على الجهمية والزنادقة مع كتاب السنة (ص ٦٧).

(٤) الإيمان باللـه وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقضاء والقدر أخذًا من حديث جبريل المتفق عليه من رواية عمر بن الخطاب.

(٥) أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي من مواليد سنة (٢٣٩هـ)، (ت: ٣٢١هـ)، انظر الفهرست (ص ٢٩٢)، ولسان الميزان (١/ ٢٧٤)، ووفيات الأعيان (١/ ٧١).

(٦) أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني النيسابوري، فقيه محدث مفسر (ت: ٤٩٤هـ)، انظر طبقات المفسرين للداودي (١/ ١٠٩).

فلقد أصبح الموقف آنذاك يتطلب الوقوف بحزم ومنهجية أمام كل المعتقدات والقيم الدخيلة، التي تمثلت في طغيان الاتجاه الاعتزالي على المستوى العقدي، وانتشار الانحلال على المستوى الاجتماعي، فكانت تلك المحاولات من زعماء السلفية تستهدف رد المجتمع الإسلامي التي تجانسه ووحدته على المستوى العقدي والسلوكي.

وقد برزت فيها السلفية منهجًا وحركة خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بصورتين اثنتين:

الأولى: الرد الشفوي الحركي، ويمثله إمام السنة أحمد بن حنبل وأحمد بن نصر الخزاعي[١]، ومحمد بن نوح[٢].

الثانية: تدوين وتصنيف المذهب السلفي في الاعتقاد، والاستنباط، عرضًا وبيانًا للعقيدة من القرآن والسنة. اعتمادًا على منهج الصحابة والتابعين، مع الرد على الفرق الضالة وبيان ضلالها وتسفيه مناهجها.

- ومن المؤلفات التي تمثل هذا:

أ - « الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله »، للإمام أحمد بن حنبل (مطبوع مع كتاب السنة لنفس المؤلف).

ب - « الرد على الجهمية » لأبي عبد اللّـه محمد بن إسماعيل البخاري (مطبوع).

ج - « الرد على الجهمية »: لعثمان بن سعيد الدارمي (ت:٢٨٠هـ) (مطبوع).

د - « السنة »، لأبي عبد الرحمن عبد اللّـه بن الإمام أحمد (ت: ٢٩٠هـ) (مطبوع).

هـ - « كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ » تأليف الإمام الحافظ محمد ابن إسحاق بن خزيمة (ت: ٣١١هـ) (مطبوع).

و - « الإبانة عن أصول الديانة »، للإمام أبي الحسن الأشعري (ت:٣٣٠هـ) (مطبوع).

---

(١) ابن مالك بن الهيثم، كان رأسًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقام معه خلق من المطوعة، واستفحل أمرهم، فخافت الدولة من فتق يتم بذلك، فقبضه الواثق وقتله بيده، وذلك سنة (٢٣١هـ)، ن. شذرات الذهب (٢/ ٦٩).

(٢) محمد بن نوح صاحب الإمام أحمد في الفتنة، وهو الذي كان يشد أزر أحمد ويشجعه، توفي سنة (٢١٨هـ) بمرض ألم به أثناء العفو عنه وعن أحمد يوم أن مات المأمون وتولى المعتصم، ن. شذرات الذهب (٢/ ٣٠).

ز - « مقالات الإسلاميين » لنفس المؤلف (مطبوع).

ح - « كتاب التوحيد ومعرفة أسماء اللّـه ﷻ وصفاته على الاتفاق والتفرد » للحافظ أبي عبد اللّـه محمد بن إسحاق بن منده (ت: ٣٩٥هـ) (مطبوع).

٤ - نظرًا لموقف الإمام أحمد من جهاز السلطة في عصره وشهرته بالذب عن العقيدة الإسلامية، صار مِنْ ثَمَّ أشهر من تنسب إليه السلفية في تاريخ الأمة الفكري، وإلا فإن السلفية، اعتقادًا ومنهجًا وسلوكًا، ترتبط بالصحابة والتابعين، ومن نحا نحوهم من العلماء العاملين، الذين تضمهم فترة خير القرون.

قيل لابن تيمية: أنت صنفت عقيدة الإمام أحمد، فقال: « ما جمعت إلا عقيدة السلف الصالح جميعهم، ليس للإمام أحمد اختصاص بهذا، والإمام أحمد إنما هو مبلغ العلم الذي جاء به النبي ﷺ ولما انتهى إليه من السنة... أكثر مما انتهى إلى غيره، وابتلي بالمحنة والرد على أهل البدع أكثر من غيره، كان كلامه وعلمه في هذا « الباب أكثر من غيره، وإلا فالأمر كما قال أحد شيوخ المغاربة: المذهب لمالك والشافعي والظهور لأحمد بن حنبل »[1].

***

المَبْحَثُ الثَّالِثُ: المدرسة السلفية:

من سنن اللّـه في رسله - عليهم السلام -، أن يهيئ لهم من يأخذ عنهم الدين، عقيدته وشريعته، كما يأخذ عنهم، منهج التبليغ والتطبيق العملي؛ لأن المنهج بهذا المفهوم، من صميم عمل الأنبياء.

عن عبد اللّـه بن مسعود ﷺ أن رسول اللّـه ﷺ قال: « **ما من نبي بعثه اللّـه في أمة قبلي، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون...** »[2] وهذا تحذير من الرسول ﷺ في صورة إخبار بالمستقبل، يستلزم قيام الأتباع - الآخذين بالسنة

(١) الفتاوى (٣/ ١٦٩، ١٧٠)، ولعل المقصود بـ« أحد الشيوخ المغاربة » الإمام ابن عبد البر، لأنه ينقل عنه كثيرًا.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: من الإيمان تغيير المنكر باليد واللسان والقلب.

المقتدين بالأمر - بما توجبه الرسالة من سعي إلى حماية مبادئها وتثبيتها وتحقيقها في واقع الحياة، وهذا ما تؤكده خاتمة الحديث... « فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه، فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[١].

وما دام هذا هو الشأن في كل رسالة، فإن أمر وجود القدوة منهجًا وسلوكًا يغدو أمرًا ضروريًّا في الرسالة الخاتمة والخالدة.

وأقول: منهجًا؛ لأن الرسالة في حد ذاتها منهاج، لقوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]، ولأن طبيعة الرسالة التي حملها الرسول ﷺ منهاج أيضًا، قال جل من قائل: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤]. ومن أوصاف الكتاب الذي هو موضوع البيان أنه: ﴿ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

وأقول: سلوكًا، لأن مبلِّغ الرسالة محمدًا ﷺ، كان أول من طولب بالتطبيق العملي لهذا المنهج[٢]، ولأن الإيمان بهذه الرسالة يقتضي الاعتقاد والقول والفعل[٣].

فعلى المنهج والسلوك قامت المدرسة الإسلامية الأولى (النموذج) معلمها الأول ومربيها وقدوتها، وموجهها وواضع أصولها وباني منهجها صاحب الرسالة المبلغ عن ربه[٤].

هذه المدرسة، كان روادها الأوائل، وتلامذتها النجباء، وأتباعها المخلصون الذين استقاموا على الطريقة وأقاموا منهجها، هم الصحابة رضوان اللّـه عليهم، الذين آمنوا الإيمان المطلق بما أنزل إليهم من ربهم، بعدما وعته عقولهم، واطمأنت إليه قلوبهم، ومن ثم كانوا أشد الأمة تمسكًا بالمنهج، والسير وفق مقتضياته المعرفية والعملية، اتباعًا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: من الإيمان تغيير المنكر باليد واللسان والقلب.

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل: ١، ٢]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر ١، ٢]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

(٣) إذ الإيمان في عرف الشرع: مجموع العلم والاعتقاد والعمل بموجبها... ولذلك نجد الخطاب القرآني غالبًا ما يقرن الإيمان بالعمل، ن. شرح العقيدة الطحاوية (ص ٣٧٣ – ٤٠٨).

(٤) ومن هنا كانت طاعة الرسول ﷺ واجبة.

لمنهج الداعي ووعيًا منهم لقوله ﷺ: « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي... كتاب اللّـه وسنتي »[١] اللذين وصفهما الرسول ﷺ بقوله: « تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك »[٢].

ولقد كانت حياة الرسول ﷺ حافلة بتربية أصحابه وتعليمهم، وبغرس روح التبليغ وصيانة الدين، مما كوَّن لدى الصحابة إحساسًا خاصًّا في حمل هذا الدين على نهج الرسول ﷺ يفتحون البلدان ويعلمون الناس الإسلام، ويرسلون المدرسين معلمين بجانب أمراء الأمصار[٣]، يتخرج على أيديهم التلاميذ والأتباع، وتؤسس بهم المدارس الإسلامية، في الأمصار المفتوحة.

ونغمة البشرى في قوله ﷺ: « نضر اللّـه عبدًا سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها... »[٤] لا تفارق آذانهم؛ بل سرت في الأجيال، يتحقق بها مصداق قوله ﷺ: « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين، على الحق، حتى يأتيهم وعد اللّـه وهم ظاهرون »[٥].

قال الحافظ في الفتح: « أئمة يقتدون بمن قبلهم ويقتدي بهم من بعدهم »[٦].

إن المدرسة السلفية في أول أمرها، كانت مدرسة الإسلام في مواجهة كل أنواع الباطل وأشكاله، ولـمَّا حدث ما حذر منه الرسول ﷺ من تصدع في الصف الإسلامي[٧]، باشتداد فتن الأهواء، وظهور الشيع والفرق، تحتج لأهوائها، وتقرر أصول مذاهبها، بالتأويل والتحريف. لما حدث ذلك، اتجه علماء الملة القائمون على الحق، إلى أصول الإسلام، وإلى منهج الأئمة الأعلام من الصحابة والتابعين، يبتغون أصولًا فكرية يهتدون بها إلى مَحْقِ الانحراف العقائدي والعملي، المتولد عن: الكلام

---

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ في كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر.

(٢) أخرجه ابن ماجه في مقدمة سننه (١/ ٦).

(٣) انظر طبقات ابن سعد (٦/ ٩). والإصابة (٢/ ٣٣٤).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه عن عبد اللّـه بن مسعود: كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على التبليغ والسماع، وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالسنة، باب قول النبي ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق وهم أهل العلم. وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي.

(٦) فتح الباري (١٣/ ٢٦٥).

(٧) انظر: صحيح مسلم: كتاب الفتن، باب لتتبعن سنن من قبلكم. وصحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالسنة، باب قوله ﷺ: لتتبعن سنن من قبلكم.

والفلسفة والزندقة والغلو...»[١].

وإذا أصَّلت هذه الطائفة من المسلمين أصولها باتباع منهج القرآن والسنة ومنهج أولي العلم والفضل ممن سبقوهم. فإنها قد كونت بذلك مدرسة، تتميز بالانتماء للسلف، في مجال المذاهب الفكرية والعقدية داخل ما يسمى بالفكر الإسلامي، وتحوز بذلك مواصفات المدرسة. كما تحددها معاجم المصطلحات، بما لها من أتباع وأنصار، يدافعون عن مبدأ أساسي واحد، له قواعده ومقوماته، ويمثلون وحدة الجماعة الإسلامية ببقائهم على الحق الصريح وبناء منهج الرجوع إلى الوحي.

وعليه، فإنه يمكن القول في تعريف المدرسة السلفية: إنها المدرسة التي يقوم مضمونها الفكري والعملي على منهج السلف في فهم النصوص الشرعية والاستنباط منها، مع سلوك سبيلهم في الاقتداء بهذه النصوص، اعتقادًا وعملًا.

إنها مدرسة ذات إطار زماني وفكري ومنهجي، ينتمي إلى الظروف التاريخية التي وجدت فيها النماذج الأولى التي أنشأت المنهج معرفة وسلوكًا. ومن هذا الإطار تتحرك المدرسة، لتواجه كل غريب أجنبي عن ثوابت الدين منطلقة من الاتصال المباشر بأصوله، «التي جاءت لتعمل في كل جيل وفي كل بيئة... ولتواجه أحوالًا بعينها... والجماعة الإنسانية في أي طور من أطوارها... والمنهج الذي التقط المجموعة المسلمة من سفح الجاهلية هو ذاته الذي يلتقط أية مجموعة... ثم يبلغ بها إلى القمة السامقة، التي بلغ إليها بالمجموعة الأولى»[٢].

ومن هنا، صار كل من تبنى منهج المدرسة ودعا إليه، وتعامل على ضوئه مع مشكلات عصره، يعد تلميذًا من تلاميذ المدرسة السلفية التي كان أستاذها الأول[٣] الرسول ﷺ بتعيين رباني في قول اللّه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ [الجمعة: ٢، ٣] وبذلك تكون المدرسة السلفية، ربانية المصدر، نبوية المنهج إحسانية النموذج والتطبيق.

(١) انظر: التفسير ورجاله (ص ٤٥).
(٢) الظلال (٢/ ٢٠٨).
(٣) لأن التربية والتعليم من وظائف الرسول ﷺ الأساسية في مجال التبليغ، لتتلاءم حياة الفرد والجماعة مع مبادئ الدين.

المبحث الرابع: معالم منهج السلف في التفسير:

الأصل الأساس للإسلام، هو القرآن الكريم، يسره اللـه سبحانه، بلسان الرسول ﷺ[(١)] ليبين للناس ما نزل إليهم بالبيان القولي، والتطبيق العملي، والرسول في كليهما متلقٍّ عن ربه ومبلغ عنه، ومن ثم كان ما صدر منه، عليه الصلاة والسلام، في مجال التشريع والتكليف، أول ما تتلمس فيه معالم المنهج السلفي في تفسير القرآن الكريم، مضافًا إليه الإطار المكون لمفهوم « السلفية »[(٢)] باعتباره إطارًا تمت فيه الممارسات الأولى للتفسير، كما برزت فيه المعايير الأولى الضابطة لتفسير النصوص في المنهج المعرفي الإسلامي عامة، وقت أن دعت الحاجة إلى ذلك.

وعليه، فإن الميدان الذي تتلمس فيه معالم هذا المنهج، يمكن حصره في:

١ - القرآن الكريم؛ لأنه بيان للناس[(٣)]، شامل لحاجاتهم[(٤)].

٢ - منهج الرسول ﷺ؛ لأنه عالج قضية البيان والتفسير قولًا وعملًا، في إطار القيام بمهمة تبليغ الرسالة، ولأنه القدوة المتبع دون غيره[(٥)].

٣ - منهج الصحابة - رضي اللـه عنهم - في هذا البيان، لمباشرتهم عملية البيان والتبليغ، إما بتكليف من الرسول ﷺ، كإرساله البعثات إلى مختلف الجهات، يقومون بإقراء الناس، وتفقيههم في القرآن[(٦)]، أو استجابة لنداء القرآن بالتدبر والتفكر، واستعمال الأدوات المعرفية التي حددها لهذا الغرض، في مثل قول اللـه تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨] وفي مثل قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ

---

(١) أي بلغته، انظر مفردات الراغب، مادة: لسن، مستشهدًا بقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾ [مريم: ٩٧].

(٢) انظر تحديد مفهوم السلف (ص ١٦).

(٣) قال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

(٤) قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩].

(٥) قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

(٦) انظر سيرة ابن هشام (١/ ٤٣٤)، وفي صحيح مسلم عن أنس ﷺ قال: « جاء ناس إلى النبي ﷺ فقالوا: أن ابعث معنا رجالًا يعلموننا القرآن والسنة، فبعث إليهم سبعين رجلًا من الأنصار يقال لهم القراء... يقرؤون القرآن ويتدارسون بالليل، يتعلمون.. » كتاب الجهاد، باب رضا اللـه عن الشهداء ورضاهم عنه.

ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

إن هذا التحديد للميدان، المبحوث فيه عن معالم منهج السلف في التفسير يصل بنا إلى عملية إبراز معالم هذا المنهج انطلاقًا من النقاط التالية:

أ - تعلم الإيمان صحبه تعلم القرآن، لتهييئ الأرضية الصالحة لبناء إيماني متكامل ومتوازن؛ لأن اللّـه ربط الاهتداء بالقرآن، بالتقوى والإيمان والعمل الصالح[(١)]. يقول أبو عبد الرحمن السلمي[(٢)]: « كان الذين يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان، وعبد اللّـه ابن مسعود، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات، لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا »[(٣)].

ب - الصدور عن القرآن والسنة الصحيحة في اكتساب المعرفة بعد امتلاك وسائلها[(٤)]. وهو صدور يحتمه الإيمان وطبيعة المصدر لما تحدث به عن نفسه بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

ج - اعتماد مفاهيم الصدر الأول للإسلام، في التفسير الممثل في الصحابة والتابعين، لاعتبارات قيمية، تتجلى فيما سقناه من نصوص قرآنية وحديثية، شاهدًا على اعتبار عصر السلف زمانًا وأهلًا. كما تتجلى أيضًا، في اختصاص الصحابة بميزة إقامة الدين، وحفظه وتبليغه، وفي ملازمتهم، ومشافهتهم - إجمالًا - للرسول ﷺ فيما فسر وأمر ونهى وفيما قضى وأفتى. وكان التابعون، تبعًا لهم، لما لهم من خيرية العصر المنصوص عليه، ولما قاموا به هم أيضًا « من نصر الشريعة وضبط أمرها وتلقى الأحكام والتفسير من في الصحابة - رضي اللّـه عنهم - »[(٥)].

د - اعتماد النص ومفهومه قرآنًا أو سنة في كل شأن من شؤون البيان والتفسير والاستدلال والاستنباط. سواء تعلق الأمر بالاعتقاد أو بالتشريع أو بالأخلاق، وأن

---

(١) قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢، ٣].

(٢) عبد اللّـه بن حبيب بن ربيعة الكوفي القارئ الحافظ، تابعي (ت: ٧٣هـ) أو بعدها، ن. تذكرة الحفاظ (١/ ٥٨، ٥٩)، وطبقات الحفاظ للسيوطي (ص ٢٧).

(٣) مقدمة تفسير الطبري (١/ ٣٥)، وانظر مسند الإمام أحمد بترتيب عبد الرحمن البنا، كتاب فضائل القرآن وتفسيره، باب ما جاء في قراءة القرآن.

(٤) أي ما يشترط في تفسير النصوص، قرآنًا كانت أو سنة في علوم القرآن وعلوم السنة.

(٥) أصول مذهب الإمام أحمد (ص ١٠٧).

الاجتهاد في فهم النصـوص وتطبيقاتها مطلوب نصًا، وواجب شرعًا على العلماء ما لم يكن في المسألة نص عن اللّـه أو عن رسوله ﷺ(١).

تلك هي أهم معالم المنهج السلفي في تفسير القرآن الكريم وإن كانت شاملة لتفسير النص التشريعي كله، مستقاة من الواقع العملي للسلف. وهي معالم، إن لم نجدها محددة في شكل قواعد ضابطة لمنهج التفسير في عهد الرسول ﷺ أو في عهد الصحابة... فلأن نزول القرآن كان بلسان عربي مبين، في بيئة عربية قويمة اللسان، وصاحب الرسالة بين ظهراني القوم، يرجعون إليه عند الحاجة، معتمدين ما تلقوه عن الرسول المبلغ، قولًا وعملًا، وإن لم يجدوا بعد وفاته ﷺ وقد استجدت لهم أحوال رجعوا إلى بيئتهم العربية والثقافية وسليقتهم الإيمانية، دون ما حاجة إلى منهج مرسوم للتفسير، ولم تظهر أوليات هذه المعالم من الناحية النظرية والتأليفية إلا عندما اتسعت رقعة الإسلام الجغرافية والعقدية، واستجدت بذلك حالات فكرية وعلمية وعملية، جعلت بعض المهتمين بتفسير القرآن، من الصحابة، يتحدثون في اقتضاب، عما يجب مراعاته والسير على ضوئه، أثناء تفسير كتاب اللّـه تعالى.

في هذا المجال، يقول عبد اللّـه بن مسعود - وهو يلقن تلاميذه هذا المنهج -: « عليكم بالعلم، وإياكم والتنطع والتعمق، وعليكم بالعتيق... وإذا أردتم العلم، فأثيروا(٢) القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين »(٣).

وفي كلمة أخرى له، يرتب طرق الاستدلال، وقواعد الإفتاء، كما استقـرت عليه في علم أصول فقه الوحي ومعلمًا تلامذتـه المنهج؛ قائلًا: « فإذا سألتـم عن شيء، فانظروا في كتاب اللّـه، فإن لم تجدوه في كتاب اللّـه، ففي سنة رسول اللّـه ﷺ فإن لم تجدوه في سنة رسول اللّـه، فما أجمع عليه المسلمون، فإن لم يكن فيما أجمع عليه المسلمون فاجتهد رأيك، ولا تقل: إني أخاف وأخشى، فإن الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهة، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك »(٤).

وعلى هذا المنوال كان ابن عباس ﷺ ينسج، فقد « كـان إذا سئل، فإن كان في القرآن

---

(١) انظر: إعلام الموقعين (١/ ٢٠٢).
(٢) أي انقروا عنه وفكروا في معانيه وتفسيره وقراءته. انظر: النهاية لابن الأثير، باب الثاء والواو.
(٣) تذكرة الحفاظ (١/ ١٦). (٤) الطبقات (٦/ ١٠).

أخبر به، فإن لم يكن، وكان عند رسول اللّـه ﷺ أخبر به، فإن لم يكن، وكان عند أبي بكر وعمر أخبر به، وإن لم يكن قال برأيه »[١]. وقوله بالرأي كان استنادًا إلى تضلعه بمعرفة الشعر - وهو ديوان العربية - وإلى معارف العصر عامة، يقول عنه عبيد اللّـه ابن عبد اللّـه[٢]: « ولقد كنا نحضر عنده، فيحدثنا العشية كلها في المغازي، والعشية كلها في النسب، والعشية كلها في الشعر »[٣].

إنها معالم واضحة ومحددة تحديدًا دقيقًا في القرآن والسنة والإجماع وأقوال الصحابة والاجتهاد. بناء على التضلع في اللغة وعلى الاستعانة بمعارف العصر. ولقد استقرت هذه المعالم نظرًا وممارسة، تضبط عملية التفسير في أجيال خير القرون، كما يتجلى ذلك في أبواب التفسير من كتب السنة[٤]، وفي شكل مقدمات منهجية لبعض التفاسير التي تنتمي إلى عصر السلف[٥] مكونة بهذا الاستقرار، نواة منهج متكامل في التفسير، متناسقة قواعده، محددة أصوله، ثم برز المنهج متكامل البناء، في مصنفات علوم القرآن على صورة بنود وشروط، سنحاول بيانها في المبحث التالي بحول اللّـه.

***

المَبْحَثُ الخَامِسُ: أصول التفسير السلفي وقواعده:

لعل من نافلة القول، التذكير بأن « المدرسة السلفية » بخصائصها ومميزاتها، كانت وليدة البيئة المعرفية، والمواقف الاعتقادية والسياسية والاجتماعية التي تولدت عن هذه المعرفة، كما كانت رد فعل ضد الانحراف الذي أحدثته الثقافات الوافدة إلى العالم الإسلامي، فيما يعرف « بأصول الدين ». من هنا نشأت الحاجة إلى وضع ضوابط واقية للعقول السليمة من الزلل، في فهم النص القرآني، ومعالجة العقول المريضة مما أصابها من انحراف في هذا الفهم؛ ضوابط وضعها السلف الصالح، استجابة إلى ما

(١) الإصابة (٢/ ٣٣٤).

(٢) هو عبيد اللّـه بن عبد اللّـه بن عتبة بن عبد اللّـه بن مسعود، تتلمذ على أبيه عبد اللّـه، وأرسل عن ابن عباس (ت: ٩٤هـ)، ن. تهذيب التهذيب (٧/ ٣٣).

(٣) أسد الغابة (٣/ ١٩٣).

(٤) أوضح نموذج لذلك كتاب التفسير من صحيح البخاري.

(٥) كمقدمة ابن جرير في جامع البيان.

تفرضه الغيرة الإيمانية، خوفًا على القرآن من عوادي الفتنة والخلط والوضع في المعنى؛ استنباطًا من الصور العملية التي مارسها رسول اللّـه ﷺ وتبناها الصحابة الذين تصدوا للتفسير في صور عملية[1]. ثم تبلورت في نصوص توجيهية، صدرت عنهم، تمثل قواعد نظرية أساسية في أصول التفسير، كما هو الشأن في كلمتي ابن مسعود وابن عباس - رضي اللّـه عنهما -[2].

ولئن كان تصنيف هذه الأصول والقواعد قد استقر على إرجاعها إلى النقل وإلى اللغة وإلى العقل[3]، فإن طبيعة نشوء هذه الأصول يؤكد انتماءها إلى هذه المصادر الثلاثة، فقد كان العامل الأساس في ظهور كل ما يعرف « بعلوم الآلة » هو الخوف على القرآن الكريم من تحريف المبنى، الذي يلازمه تحريف المعنى[4].

وقد بدأت ملامح هذا التعريف تطفوا على السطح على بعض الألسنة، وفي بعض المفاهيم في صدر الإسلام، وعلوم القرآن في نشأتها الأولى وبالشكل التي هي عليه، آلات ضابطة فارزة، يستعملها ويرجع إليه كل من يريد تفسير كتاب اللّـه تعالى. ومن ثم فإن حضور أصول التفسير وقواعده في عملية التفسير في منهج السلف، كان حضورًا عمليًّا تطبيقيًّا، قائمًا على أصلين وقاعدة، تحدد العلاقة بينهما.

* **الأصل الأول: النقل**، ممثلًا في القرآن والسنة، ومفاهيم الصدر الأول من هذين الأصلين.

* **الأصل الثاني: العقل**، باعتباره أداة التكليف ووسيلة الاستنباط، والفهم من النقل، عند توفر أدوات استعماله، وهذا في إطار مقاصد الشرع، وروح التشريع،

---

(١) مثلًا قولة أبي بكر ﷺ عندما سئل عن الأبِّ ما هو؟ فقال: « أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب اللّـه ما لا أعلم »، ن. مقدمة في أصول التفسير (ص ١٠٨).

(٢) انظر صفحة (٣٩).

(٣) انظر مثلًا:

أ - مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية.

ب - البرهان في علوم القرآن للزركشي، مجلد (٢).

جـ - دراسات في أصول تفسير القرآن، د. محسن عبد الحميد.

د - لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير: محمد الصباغ (في تصنيفه لأصول التفسير وقواعده).

(٤) انظر: الفهرست (ص ٦٠)، والأصول، دراسة ابستمولوجية (ص ٢٣).

ومعرفة الأشباه والنظائر المنصوص عليها في الشرع.

- القاعدة وتتلخص في: جعل التفسير بالنقل هو الأصل الذي يقوم عليه التفسير بالعقل؛ لأن النقل هو العاصم للمفسر بالعقل (الرأي) من الوقوع في الخطأ؛ « فالنقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير أولًا، ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط »(١).

وهذه العلاقة بين النقل والعقل، ينحصر دورها في المنهج السليم خارج إطار ما يتعلق بالاعتقاد، من آيات القرآن الكريم، وما صحَّ من السنة؛ ذلك أن آيات الأسماء والصفات والآيات التي تتحدث عن اليوم الآخر، وما يتصل به من أوصاف الجنة وما فيها من نعيم مقيم، وأوصاف النار، وما فيها من عذاب أليم، والملائكة ووظائفهم، وكل ما يدخل في هذا المجال، المرجع فيه - في المنهج السليم - القرآن الكريم والنقل الصحيح عن المعصوم محمد ﷺ. والقاعدة في هذا إثبات ما أثبته الوحي ونفي ما نفاه، من غير تشبيه ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل؛ لأن وظيفة العقل عند السلف - فيما يخص الاعتقاد: الفهم والاعتقاد - ثم الاتباع والتسليم، بكل ما جاء به الوحي، دون تأويل(٢).

سئل أحمد بن حنبل عن الأحاديث التي تروى عن النبي ﷺ: « أن اللّـه ينزل إلى السماء الدنيا »(٣)، فقال: « نؤمن بها ونصدق بها، ولا نرد شيئًا منها، إذا كانت أسانيد صحاح، ولا نرد على رسول اللّـه قوله، ونعلم أن ما جاء به الرسول حقًّا »(٤).

والواقع أن هذه القاعدة « تكاد تحكم عملية التفسير في كل مجالات الثقافة الإسلامية،

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٣١).

(٢) ينظر التفصيل في:

أ - الإبانة عن أصول الديانة (ص ٨) فما بعدها.

ب - الملل والنحل (ص ٣١ - ٤٢).

ج - شرح العقيدة الطحاوية، (ص ٩٩).

د - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٤٥٢).

هـ - الفتاوى (٣/ ٣).

(٣) الحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة في كتاب الدعاء، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل.

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٤٥٣).

في مراحلها الأولى، فلا يفسر القرآن بالرأي... ولا يقال في الاعتقاد بالرأي، إذا وجدت آية أو حديث أو أثر، يدل على معنى لهذه الآية أو تلك؛ لأن النص يجب احترامه. وإذا اختلف الناس في شيء ردوه إلى اللّـه ورسوله... ولم يعتمدوا في الحكم فيه على عقولهم واجتهاداتهم، إلا إذا أعياهم النص الذي يسترشدون به... »[(١)].

هكذا، ومنذ الصدر الأول للإسلام برزت إلى الساحة المعرفية الإسلامية، وفي أحضان العصر المثالي للسلف، أصول وضوابط للتفسير، في صورة أقوال متناثرة، دونتها مصنفات السنة وعلومها[(٢)]، وبعض مقدمات مؤلفات التفسير في عصر السلف[(٣)]. على أنه يمكن القول بأن رسالة الإمام الشافعي قد حوت الأهم من هذه الضوابط، ولا سيما إذا علمنا أن سبب تأليف الرسالة: « أن عبد الرحمن بن مهدي[(٤)] كتب إلى الشافعي: أن يضع له كتابًا فيه معاني القرآن ويجمع قبول الأخبار فيه، وحجة الإجماع، وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة. فوضع له كتاب الرسالة »[(٥)].

وإن ما أجملناه من قول في أصول التفسير وقواعده يتطلب منا بعض تفصيل يوضح هذا الإجمال، تبعًا لطبيعة المنهج العملي للسلف، في الرجوع إلى هذه الأصول، تبعًا لما استقر عليه تصنيفها في مؤلفات علوم القرآن التي تنتمي إلى الفكر التأصيلي وهو تصنيف تقتضيه طبيعة الوحي وطبيعة مصدره الرباني، ومن ثم حتمية الرجوع إلى هذه الأصول على الترتيب الآتي:

١ - تفسير القرآن بالقرآن، وذلك أخذًا من فعل الرسول ﷺ؛ فعن ابن مسعود ﷺ قال: لـمَّا نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول اللّـه ﷺ وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول اللّـه ﷺ: « **ليس كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه:** ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] »[(٦)] وعلى

(١) الأصول، دراسة ابستمولوجية، (ص ٤٨) (بتصرف قليل).

(٢) انظر مثلًا: مصنف عبد الرزاق (١١/ ٢١٦) باب الخصومة في القرآن، (١١/ ٢٥٢) باب العلم، صحيح مسلم: كتاب فضائل القرآن، مسند الحميدي: باب التفسير وفضائل القرآن.

(٣) انظر: مقدمة تفسير الطبري في الجزء الأول منه.

(٤) أبو سعيد العنبري البصري ثبت ثقة حافظ، قال ابن المديني: ما رأيت أعلم منه (ت: ٢٩٨هـ)، تقريب التهذيب (ص ٢١٠).

(٥) تاريخ بغداد (٢/ ٦٤، ٦٥).

(٦) أخرجه مسلم في كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢].

المنهج صار الأصحاب ﷺ بعد وفاة الرسول ﷺ[١].

٢ – **تفسير القرآن بالسنة الشاملة** لكل فعل تشريعي، صدر عن رسول اللّـه ﷺ قولًا أو فعلًا أو تقريرًا؛ إذ وظيفته الأساسية هي التبليغ والتبيين، لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وتأسيسًا على ذلك، قال الشافعي: « البيان اسم جامع لمعاني مجتمعة الأصول، متشعبة الفروع، فأقل ما في تلك المعاني أنها بيان لمن خوطب بها.. ممن نزل القرآن بلسانه »[٢]. وهم العرب. وأن « السنة كلها تفصيل للقرآن، وتبيان لدلالته، وبيان لمراد اللّـه منه »[٣] كما قال ابن القيم.

٣ – **تفسير القرآن بالمأثور عن الصحابة**، « فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال، التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح »[٤]. وفي تفصيل بين ما تعلق بأسباب النزول، وما أجمعوا عليه، وما لا مجال للرأي فيه، وبين تفسيراتهم المستنبطة، التي قد يختلفون فيها، أو يتفق بعضهم عليها[٥].

٤ – **تفسير القرآن بأقوال التابعين**، على خلاف بين السلف في الأخذ بهذه الأقوال، إذا لم يكن إجماعًا منهم، فإن كان إجماعًا، فلا ريب في كونه حجة[٦] لأنه إجماع، لا لأنه قول التابعين.

٥ – **اعتماد السند الصحيح** في كل تفسير مأثور يكون أصلًا من أصول التفسير؛ إذ من قواعد السلف، إذا صح السند، فلا عبرة بالنظر، خاصة إذا لم يعارضه عقل؛ ولذا كان اهتمام السلف كبيرًا، بعلوم الحديث ومصطلحه، حتى قصر اسم السلف على أهل الحديث خاصة عند بعض أهل العلم.

٦ – **عدم الخوض في المبهمات والغيبيات** التي أبهمها القرآن، أو أجملها، ولم تبين لا بقرآن

---

(١) انظر مثلًا: تفسير ابن عباس لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] في شأن كاتم الشهادة حيث قال: ومن الكبائر كتمان الشهادة؛ لأن اللّـه تعالى يقول: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، فتح القدير (١/ ٣٠٤).

(٢) الرسالة (ص ٢١).

(٣) زاد المعاد (٤/ ١٥).

(٤) مقدمة في أصول التفسير (ص ٩٥).

(٥) محل تفصيل ذلك كتب أصول الفقه ومؤلفات علوم القرآن في بيانها وترتيبها للأدلة الشرعية.

(٦) انظر: مقدمة في أصول التفسير (ص ١٠٥).

ولا بسنة صحيحة... لأن هذا من التكلف والتعمق الذي لا فائدة عملية ترجى من وراء تفصيله مثل: هل بقرة بني إسرائيل ذكرًا كانت أم أنثى، وتعيين البعض المضروب به منها، وبيان كلب أصحاب الكهف... فهذا تكلف ما لا يعني، وكان الصحابة ﷺ يعدون مثل ذلك قبيحًا، ومن قبيل تضييع الأوقات[١].

٧ - اللغة العربية؛ لأنها لغة القرآن، ولغة البيئة التي نزل فيها. وذلك في إطار عرف القرآن، والنظر إلى المتكلم به والمنزل عليه، مع اعتماد ما نقل عن الصحابة والتابعين وأهل الاختصاص في مجال اللغة من أهل الصدر الأول... قال الضحاك[٢] في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]: حق على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيهًا، فمن حفظه قبل بلوغه، ثم فرع إلى ما يستعين به على فهمه من لسان العرب كان له ذلك عونًا كبيرًا على مراده منه... »[٣]، من هنا اشترط علماء التفسير عند اتساع رقعة الإسلام، واختلاط اللسان، في من يريد تعاطي تفسير كتاب اللّـه، أن يتعلم من اللغة ما يضبط الفهم ويمنع الانحراف بتعلم آليات اللغة، حتى قال الإمام مالك: « لا أوتى برجل غير عالم بلغات العرب، يفسر كتاب اللّـه إلا جعلته نكالًا »[٤].

٨ - الاجتهاد باستعمال الرأي والعقل، في غياب النقل، إذا توفرت للمفسر أدوات الاجتهاد، المنصوص عليها في مؤلفات علوم القرآن وأصول الفقه، والمراد؛ الاستنباط والاستنتاج بالقياس[٥] على أصول الإسلام وفروعه الثابتة كتابًا وسنة، واعتماد روح التشريع ومقاصده، ومعرفة الأشباه والنظائر المنصوص عليها.

قال ابن تيمية موجهًا القول في موضوع جواز التفسير بالرأي وعدمه، ومعقبًا على الآثار الواردة في المنع: « فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف، محمولة

---

(١) انظر: الفوز الكبير في أصول التفسير (ص ٥٧).

(٢) أبو القاسم الضحاك بن مزاحم الهلالي الخراساني المفسر، توفي في بداية المائة الثانية هجرية، ن. تقريب التهذيب (ص ١٥٥)، طبقات المفسرين للداودي (١/ ٢٢٢).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٢٠٤)، وفيه يقول ابن عبد البر: « كل ما يعين على فهم القرآن واجب طلبه ».

(٤) البرهان للزركشي (٢/ ١٦٠).

(٥) سئل الإمام الشافعي: « ما القياس؟ أهو الاجتهاد أم هما مفترقان؟ قال: هما اسمان لمعنى واحد »، الرسالة (ص ٤٧٧).

على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا، فلا حرج عليه »[1].

ملاحظات:

أ - هناك أصول أخرى تدخل في إطار الأصول النقلية، هي من القواعد الأساسية في التفسير، كمعرفة الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، والمكي والمدني... لم ندرجها في التصنيف؛ لأنها متضمنة في الأصل الثاني والثالث.

ب - الأصول اللغوية لا تحتاج فقط في تفسير ألفاظ القرآن، وبيان معاني بعض الآيات، وإنما تحتاج أيضًا في عملية تفسير القرآن بالقرآن، عند بيان المخصص للعام، والمقيد للمطلق، والمبين للمجمل.

ج - الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها، وما أريد بها من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم »[2].

د - إن توظيف هذه الأصول في التفسير هو على هذا الترتيب؛ لأن الفقه بمعنى الفهم في الاعتبار السلفي « مأخذه الكتاب والسنة والإجماع والعبرة »[3].

تلك هي أهم الضوابط الكبرى التي استقر عليها المنهج السلفي في التفسير وانطلق منها المفسرون في فهم النص القرآني وتفهيمه، وسار على هذا المنهج علماء مثلوا في التاريخ الفكري للأمة، ما سماه مالك بن نبي[4] « الترسانة الفكرية التي ما زالت تمد الحركات الإصلاحية بالأفكار النموذجية إلى اليوم »[5].

* * *

---

(١) مقدمة في أصول التفسير (ص ١١٤).

(٢) الفتاوى (٧/ ٢٨٦).

(٣) إيقاظ همم أولي الأبصار (ص ٧٢)، وقال في الهامش: العبرة والاعتبار القياس الصحيح.

(٤) المفكر الإسلامي المشهور ولد بقسنطينة في الجزائر عام (١٩٠٥م)، وانتقل إلى باريس بعد إنهاء دراسته الثانوية، حيث تخرج مهندسًا كهربائيًّا عام (١٩٣٥م)، اتجه منذ نشأته إلى تحليل الأحداث التي كانت تحيط به، وأعطته ثقافته المنهجية قدرة على إبراز مشكلات العالم المتخلف، من مؤلفاته: سلسلة مشكلات الحضارة - المسلم في عالم الاقتصاد - الظاهرة القرآنية - مذكرات شاهد القرن، توفي بالجزائر عام (١٩٧٣م).

(٥) حتى يغيروا ما بأنفسهم (ص ٩).

المَبْحَثُ السَّادِسُ: مصادر التفسير السلفي:

من القضايا المهمة في المنهج السلفي المعرفي، الاتصال المباشر بالكتاب والسنة والرجوع إليهما في كل نازلة، واتباع السلف الصالح في الكيفية التي درجوا عليها في هذا الاتصال والرجوع، للاعتقاد الجازم بأن أساس المعرفة الإسلامية، ومصدرها الأصلي هو ما جاء عن اللَّـه تعالى من وحي، وأن هذا الوحي فاعل في الزمان والمكان، ومستوعب للحاجات البشرية المتجددة[1].

لذا كان من الشروط الواجب توفرها في كل من يريد الإقدام على التفسير، معرفة المنهج الذي خطه الأوائل في محاولاتهم البشرية لتفسير كتاب اللَّـه، القاضي بالالتزام بالقواعد والأصول التي حددت ضوابط للتفسير السلفي، ضبطًا للفهم ومنعًا له من الانحراف.

غير أن هذه الأصول عندما نرجع إليها نستمد منها ما يسعفنا في عملية التفسير والاستنباط، تتحول إلى مصادر للتفسير تزودنا بما نحتاج إليه في عملنا البياني، في صحبة عناصر أخرى، ذات نسب قريب جدًّا من هذه الأصول، تكون في مجموعها مصادر التفسير السلفي.

وتسمية هذا المجموع بالمصادر، جاء من كوننا نرجع إليها في التفسير، « إذ الصدر عن كل شيء، الرجوع إليه... والمصدر، جمع مصادر، موضعُ الصُّدور »[2]. ولهذا التداخل سمى الأوائل المصادر بالأصول والأمهات[3]، وصنفتها مؤلفات علوم القرآن في مباحث أصول قواعد التفسير، على اعتبارها ضوابط. وفي مباحث المصادر باعتبارها الجهات التي تمدنا بالمعلومات والمعارف اللازمة للقيامة بمهمة التفسير. وهنا لا بد من القول بأن هذه المصادر في المنهج السلفي، منها ما هو أساسي، ومنها ما هو ثانوي، يستأنس به ولا يتقيد به، ومنها ما هو مصنفات ومؤلفات، وما هو أقوال وآراء لعلماء ينتمون إلى السلف الصالح وعصرهم، أو إلى منهجهم في التعامل مع أصول الإسلام. وإنا ذاكرون هذه المصادر، تبعًا لهذا الترتيب الذي أجملناها به في إيجاز توجيه طبيعة موضوع البحث.

---

(١) انظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن (ص ٧٣).
(٢) اللسان، مادة: صدر.
(٣) انظر: المصادر العربية والمعربة، (ص ١١).

أ - المصادر الأساسية:

١ - القرآن الكريم:

وهذا من منهج الرسول ﷺ لذلك كان أول أصل من أصول التفسير السلفي، في تطابق تام مع ما يميز المنهج السلفي، وعلى هذا صار الأصحاب ﷺ في بيانهم للقرآن، فعن عروة بن الزبير[1]: « أنه سأل عائشة - رضي اللّه عنها - عن قول اللّه ﷻ: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾[النساء: ٣]، قالت: يا ابن أختي: هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله، فيعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها، بغير أن يقسط في صداقها... فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن... ثم إن الناس استفتوا رسول اللّه ﷺ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل اللّه ﷻ: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾ [النساء: ١٢٧] قالت: والذي ذكر اللّه أنه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قال اللّه فيها: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء: ٣][2].

إلا أن الصدور عن القرآن في تفسير القرآن، لا يقف عند تفسير نص بنص آخر، ولكنه يشمل حتى المفردات وتقييد المطلق وتخصيص العام...

قال ابن تيمية وهو ممن يمثل المنهج السلفي في عصره: « إن أحسن الطرق أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر... »[3].

٢ - السنة:

والرجوع إليها يقتضيه الإيمان بالرسول ﷺ ويوجبه ما صرح به القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤] أي (في هذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد والاعتقاد، بقوله وفعله...لأنه مبين عن اللّه ﷻ مراده، مما أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزكاة، وغير ذلك مما لم يفصله القرآن)[4]

---

(١) عروة بن الزبير بن العوام الأسدي تابعي ثقة فقيه (ت: ٩٤هـ)، ن. تقريب التهذيب (ص ٢٣٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى ﴾ [النساء: ٣].

(٣) مقدمة أصول التفسير (ص ٩٣).

(٤) تفسير القرطبي (ص ٩، ١٠) (بتصرف).

وسئل الإمام أحمد عن الحديث الذي روي فيه أن السنة قاضية على الكتاب فقال: « ما أجسر على هذا أن أقوله... إن السنة تفسر الكتاب وتبينه »[١].

٣ - أقوال الصحابة ﭫ:

لكثرة ما قالوه في التفسير، ولشهادة ربنا سبحانه لهم بقوة الإيمان، واختياره لهم لحمل الرسالة[٢] إلى جانب رسول اللّه ﷺ، ولشهادة الرسول بالفضل لعامتهم والعلم لخاصتهم[٣] « فعن قتادة[٤] في قوله ﷻ: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ [سبأ: ٦] قال: أصحاب محمد ﷺ »[٥]؛ لذا لم يتردد المنهج السلفي في الأخذ بما فسره الأصحاب في جملته، وإعطائه الصدارة بعد القرآن والسنة... وقد أنزلهم ابن تيمية - وهو ممن سار على منهج السلف - هذه المنزلة في مصنفه في علوم القرآن[٦].

٤ - اللغة العربية:

وهي مصدر عرف منذ عهد الصحابة، وأصبح يأخذ المرتبة الرابعة بعد المصادر الثلاثة السابقة وذلك عندما باشر الصحابة قضايا الأمة الطارئة، التي استدعت إثارة نصوص التشريع - ولا سيما القرآن - لحل ما أحدث من قضايا. فكان من أدواتهم الرجوع إلى استعمال أهل اللغة ومناحيهم في القول، والوضع الدلالي للألفاظ في عصر التنزل، في غياب النص من القرآن والسنة.

وفي هذا الصدد يقول الزركشي: « القرآن قسمان: أحدهما ورد تفسيره بالنقل عمن يعتبر تفسيره، وقسم لم يرد... وهذا قليل، وطريق التوصل إلى فهمه، النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق »[٧].

وورد أن عمر بن الخطاب - وهو على المنبر - قال: يا أيها الناس، ما تقولون في

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٢٣٤).

(٢) قال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، تقريب التهذيب (ص ٢٨١).

(٣) انظر: فتح الباري (٧/ ٥).

(٤) هو قتادة بن دعامة السدوسي من صغار التابعين ثقة ثبت، توفي سنة بضع عشرة ومائة، تقريب التهذيب (ص ٢٨١).

(٥) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٣٦).

(٦) انظر: مقدمة في أصول التفسير (ص ٩٥).

(٧) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٧٢).

قول اللّـه ﷻ: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ [النحل: ٤٧]. فقال شيخ من هذيل: هي لغتنا يا أمير المؤمنين. فقال عمر: أتعرف العرب ذلك؟ فقال: نعم، وأنشد له بيتًا من الشعر... فقال عمر: أيها الناس عليكم بديوانكم شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم[١]، وكان ابن عباس يسأل عن القرآن فينشد الشعرَ، مستشهدًا به على التفسير[٢].

إن الحاجة الملحة والمبكرة إلى هذا المصدر، هي التي أدت إلى الظهور المبكر أيضًا لمصنفات معاني القرآن[٣] وغريب القرآن[٤] ولغات القرآن[٥]، مواكبة لحاجات الأمة المعرفية والفكرية والتشريعية، لا سيما وقد فشا في الأمة ببداية القرن الثاني للهجرة تدوين العلوم والتصنيف والتأليف فيها، بما في ذلك تدوين التفسير بالمأثور، الذي لم يكن قد انفصل عن تدوين السنة بعد.

ب - المصادر الثانوية:

وأعني بها المصادر غير الملزمة، بما فيها من تفسير، وليست ملزمة بالرجوع إليها، خارج دائرة النقل الصحيح عن رسول اللّـه ﷺ أو عن الصحابة، وهي مصادر يستأنس بها، تقوية وتعضيدًا، أو زيادة في التوضيح والبيان، أو توسعًا في المعنى المراد، الظاهر من الآية... وكل هذا في إطار المنهج السلفي العام في التفسير؛ ومما يدخل في ذلك:

١ - أقوال التابعين:

لما لهم من قيمة علمية وإيمانية.. خاصةً من تجرد منهم للعلم، حتى اشتهر بالتفسير والفقه والتحديث مثل:

- عكرمة بن عبد اللّـه البربري الذي ارتبطت حياته بحياة عبد اللّـه بن عباس، قال عكرمة عن نفسه: طلبت العلم أربعين سنة، وكان ابن عباس يضع الكبل في رجلي

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١١٣)، وتفسير القرطبي (١٠/ ١١٠).

(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٢٠) وبه مسائل ابن الأزرق التي اشتهرت باستشهاد ابن عباس فيها بالشعر على ما ذهب إليه مفسرًا، في رده على ابن الأزرق، رأس فرقة الخوارج الأزارقة (ت: ٦٠هـ)، وانظر الملل والنحل (ص ١١٨).

(٣) انظر: الفهرست، (ص ٥١ - ٥٣).

(٤،٥) انظر: ن.م، (ص ٥١ - ٥٣).

على تعلم القرآن والسنن[١].

- مجاهد بن جبر الذي حدث عنه أنه عرض القرآن على ابن عباس ثلاث مرات يوقفه عند كل آية يسأله كيف أنزلت وكيف كانت[٢].

- سعيد بن جبير، شهيد العلم والحق، الفقيه المفسر، قرأ على ابن عباس القرآن والتفسير[٣]، إلى جانب أسماء كثيرة لامعة، في سماء تفسير القرآن من التابعين منها: طاووس بن كيسان[٤] وعطاء بن أبي رباح[٥] وعلقمة بن قيس[٦]، ومسروق بن الأجدع[٧]، وزيد بن أسلم[٨].

ومع ما للتابعين من قيمة علمية وأدبية كما أسلفنا، فإن أقوالهم لا ترقى إلى مستوى المصادر الأساسية في المنهج السلفي؛ لأنها كما قال شعبة بن الحجاج[٩]: « في الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير ». قال ابن تيمية معلقًا على هذه القولة: « يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح »[١٠]؛لأن العلم الموجب للعمل « الخبر في الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس »[١١] وقول الشافعي ليس من هذا، ولهذا قال أبو حنيفة: ما جاء عن رسول اللّه ﷺ فعلى الرأس والعين وما جاء عن الصحابة تخيرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال[١٢].

---

(١) ن. حلية الأولياء (٣/ ٣٢٦)، وميزان الاعتدال (٣/ ٩٣) وغيرهما.

(٢) ن. غاية النهاية (٢/ ٤١) وصفوة الصفوة (٢/ ٢٩٩) وميزان الاعتدال (٣/ ٤٤٠).

(٣) انظر الطبقات (٦/ ٢٨٦)، وطبقات الحفاظ للسيوطي (ص ٣٨) وغيرهما.

(٤) أبو عبد الرحمن الخولاني تابعي مشهور، رأس في العلم والعمل، توفي بمكة عام (١٠٦هـ)، تذكرة الحفاظ (١/ ٩٠).

(٥) أبو محمد بن أسلم القرشي، تعددت مصادره في التفسير (ت: ١١٤هـ)، تهذيب التهذيب (٧/ ٢٠٢).

(٦) ابن عبد اللّه بن النخع المحدث الفقيه المفسر (ت: ٦٢ أو ٧٢هـ)، انظر الطبقات (٦/ ٨٧).

(٧) الكوفي سماه عمر بن الخطاب مسروق بن عبد الرحمن، وكان يستشيره شريح القاضي لعلمه بالفتوى (ت: ٦٣هـ)، الطبقات (٦/ ٧٦)، النهاية (٢/ ٢٩٤).

(٨) أبو أسامة المدني الفقيه المفسر (ت: ١٣٦هـ)، تهذيب التهذيب (٣/ ٣٩٥).

(٩) العتكي أمير المؤمنين في الحديث وأول من فتش عن الرجال بالعراق وذب عن السنة (ت: ١٦٠هـ)، تقريب التهذيب (ص ١٤٥).

(١٠) انظر: مقدمة في أصول التفسير (ص ١٠٥).

(١١) الرسالة (ص ٣٩).

(١٢) لمحات في علوم القرآن (ص ١٣٨).

٢ - أقوال الأئمة الأعلام المنتمين إلى عصر السلف:

كأبي حنيفة ومالك وأحمد والشافعي والثـوري[١] والأوزاعي[٢] وعبد بن حميد[٣] وعبد الرزاق[٤] وابن أبي شيبة[٥] وابن جرير وغيرهم من علماء السلف، الذين ساروا على نهج الصحابة في فهم القرآن، وكانوا على الهدي في الاعتقاد ولزوم السنة في الدين.

ومع وجاهة أقوال هؤلاء الأئمة في التفسير وغيره، فإنها لا تصل إلى حد الإلزام الشرعي في المنهج السلفي، للإجماع على أنه: ليس قول أي أحد منهم ملزمًا غيره باتباعه[٦].

جـ - المصادر المصنفة:

وقد حوت بداخلها المراجع والمصادر، الأساسية والثانوية، إما في صورة مؤلفات خاصة بالتفسير، أو في صورة أبواب ومباحث جامعة مستقلة في التفسير، تشكل أحد مواضيع المصنف، أو على هيئة نصوص مبثوثة في فصول وأبواب هذا المصنف أو ذاك. تبعًا للموضوع ووحدته، وهذه المصادر يمكن تصنيفها إلى أربعة أصناف:

الصنف الأول: مؤلفات في التفسير خاصة، ومنها:

- تفسير مجاهد بن جبر المحدث المقرئ اللغوي المفسر[٧].
- تفسير سفيان الثوري لأبي عبد اللّـه سفيان بن سعيد[٨].
- تفسير عبد الملك بن جريج، وهو من التفاسير الأولى التي أنجزت في عهد التدوين[٩].

---

(١) أبو عبد اللّـه سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي ثقة حافظ إمام عابد حجة (ت: ١٦١هـ)، تقريب التهذيب (ص ١٢٨)، وانظر طبقات المفسرين للداودي (١/ ١٩٣).

(٢) عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي الفقيه، ثقة جليل (ت: ١٥٧هـ)، تقريب التهذيب (ص ٢٠٧).

(٣) أبو محمد الكلالي قيل: اسمه عبد الحميد.. من الأئمة الثقات (ت: ٢٤٩هـ)، طبقات المفسرين للداودي (١/ ٣٧٤).

(٤) أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني ثقة حافظ مصنف شهير، (ت: ٢١١هـ)، ن. الفهرست (ص ٣١٨).

(٥) أبو بكر عبد اللّـه بن محمد بن أبي شيبة إبراهيم بن عثمان، الحافظ الثبت (ت: ٢٣٥هـ)، ن. طبقات المفسرين للداودي (١/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(٦) انظر: الفتاوى (٢٠/ ١٠) وأوضح الإشارة (ص ١٠).

(٧) مطبوع بتحقيق وتعليق عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي، المنشورات العلمية - بيروت.

(٨) طبع بتصحيح وترتيب وتعليق، امتياز علي مرعشلي، دار الكتب العلمية - بيروت.

(٩) انظر: التفسير ورجاله (ص ٢١) والتفسير والمفسرون (١/ ٨٠).

- تفسير معاني القرآن لأبي زكرياء يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ)[١].

- تفسير ابن جرير الطبري المسمى: « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » وهو من أهم المصنفات في التفسير، الجامعة بين الأثر والنظر[٢].

- تفسير النسائي: لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي صاحب السنن[٣].

هذا إلى جانب مصنفات أخرى نهج فيها أصحابها نهج السلف في التفسير، وأخرى حادت عن هذا المنهج فيما يخص التفسير العقدي، يرجع إليها المنهج السلفي فيما يتعلق بجوانب أخرى[٤].

الصنف الثاني: مصنفات السنة النبوية؛ مثل: الصحيحين[٥] والسنن الأربعة[٦] وموطأ الإمام مالك ومسند الإمام أحمد ومستدرك الحاكم، ومصنف عبد الرزاق وغيرها، من المصنفات المعتمدة لدى أهل السنة والجماعة، في إطار علوم الحديث ومصطلحه التي مهمتها نقد السند والمتن.

الصنف الثالث: مؤلفات السير والمغازي؛ لأنها موضوع تصرفات الرسول ﷺ الاجتماعية والحربية والسياسية، وموضوع شمائله وأخلاقه، فهي من هذه الجهة مفسرة للقرآن، لأن « كثيرًا من آيات القرآن إنما تفسرها وتجليها الأحداث، التي مرت برسول اللَّه ﷺ وموقفه منها »[٧].

ومن مراجع هذا الصنف:

---

(١) مطبوع بتحقيق محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، عالم الكتب - بيروت.

(٢) طبع في عدة طبعات أحسنها ما اعتنى بإخراجه العلامة محمود محمد شاكر وأخوه أحمد محمد شاكر، صدر منه حتى الآن - فيما أعلم - ١٦ مجلدًا.

(٣) مطبوع بتحقيق صبري الشافعي، وسيد بن عباس الحليمي، الطبعة الأولى جمادى الآخرة (١٣١٠هـ) لمكتبة السنة - القاهرة.

(٤) مثل تفسير الكشاف للزمخشري فإن أهل السنة يرجعون إليه للاستفادة من تحقيق صاحبه في اللغة أو لتوضيح الفكر الاعتزالي والرد عليه.

(٥) صحيح البخاري وصحيح مسلم.

(٦) تطلق على: سنن أبي داود، وسنن النسائي، وجامع الترمذي، وسنن ابن ماجه. انظر مقدمة: سبل السلام، شرح بلوغ المرام للأمير الصنعاني (ص ١٢).

(٧) فقه السيرة للبوطي (ص ١٨).

- سيرة ابن هشام التي تعتبر جمعًا وترتيبًا لسيرة ابن إسحاق[١].
- جوامع السيرة لابن حزم محمد بن علي[٢].
- مغازي الرسول ﷺ للواقدي محمد بن عمر (ت: ٢٠٧هـ)[٣].
- تاريخ الأمم والملوك: لابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)[٤].
- الطبقات الكبرى: لمحمد بن سعد (ت: ٢٣٠هـ)[٥].

هذا بالإضافة إلى كتب الشمائل، ودلائل النبوة. والمنهج السلفي يرجع إليها كسابقتها بمنهج المحدثين، بل أكثر تشددًا واحترامًا.

الصنف الرابع: مصنفات العقائد والفرق، ويرجع إليها لتفصيل المباحث الإيمانية وتحديدها من منظور سلفي، اعتمادًا على القرآن الكريم، وعلى ما صح من السنة، بتوظيف المنهج السلفي في فهم نصوص الاعتقاد، ومنها:

- الإيمان: لأبي بكر بن أبي شيبة، الثقة الحافظ (ت: ٣٢٥هـ)[٦].
- الإيمان وسننه: لأبي عبيد القاسم بن سلام الإمام الثقة المشهور (ت: ٢٢٤هـ)[٧].
- الرد على الجهمية والزنادقة: لأحمد بن حنبل[٨].
- العقيدة الطحاوية للإمام أبي جعفر أحمد بن محمد الطحاوي (ت: ٣٢١هـ)[٩].
- الفصل في الملل والأهواء والنحل: لابن حزم علي بن محمد الأندلسي (ت: ٤٥٦هـ)[١٠].

---

(١) مطبوعة بتحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي.
(٢) مطبوع بتحقيق إحسان عباس، وناصر الدين الأسد.
(٣) مطبوع بتحقيق (مارسدن جوني).
(٤) مطبوع بالمطبعة الحسنية المصرية.
(٥) مطبوع في (٨) مجلدات
(٦) ن. تقريب التهذيب (ص ١٨٧).
(٧) ن. تقريب التهذيب (ص ٢٨٧)، والكتابان (١، ٢)، مطبوعان بتحقيق محمد ناصر الدين الألباني.
(٨) مطبوع بتحقيق محمد حامد الفقي وسبقت الإشارة إليه.
(٩) مطبوعة بشرح مبسوط لابن أبي العز الحنفي علي بن علي من علماء القرن الثامن الهجري.
(١٠) مطبوع بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

- الإبانة عن أصول الديانة: لأبي الحسن الأشعري علي بن إسماعيل[١].

- الأسماء والصفات: للبيهقي أحمد بن الحسين المحدث الفقيه (ت: ٤٥٨هـ)[٢].

الصنف الخامس: مصادر المعرفة الإنسانية التي كانت منتشرة قبل الإسلام وأثناء نزول رسالته ﷺ: تاريخ العجم وأخبار الأمم، لا سيما الأمتين الكتابيتين اليهود والنصارى. وهي مصادر، لا يعول عليها ولا يرجع إليها إلا من باب توسيع المعلومات والاستشهاد. وخارج دائرة الاعتقاد والأحكام العملية.

بعد هذه الجولة مع مصادر التفسير السلفي نرى أن إتمام الموضوع يتطلب منا إيراد عناصر موضحة ومتممة نجملها في الآتي:

أولًا: هناك عدد من العناصر عدت مصادر للتفسير في الوقت الذي صنفت فيه أصولًا له. وللفصل يجب التمييز بين أصول التفسير ومصادره، وفي هذا نقول: إن أصول التفسير قواعد أساسية تلزم كل من يريد تفسير القرآن الكريم. في حين توصف المصادر بأنها جملة ما يرجع إليه المفسر، قصد التفسير بحسب ما يتوفر عليه من ثقافة ومعرفة.

ثانيًا: إن عملية تقعيد الضوابط الكبرى للتفسير السلفي تضع كل تفسير تتم فيه عملية البيان والإيضاح بناء على تلك الضوابط، في إطار التفسير السلفي، بغضِّ النظر عن الزمن والمكان الذي أنجز فيه هذا التفسير.

ثالثًا: يمكن تقسيم الخطاب القرآني إلى مستويين: اعتقادي وعملي، إذا ما اعتبرنا المستوى العملي شاملًا لما يسمى عند الفقهاء «الأحكام والسلوك»؛ لأن أبواب الأدب بقسميها القلبي والعملي تشملها الأحكام العملية التكليفية في عرف الشرع، وعليه نقول: إن مستوى الخطاب الاعتقادي في القرآن، يتعامل معه بمقتضى أصول السلف في هذا المجال. أي تحكيم القرآن والسنة الصحيحة في كل قضية من قضايا الإيمان، دون رد أو تحكيم للعقل أو للتأويل، أخذًا بمنهج الصحابة في بيان الاعتقاد، دون الخوض فيما لا مجال للرأي فيه.

---

(١) نشرته المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

(٢) مطبوع بتحقيق محمد زاهد الكوثري.

أما على المستوى العملي، فإن عامة السلف - ومن نهج نهجهم - يعتمدون أصولًا أربعة لاستنباط الأحكام التكليفية هي: الكتاب والسنة والإجماع والاجتهاد، وذلك في إطار شروط وأدوات تعرضت لها مؤلفات أصول الفقه.

رابعًا: تعتبر التقوى والمجاهدة، والإخلاص في العمل في التوجه السلفي من العوامل الأساسية التي تفتح باب الفهم والتفاعل مع آيات القرآن الحكيم لقوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ولقوله أيضًا: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ويستشهد السلف لهذا بدعاء الرسول ﷺ لابن عباس بقوله: « **اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل** »[١] وبجواب علي بن أبي طالب وقد سئل: هل خصهم الرسول ﷺ بشيء؟ فأجاب: « ما عندنا غير ما في هذه الصحيفة أو فهم يؤتاه الرجل »[٢].

على ضوء هذا المتمات، مربوطة بالأصول والمصادر، نستطيع أن نقرر: أن ما يتوصل إليه المفسر من استنتاج وما يحصل له من مفاهيم إيمانية عقدية وعملية، يكون قبولها ورفضها - بمعيار المدرسة السلفية - رهينًا بالتزام المصادر المعرفية الحقة، في المنهج السلفي، التي تمزج بين الوحي، الذي يكون الركن الركين في المنهج، لخاصية العصمة وبين العقل باعتباره أداة التكليف الأساس في التصور الإسلامي وبين القيمة العلمية والأدبية للصدر الأول، ويتوج هذا توظيف طرق التوثيق التي قعدها علماء الإسلام - وبخاصة أهل الحديث - في عملية البحث عن الصواب، انطلاقًا من القرآن الكريم والسنة، وسلوك السلف الصالح.

* * *

(١) قال ابن حجر في الفتح: « هذه اللفظة اشتهرت على الألسنة، حتى نسبها بعضهم إلى الصحيحين ولم يصب، انتهى » والذي في البخاري: « اللهم علمه الحكمة » وفي لفظ: « اللهم علمه الكتاب ». انظر الفتح (٧/ ١٢٦).

(٢) والذي في البخاري عن أبي جحيفة: « إلا كتاب اللـه أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة »، كتاب العلم، باب كتابة العلم.

الفَصْلُ الثَّانِي

المعالم المميزة للمدرسة في العصر الحديث

مدخلان تمهيديان:

- المدخل الأول: بين الإصلاح والسلفية:

عرف العالم عدة تحولات معرفية، وجملة من المتغيرات المعيارية بعد التدهور والانحطاط اللذين عرفهما العالم كافة، وبعد فترة الضعف التي سادت العالم الإسلامي[1] الذي بقي في حالة غيبوبة، في الوقت الذي كانت فيه العقلية الأوربية تعيش فترة مخاضٍ، لتلد الثورة الصناعية؛ التي قلبت مفاهيم وموازين العقول في العالم الأوربي، ومنه إلى بلدان أخرى عبر قنوات متعددة للتواصل.

إن الضعف الذي أصاب جسم الأمة خلال القرون: التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر الهجري، وردَّ الفعل الأوربي الموروث، أوجدا المناخ الملائم لابتلاع العالم الإسلامي، أرضه وعقيدته؛ الأرض بما سمي بالاستعمار... والعقيدة بالتحريف والتضليل وإثارة الشبهات وتشجيع كل أنواع البدع، مصادرة للجانب المقاوم في الإسلام.

في هذا الجو المشحون، نمت حركات سياسية واجتماعية، وقومية وإسلامية بعضها نما متأثرًا بالفكر الإسلامي انطلاقًا من القرآن الكريم والسنة، وبعضها نشأ في أحضان الثقافة الغربية، وبعضها حاول التوفيق بين هذا وذلك.

وهذه الحركات، أثقلت الساحة المعرفية بوابلٍ من بنات الأفكار، والمفاهيم والمصطلحات، كلٌّ حسب المعين الذي يصدر عنه، منها: التحرر، والحرية والثورة

---

(١) هي فترة ضعف فقط؛ لأن العالم الإسلامي في عمومه، لم يخل في أي فترة من تاريخه من عطاء علمي وتجديدي وفكري... منذ نزول الرسالة الخاتمة ولم يشهد أيضًا ما شهده العالم الأوربي وغيره من عصور مظلمة، وصلت فيها أحوال الإنسان إلى أسفل سافلين.

والوحدة والقومية والإصلاح. إلى جانب شعار السلفية الذي كان يحمله أولئك الذين شغلهم البحث عن الهوية الإسلامية في مصادرها الأصلية في بحر من التيه المذهبي والخرافي والجبري رجوعًا إلى أعلام هذه الأمة عبر تاريخها، ومن ثم مناهجهم في فهم واستنطاق المصادر الأصلية، استجابة لضرورات العصر. ونظرًا لما لمصطلح « إصلاح » من أهمية في محور البحث، في ظل إطلاقه على رجالات المدرسة السلفية الحديثة، وفي ظل الإطلاقات غير المحددة، نرى واجبًا علينا حصر مفهوم « الإصلاح » من منظور إسلامي لا سيما وقد حددنا قبل مصطلح « السلفية »، لنحدد بعد ذلك العلاقة بينهما.

إن المصطلحين معًا: « السلفية والإصلاح » استعملا في الاتجاه الذي نحن بصدد البحث فيه، وبكثافة تكاد تكون متساوية، في إنتاج المدرسة الفكري، ولكن دون فرز موضح لهذه العلاقة - حسب علمنا -.

ولقد ارتأينا القيام بهذا العمل من خلال أصول المعرفة الإسلامية: القرآن، والسنة، واللغة. سيرًا على ما جرينا عليه في تحديد مصطلح « السلفية »، بدءًا بالمفهوم اللغوي ومنه إلى الاصطلاحي.

أ - المفهوم اللغوي للإصلاح:

١ - القرآن الكريم: تعددت الآيات التي يذكر فيها مشتق « صلح » موصوفًا بها العمل الصالح، في مقابل العلم الفاسد السيئ أو موصوفًا بها دون ذكر العمل النقيض.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء: ١٥١، ١٥٢] على لسان صالح وهو يقوم بمهمة التبليغ.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٣٩] وذلك تعقيبًا على حد السرقة، والسرقة عمل فاسد، بل سماه القرآن ظلمًا[1]. وعلى هذا جاءت وصية موسى لأخيه هارون وقد عزم على الذهاب للقاء ربه في الميقات: في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢] أمرا بكل فعل بشري صالح، ونهيا عن مقابلة الفاسد.

---

(١) أخذًا من تعقيب القرآن على حد السرقة فقوله تعالى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٣٩].

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾ [غافر: ٥٨] وقوله تعالى مبشرًا كل من تاب من عمله السيئ، ومن النفاق خاصة بقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء: ١٤٦][1]...

فالعمل موصوفًا بالصلاح والفساد، أو الحسن والسيئ، هو في استعمال القرآن، يشمل الاعتقاد والسلوك؛ لذا كان من أجمع التوجيهات الإلهية في القرآن قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

وعلى هذا قوله تعالى على لسان شعيب ﷺ بعد إبلاغ قومه رسالة ربه تشريعًا واعتقادًا[2] في قوله تعالى: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ [هود: ٨٨].

في هذا السياق يقول الراغب: « الصلاحُ ضدُّ الفساد، وهما مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل في القرآن تارة بالفساد، وتارة بالسيئة »[3]. وجمع الدامغاني الأوجه التي استعملت فيها مادة: « صلح » في القرآن فأوصلها إلى عشرة أوجه، منها: « الإيمان والطاعة، وحسن المنزلة... والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ». مستدلًّا على هذا الوجه بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٨][4] قال الفراء: « لم يكن ليهلكهم، وهم يتعاطون الحق فيما بينهم »[5].

٢ - السُّنة: ولأن السنة بيان لكتاب اللّـه، فلن تكون دلالات « صلح » فيها إلا وفاقًا لما هي عليه في القرآن الكريـم. وزيادة في توضيح هذه الدلالات وما تقع عليه في الاستعمال الشرعي نسوق الأحاديث التالية، غيضًا من فيض السنة في هذا المجال.

- تحدث رسول اللّـه ﷺ يومًا قائلًا: « ... ويل للعرب من شر قد اقترب »... قالت زينب بنت جحش: فقلت يا رسول اللّـه أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: « نعم،

---

(١) وقد كان القرآن يتحدث عن المنافقين وصفاتهم: الآيات (١٣٨ - ١٤٦) من سورة النساء.

(٢) التفصيل في الآيات (٨٣ إلى ٨٧) من سورة هود، (٨٥ إلى ٩٣) من سورة الأعراف.

(٣) مفردات الراغب، مادة: صلح.

(٤) إصلاح الوجوه والنظائر، مادة: صلح.

(٥) معاني القرآن (٢/ ٣١).

إذا كثر الخبث »[١]، والخبث: الفساد[٢]، وفسر في الحديث بالفسوق والفجور، قال في الفتح: « وهو أولى لأنه قابله بالصلاح »[٣].

وكان رسول اللّـه ﷺ يخطب على المنبر، إذ جاء الحسن بن علي رضي الله عنه، فقال ﷺ: « ابني هذا سيد، ولعل اللّـه يصلح به بين فئتين من المسلمين »[٤].

– وقال البخاري في كتاب الصلح: « باب فضل الإصلاح بين الناس والعدل بينهم » ثم ساق في الباب عن سهل بن سعد (أن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فأخبر رسول اللّـه ﷺ بذلك، فقال: « اذهبوا بنا نصلح بينهم »)[٥] ولا معنى لهذا الإصلاح إلا إزالة ما بينهم من فساد... إقامة للعدل وإصلاحًا به... وهذا لب الإصلاح؛ لأن « الإصلاح نوع من العدل، لذلك عطف العدل عليه في الترجمة »[٦].

– ومما يصلح شاهدًا جامعًا في باب السنة، ما رواه الترمذي عن عمر بن عوف رضي الله عنه أن رسول اللّـه ﷺ قال: « **إن الدين بدأ غريبًا، ويرجع غريبًا، فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي** »[٧].

٣ – اللغة: قال ابن فارس[٨]: « الصاد واللام والحاء أصل واحد يدل على خلاف الفساد »[٩]، وفي اللسان: « الصلاح ضد الفساد، صلحَ يَصْلَحُ ويصلُحُ صَلاحًا وصَلُوحًا... وصَلُحَ كَصَلَحَ، ورجل صالح من نفسه... ومصلح في أعماله وأموره... والإصلاح نقيض الفساد »[١٠] « وأصلحَ في عمله أو أمره: أتى بما هو صالح نافع..

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن، باب: في اقتراب الفتن والهلاك إذا كثر الخبث.

(٢) قال في اللسان، مادة: خبث: خبث الشيء خباثة وخبثًا، فهو خبيث.. والخابث الرديء من كل شيء فاسد.

(٣) فتح الباري (١٣/ ١١٧).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي: « إن ابني هذا لسيد... ».

(٥) نفس المصدر، كتاب الصلح عن سهل بن سعد، باب: قول الإمام لأصحابه: اذهبوا بنا نصلح.

(٦) فتح الباري (٥/ ٣٦٤).

(٧) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وقال فيه: هذا حديث حسن صحيح، وأخرج مسلم الحديث أيضًا عن أبي هريرة في كتاب الإيمان (باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا) دون الجملة الأخيرة منه.

(٨) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء اللغوي النحوي الفقيه (ت: ٣٩٥هـ) بالري، ن. بغية الوعاة (١/ ٣٥٢).

(٩) مقاييس اللغة، مادة: صلح.

(١٠) اللسان، مادة: صلح.

وأصلح الشيءَ بعد فساده، أقامه، أزال فساده، وأصلح الدابة أحسن إليها فصلحت... وقد سمت العرب، صالحًا ومُصلحًا وصليحًا »[١].

وعليه فالصلاح إذا أطلق تناول جميع أنواع الخير، وكذا الفساد يتناول جميع أنواع الشر، وكذلك اسم المصلح والمفسد [٢]، بمعنى أن المصلح من يأتي بالإصلاح عملًا، والمفسد من يأتي بالإفساد فعلًا[٣]، قال الفراء في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ [البقرة: ٢٢٠]: « اللّـه يعلم أيهم يفسد وأيهم يصلح »[٤].

ب - المفهوم الاصطلاحي للإصلاح:

لا أحسب أن تحديد مفهوم الإصلاح اصطلاحًا - في مجال المعرفة الإسلامية خاصة - يحتاج إلى كبير عناء؛ لأن مفهومه في التعبير القرآني والسني، يصطحب معه موصوفًا ونقيضًا وسياقًا، والثلاثة تسهل عملية التحديد.

فالموصوف هو العمل؛ موصوفًا مرة بالصلاح ومرة بنقيضه، الفساد.

والسياق: هو النسق الذي جاءت في سياقه الآيات التي ذكر فيها الإصلاح، كما هو الشأن في قولة شعيب وصالح وموسى عليهم وعلى نبينا محمد الصلاة والسلام.

ونستخلص من الاستعمال اللغوي أن الإصلاح إقامة الشيء بإزالة ما فيه من فساد عن طريق الإحسان، ومحو ما فيه من سوء، ليبقى صالحًا خيّرًا، قيامًا بالعدل المأمور به في قوله تعالـى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ﴾ [النحل: ٩٠].

ومن هنا نقرر: أن الإصلاح في المفهوم الإسلامي هو العمل على اجتثاث الاعتقاد والفعل الفاسدين من الفرد والمجتمع، وإقامة الاعتقاد والفعل الصالحين محلهما[٥]، أي أن الإصلاح حركة قولية وفعلية، يقوم بها المصلـح - الرسل أو الوارثون لمهمتهم من العلماء - تهدف إلى صنع الإنسان وفق شرع اللّـه ودينه. فالرسل بما يوحى إليهم، والعلماء بما استحفظوا من كتاب اللّـه وكانوا عليه شهداء، وهو من الوحي أيضًا.

---

(١) المعجم الوسيط، مادة: صلح.
(٢) انظر: الفتاوى (٧/ ٨٣).
(٣) انظر: تفسير المنار (٢/ ٢٤٤).
(٤) معاني القرآن (١/ ١٤٢).
(٥) لهذا نجد الإيمان في القرآن غالبًا ما يقرن بالعمل الصالح كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٨]- ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧].

واستنادًا إلى ذلك نبين ما هي العلاقة بين الإصلاح والسلفية قائلين:

إن الإصلاح فعل يهدف إلى تبديل الفساد بالإصلاح وفق شرع اللّـه.

وإن السلفية: منهج، يميزه الاتصال المباشر بالكتاب والسنة وهدي السلف الصالح. وعلى هذا المنهج يتحقق الإصلاح المبتغى إسلاميًّا. وإن المصلح: من يقوم بفعل الإصلاح على المنهج السلفي أي بتوجيه من هدي الكتاب والسنة، وإجماع الأمة، ومنهج السلف، سعيًا إلى إيجاد النوع البشري المستحق للإرث والاستخلاف في الأرض تحقيقًا لسنة اللّـه فيها، واستجابة لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

إنه الإصلاح المنقذ للأمم والشعوب من رق المستعمرين، وظلم المستبدين القاهرين، وجمود الفقهاء المقلدين، ودجل المتصوفة الخرافيين[١]. ربطًا للإصلاح الديني بالسياسي، في الحياة البشرية أخذًا بالمفهوم الصحيح لكلمة الدين والتدين[٢]. وليس الإصلاح المبني على الترقيع والترميم أو التغريب، مثل ما أقدم عليه العثمانيون على يد مدحت باشا[٣]. أو ما حدث في مصر على يد محمد علي، حيث بنوا ما أحدثوه من تغييرات على تقليد الدول الأوربية، في بعض مناحي الحياة التنظيمية والسياسية والعسكرية[٤].

فالإصلاح في المفهوم الإسلامي إصلاح جذري شامل لواقع الأمة في كل أبعاده من أجل التصحيح، والبناء والهيكلة، وفق منظور إسلامي صرف، بالدعوة إلى فتح باب الاجتهاد وتجديد أمر الدين وإعطاء العقل مكانه السليم. إصلاح تمثله ثلة من العلماء المصلحين في العصر الحديث، برزت متجدرة في بيئتها ملتصقة بأصولها، ومنطلقة منها في عملها الإصلاحي، مثل محمد بن عبد الوهاب، والشوكاني، ومحمد عبده، والقاسمي،

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام: ١/ك.

(٢) لكلمة الدين معنيان: أحدهما الحالة النفسية التي نسميها التدين... والآخر المبادئ العامة التي تدين بها أمة من الأمم اعتقادًا أو عملًا، انظر: الدين للدكتور عبد اللّـه دراز (ص ٢٨، ٢٩) والمصطلحات الأربعة في القرآن للمودودي (ص ١٢٦) وما بعدها.

(٣) هو أحمد مدحت بن حاجي، حافظ، كان يحسن العربية والفارسية... تولى عدة مناصب سياسية مهمة في عهد السلطان عبد الحميد (ت: ١٣٠١هـ) بالطائف منفيًّا، الأعلام (٧/ ١٩٥).

(٤) انظر الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (ص ٤١٥ - ٤٢٣).

وابن باديس، وأبي شعيب الدكالي[١] وغيرهم ممن كانوا « يدعون إلى الأخذ بتعاليم الإسلام مستحضرين في أذهانهم المرامي والأهداف والمثل العليا التي طمحت الأمة إلى تحقيقها، كالشورى والعدالة الاجتماعية والتقدم الحضاري... والتي رددها المصلحون... متخذين من الإسلام - إسلام السلف - منظومتهم المرجعية »[٢] رافعين شعار التغيير[٣] والإصلاح أخذًا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] وقاعدتهم القولة المشهورة: « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها »[٤] المنسوبة إلى الإمام مالك أحد أقطاب السلف[٥].

ولقد تزاوج الإصلاح بالمفهوم القرآني مع السلفية فكرًا وسلوكًا ومنهجًا، منذ ظهور السلفية كمنهج للإصلاح، باعتباره مهمة الأنبياء والعلماء الوارثين...

وفي العصر الحديث نجد هذا التزاوج في العديد من نصوص المدرسة السلفية الفكرية. ومن أجمع هذه النصوص قولة عبد الحميد بن باديس: « إن المسلمين إنما ينهضون متى ظهرت عقائدهم، وعادت نفوسهم وقلوبهم تستقي من المصدر الأول، وعلموا أن الإصلاح يؤتي ثمرته إذا وجدت لهم قوة، وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظمة، تفكر وتدبر وتتشاور وتتآزر، وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة متساندة في العمل عن فكر وعزيمة »[٦].

ومن جهة أخرى فإن مما يميز السلفية هو إصلاح الاعتقاد، وتصحيح مفاهيمه وتصوراته، ومن ثم إصلاح الجوانب العملية في حياة الأمة إذا دعت حالتها الواقعة إلى ذلك، هذا المنهج وبهذا الترتيب هو ما تتميز به المدرسة السلفية في العصر الحديث

---

(١) سنترجم لهؤلاء الأعلام في مباحث قادمة بحول اللّـه.

(٢) انظر: مجلة الفرقان المغربية ص: س٢/ ع: ٨/ (ص ٢٨).

(٣) من معاني التغيير: التبديل والتحويل من غيره، إذ حوله وبدله، كأنه جعله في غير ما كان.. والغيار البدال، وقولهم: نزل القوم يغيرون أي يصلحون الرحال، انظر اللسان، مادة غير.

(٤) مشكلات القرآن الكريم (ص ٥).

(٥) إن هذا الفرق بين الإصلاحين تنبه إليه أحمد أمين في مؤلفه « زعماء الإصلاح » إذ صنف محمد بن عبد الوهاب ومحمد عبده ورشيد رضا في صنف المصلحين الذين انطلقوا في إصلاحهم من منظور إسلامي بمنهج سلفي. فلما أراد أن يتحدث عن الصنف الثاني مثل له بمدحت باشا في تركيا والسيد أحمد خان في الهند، انظر: زعماء الإصلاح في العصر الحديث (ص ٢٥).

(٦) مجالس التذكير (ص ٢٢).

في مجال ترتيب الأولويات حيث نجدها قد وظفت العقيدة لإصلاح أوضاع الأمة سياسيًّا واجتماعيًّا وحضاريًّا، وهي أوضاع كانت متدهورة طوال فترة الضعف التي أعقبت سقوط بغداد سنة (٦٥٦هـ) حتى مشارف القرن الثالث عشر، حيث انبعثت السلفية الحديثة تواجه الضلالات الاعتقادية والفكرية كواجهتنا للغزو الأوربي؛ إذ رسالة السلفية الحديثة كرسالتها في كل آن ومكان: الإصلاح والتجديد بالرجوع إلى منهج السلف الصالح.

- المدخل الثاني: ظاهرة الإحياء والتجديد في العالم الإسلامي في العصر الحديث:

أتت على العالم الإسلامي أحيان من الدهر، ضلَّتْ فيه التوجهات عن منهج اللّـه وتخلت فيها الأمة عن أمر الشهادة، وانحسر فيها الإسلام عن واقع الأمة سلوكًا واعتقادًا، وانعكست مظاهر هذا كله في الضعف العلمي والوهن الاجتماعي والتمزق السياسي والتبعية الحضارية.

ولا غرابة أن تصاب الأمة بهذه الأهوال؛ فتلك الأيام يداولها اللّـه ﷻ بين الناس في إطار سنن التدافع الحضاري.

ولكن الغرابة أن يطول عمر هـذا الذهول وهذا الوهـن في أمة حذرتها شريعتها في أول وهلة من مغبة التولي والدعة[١].

فالابتلاء سنة إلهية قائمة[٢]؛ لأن دعوى الإيمان النظري لا يترتب عليها الجزاء إلا إذا صارت واقعًا عمليًّا في عالم الحس.

ولما كان الابتلاء سنة ملازمة للوجود البشري، جعل اللّـه لكل قوم هاديًا[٣] مبلغًا ومحذرًا، ختموا بمحمد ﷺ صاحب الرسالة الخاتمة، ذات الطابع الاستمراري بما حوته من عناصر الاستمرار، والحفظ التام لأصولها.

رسالـة استحفظهـا اللّـه سبحانه العلماء الوارثين للأنبيـاء[٤]، الذين يقومـون بمهمـة الإصلاح والتجديد، فقد أخبر الرسـول ﷺ أن « اللّـه يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد

---

(١) ندرك هذا من خلال أحاديث أشراط الساعة والأحاديث المنبئة بالفتن المحذرة منها.

(٢) هناك آيات كثيرة تتحدث عن هذا الموضوع كقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

(٣) كما جاء ذلك في قول اللّـه تعالى في سورة هود: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

(٤) انظر الفتح (١/ ١٩٣).

لهذه الأمة أمر دينها »[١]. بتصحيح المفاهيم والتصورات والمعتقدات ليستقيم التطبيق.

والتجديد في الإسلام أمر مرتبط بالجانب الذي يقع فيه الضمور والتغيير، لتبقى ظاهرة التجديد والإحياء وجهًا من وجوه الإعجاز المصدق للرسالة، يتجلى في جهد بشري لحفظ الدين مصدقًا لقوله ﷺ: « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين »[٢].

وظاهرة التجديد في العصر الحديث قد أخذت طابعًا شموليًّا، تساوقًا مع الضمور العام الذي أصاب الأمة وأخصب في أرضها، لما حوصرت جهود العلماء المصلحين، وانحصر اهتمام غيرهم في اجترار ما أنتج قبلهم خاصة خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين؛ حيث انتقلت السيادة العلمية والقيادة التربوية إلى التصوف الخرافي وشيوخه الذين أشاعوا فيه كثيرًا من البدع والمستحدثات[٣]. وتوقف العالم الإسلامي عن العطاء إلا في مواطن محدودة، لم تكن تخلو من نشاط ثقافي وإصلاحي يعد إرهاصات أولية لحركات التجديد التي عمت العالم الإسلامي في القرنين: الثالث عشر والرابع عشر الهجريين. فأحيت الإيمان في النفوس، وألهبت نار المواجهة بين الإسلام والجاهلية الحديثة، على يد من سماهم الرسول ﷺ الغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس[٤].

ولما كان عامل الاستعمار قد أذكى بغزوه العالم الإسلامي روح الجهاد، فإن الدعوة إلى الإحياء والتجديد قد تناغمت بالدعوة إلى الجهاد في وقت سيطر فيه الاستعمار الأوربي على العالم الإسلامي، ولم يبق منه إلا الرأس ممثلًا في الحجاز.

فحتى العثمانيون الذين كانوا يمثلون وحدة الأمة - ولو صوريًّا - وإن لم يستعمروا عسكريًّا فإن ما كان قد تبقى لديهم من مظاهر الإسلام قد أجهز عليه الغزو الفكري

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة. قال ابن كثير: والظاهر - واللّـه أعلم - أنه يعم حملة العلم من كل طائفة، وكل صنف من أصناف العلماء من مفسرين ومحدثين وفقهاء ونحاة... ن. إتحاف الجماعة (ص ٢٧٥).

(٢) التمهيد (١/ ٥٩)، عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري وأبي هريرة.

(٣) لقد لخص أبو الحسن الندوي في مؤلفه: « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » (ص ١٥٩) وما بعدها مراحل ضعف الأمة والأهوال التي أصابتها مع الإشارة إلى دور العثمانيين في الحفاظ والإحياء.

(٤) أخرج الترمذي عن كثير بن عبد اللّـه عن أبيه عن جده أن رسول اللّـه قال: « ... إن الدين بدأ غريبًا ويرجع غريبًا، فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي ».

والأنانية وحب السلطة، لما تحول السلطان إلى ألقاب فخمة فارغة المحتوى « فهو ظل اللّـه في الأرض، ويصادر الكتاب إذا كان فيه الأئمة من قريش ويمنع العقائد النسفية[١] من الطبع، لأن فيها فصلًا في الخلافة وشروطها... والجواسيس لا عداد لها... والقصر مملوء بالمشعوذين والدجالين... »[٢].

ثم أتت الكمالية على ما تبقَّى من مظاهر الإسلام وحولت الدولة بعد إسقاط الخلافة إلى دولة علمانية، تحدو حذْوَ أوربا في كل صغيرة وكبيرة.

والحاصل أن المثيرات في العالم الإسلامي قد تعددت، فتعددت معها ردود الفعل، لتظهر من ذلك دعوات تجديدية أصيلة المصدر والوسيلة، سلفية المنهج إصلاحية الغاية، في أقطار شتى من العالم الإسلامي متداخلة ومتواصلة ومتمايزة[٣].

وإذا ما حاولنا رصد أطوار هذه الحركات في العالم الإسلامي فإنا نجدها قد تولدت في جهات متعددة من هذا العالم وبدرجات متفاوتة، غير أنه يمكن حصرها في ثلاث مناطق، إذا ما اعتبرنا زمن النشوء والتطور والبروز والتواصل.

- المنطقة الأولى: الشرق الإسلامي:

ونتخذ نموذجًا لها شبه القارة الهندية حيث الأغلبية العظمى لمسلمي المنطقة، ولأنها عرفت حركات تجديدية لها أهميتها القصوى من حيث التأثير والأسبقية. فلقد عرفت شبه القارة الهندية عدة تقلبات سياسية فجر ظهور الحركات السلفية الحديثة إثر انهيار دولة المغول المسلمين سنة (١٢٧٤هـ) على يد الغزو الإنجليزي وبمساعدة السيخ والهنود[٤]، حيث طالب زعيمهـم (نهروا) بتولي الهندوس مقاليد الحكم، مما أثار حفيظـة المسلمين، فطالبوا بالاستقلال عن الهند، وقامت دولة باكستان الجديدة عام (١٩٤٧م)[٥].

---

(١) للإمام أبي حفص عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل النسفي المفسر المؤرخ الفقيه (ت: ٥٣٧هـ)، طبقات المفسرين للداودي (٢/ ٧) ولسان الميزان (٤/ ٣٢٧).

(٢) زعماء الإصلاح (ص ٢٩)، وانظر تاريخ محمد عبده (١/ ٩١١، ٩١٢). وشيخ الشام (ص ٥٩).

(٣) ذلك أن بعض هذه الحركات قد غلب عليهم طابع محاربة البدع وبعضها غلب عليه طابع النهوض والاجتماع وبعضها اشتغل بمحاربة الاستعمار.

(٤) انظر في معرفة (نحلة الهنود): الملل والنحل (ص ٥٠٦ - ٥٠٨). أما السيخ فانظر في نشأتهم وأصل مبادئهم مجلة البصائر التي تصدر في فرنسا، عدد (١٤)، (ص ١٢٤).

(٥) ن. القاموس الإسلامي (١/ ٢٦٠).

في هذا الجو المشحون بالتقلبات السياسية ولدت حركات إصلاحية يمكن بدء تصنيفها زمنيًا بحركة الشيخ أحمد السرهندي[١] بمعية الشيخ عبد الحق الدهلوي[٢]، الذي عمل على إحياء السنة بتأليفه في الحديث وعلومه. إثر ذلك ظهر الشيخ شاه ولي اللّـه الدهلوي[٣] مجددًا ومصلحًا، يقدم الإسلام أسلوبًا للحياة بترجمته القرآن الكريم إلى الفارسية، وتفسيره تفسيرًا معاصرًا، بتقديم الأنبياء والشخصيات الإسلامية نماذج للاقتداء، قال عنه إقبال[٤]: « إنه آخر المعلمين الكبار في الإسلام، والواسطة بين فترتين من التاريخ الإسلامي في الهند »[٥].

ألف الدهلوي كتابين مهمين في علوم القرآن، الأول: « مقدمة في تفسير القرآن المجيد » والثاني: « الفوز الكبير في أصول التفسير »، خدمة لما عقد عليه عزمه من إصلاح، ويعتبر كتابه: « حجة اللّـه البالغة » محصلة أفكاره السلفية، حيث بذل فيه مجهودًا كبيرًا في تقريب السنة من أهل عصره[٦]. وعلى نهجه سار ابنه عبد العزيز[٧] الذي كان أول من نقل معاني القرآن إلى لغة « أوردوا » الفصيحة، وقد أثمرت جهود هؤلاء المصلحين حركتين إصلاحيتين كبيرتين هما:

الحركة الفرائضية – نسبة إلى لفظة فرض – بقيادة الشيخ شريعة اللّـه[٨]. سنة (١٢١٧هـ).

---

(١) أحمد الفاروقي السرهندي: اشتهر بمجدد الألف الثاني (ت: ١٠٣٤هـ)، ن: التفسير ورجاله (ص ١٢٣)، والحركات الإصلاحية في الشرق الإسلامي (١/ ٢٩).

(٢) (ت: ١٥٢هـ)، ن. فهرس الفهارس (٢/ ١٢٥)، والحركات الإصلاحية في الشرق الإسلامي (١/ ٣١).

(٣) شاه ولي اللّـه أحمد بن عبد الرحيم العمري الدهلوي المحقق، قال الأمير صديق حسن خان عنه وعن بنيه: « عاد بهم على الحديث غضًا طريًا بعد ما كان شيئًا فريًا.. » وعليه تخرج الحافظ المحدث اللغوي الزبيدي، توفي الدهلوي (١١٧٦هـ)، ن: فهرس الفهارس (٢/ ٤٣٦ – ٤٣٨).

(٤) هو محمد إقبال الفيلسوف الشاعر السياسي، ولد بسيالكوت في الهند سنة (١٢٨٩هـ)، وهو صاحب فكرة إنشاء دولة باكستان (ت: ١٩٣٨م)، ن: الموسوعة الحركية (١/ ٢١٦).

(٥) ن. الإصلاح والمجتمع المغربي (ص ٤٠) بحثًا عن حركة الإصلاح في القارة الهندية.

(٦) ن. الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة (١/ ٣٥).

(٧) هو عبد العزيز بن أحمد شاه ولي اللّـه الدهلوي الفقيه المفسر (ت: ١٢٣٩هـ)، ن. هدية العارفين (١/ ٣٨٥)، وفهرس الفهارس (٢/ ٢٤٤).

(٨) انظر: دراسات في التجديد الإسلامي في الهند، مجلة التضامن الإسلامي، ع (٣٣) (١٣٩٩هـ).

الحركة الخلافية – نسبة إلى لفظة خلافة – وكان محركها أحمد شهيد بن عرفان وآخرين سنة (١٢٣٣هـ)[١]..

وقد ظلت الحركتان تعملان جنبًا إلى جنب حتى تبلورتا في طائفة أهل الحديث، وكان أهم أهدافها:

١ – تنقية العقيدة الإسلامية من الخرافات والمفاهيم المنحرفة والتصورات الخاطئة.

٢ – إصلاح الأمة، رجوعًا بها إلى عهد السلف الصالح[٢].

ومن جماعة مؤتمر أهل الحديث يبرز العالم المصلح المجدد الملك صديق حسن خان[٣] يوقظ الهمم بمؤلفاته، ذات الصبغة التجديدية على نهج السلف، مثل تفسيره « فتح البيان في مقاصد القرآن » و « العبرة مما جاء في الغزو والشهادة من العبرة »، و « الطريق المثلى في ترك التقليد »[٤]. ثم الباحث المصلح شلبي النعماني[٥]... الذي يرجع إليه الفضل في التواصل العلمي بين الحركات التجديدية لصلته الوثيقة بالعالم الإسلامي، وكان أحد مؤسسي دار العلوم في الهند. وإليه يرجع الفضل في إنشاء « ندوة العلماء » وهو صاحب نظرية « الإسلام يجدد نفسه بنفسه »[٦]. وفيما كانت الهند تتنازل عن حصونها للإنجليز، والهنادكة يستعدون للانقضاض على السلطة، والدولة العثمانية تعاني من الحركات الانفصالية، بزغ نجم العالم المجاهد؛ الشيخ أبي الأعلى المودودي الذي أعاد برسالتيه « الجهاد في الإسلام »، و « الجهاد في سبيل اللّه » إلى الأمة وعيها[٧] بذاتها وبواجبها الحضاري.

---

(١) ن. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (ص ١٦٦)، وكتاب: إذا هبت ريح الإيمان (ص ١٤ – ١٦). والحركة الخلافية هذه غير حركة الخلافة التي كان أحد زعمائها المصلح السلفي في الهند في بداية القرن (٢٠) الشيخ أبو الكلام أزاد (ت: ١٣٧٧هـ)، ن. البريلوية لإحسان إلهي ظهير (ص ٤١).

(٢) انظر: الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة (١/ ٣٤).

(٣) محمد صديق حسن خان من رجال الإصلاح الإسلامي المفسر المحدث الملك، ن. هدية العارفين (٢/ ٣٨٨) ومعجم المفسرين (٢/ ٥٣٩).

(٤) انظر: معجم المطبوعات (ص ١٢٠٤).

(٥) من رجال الإصلاح في الهند، التقى بمحمد عبده في القاهرة، وانتقد كتاب « تاريخ التمدن الإسلامي » لجرجي زيدان، كان يجيد الفارسية والعربية، انظر: الأعلام (٣/ ١٥٥)، والإصلاح والمجتمع المغربي (ص ٤٣).

(٦) ن. الإصلاح والمجتمع المغربي (ص ٤٣).

(٧) حيث كان زعيم الهنادكة (غاندي) يهاجم الجهاد في الإسلام ويعمل على تمرير الهنادكة إلى الحكم.

عمل الشيخ المودودي على إنشاء جماعة إسلامية تأخذ مبرر وجودها من واقع المسلمين، ومهد لذلك بإصدار مجلة « ترجمان القرآن » سنة (١٣٥٢هـ) يعرض فيها الفكر الإسلامي من منابعه الأصلية، ويفند الفكر الغربي. رأى فيه محمد إقبال خير معاضد على تدارك الموقف الحركي للمسلمين في الهند، فدعاه للتعاون على بعث الشرع الإسلامي... ومن الفكرة أنشأ المودودي « الجماعة الإسلامية » سنة (١٩٤١م) وانتخب رئيسًا لها وجعلت أهدافها في منهجها الذي بني على:

- الدعوة إلى عقيدة سلفية، بعيدة عن البدع والشركيات...

- الدعوة إلى فقه اجتهادي متحرر، وفكر إصلاحي لا أنصاف حلول فيه.

- الدعوة إلى تربية إيمانية وجسدية تحقق قول الرسول ﷺ: « **المؤمن القوي خير وأحب إلى اللّـه من المؤمن الضعيف** »[1].

وإن العمل على تحقيق هذه المبادئ بواسطة التأليف وإلقاء المحاضرات والندوات هو ما جعل حركة الجماعة الإسلامية مصدر إشعاع للعديد من الحركات الإصلاحية في أنحاء شتى من العالم الإسلامي... ومصدر إلهام تأليفي لعدد من المؤسسات العلمية ودور الطبع[2] ترمي إلى إحياء التفكير الإسلامي الحر وإزالة الجمود الفكري.

هذه هي الصور الكبرى لحركات الإصلاح والمصلحين في الهند الإسلامية التي نفخت في الأمة الحياة من جديد وبعثت فيها الأمل وقوة الإيمان، غضة طرية لإعادة الدور القيادي والحضاري للأمة الإسلامية.

- **المنطقة الثانية: الجزيرة العربية وما حولها:**

وهي منطقة كانت خاضعة للدولة العثمانية، التي كانت تضم في أملاكها في العصر الحديث الجزيرة العربية وجزر البحر المتوسط ومصر، علاوة على الشام والعراق

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب: في الأمر بالقوة وترك العجز عن أبي هريرة.

(٢) انظر:

أ - الموسوعة الحركية (١/ ١٣).

ب - مجلة المجتمع الكويتية ع (٤٥٧) السنة (١٠/ ١٣٩٩هـ)، (ص ٢٢).

ج - مجلة الأمة القطرية ع (١١) السنة (١/ ١٤٠١هـ)، (ص ٢٦).

د - مجلة الفرقان المغربية ع (١٣) السنة (٤/ ١٤٠٨هـ)، (ص ٤٨).

وشمال أفريقيا إلا المغرب، فضلًا على الموطن الأصلي لها، وهذه الأملاك بوضعها السياسي والجغرافي كانت تكوِّن حزامًا أمنيًّا، أبقى على الأراضي المقدسة في قلب الجزيرة وفلسطين في مأمن من الاستعمار، مع أن الدولة العثمانية في بداية هذا العصر كانت في حالة ضعف سياسي وعسكري أعقبتها « فترة توقف حاولت فيها الدولة أن تصلح من شأنها وأن تجري حركة إصلاح لتقويم الخلل الذي أخذ ينتشر في مكونات الدولة وأجهزتها »[1]. ببداية عهد السلطان عبد المجيد إلى أن تولى عبد الحميد الثاني، الذي يحفظ له التاريخ الإسلامي وقوفه الحازم في وجه المخططات الصهيونية[2] ثم جاء الاتحاديون، وبهم انفصلت الدولة عن أساسها الذي قامت عليه، وذلك بإلغاء الخلافة عام (١٩٢٢م)[3].

ومع بداية تفكك الدولة العثمانية وتصاعد التحدي الأوروبي، بدأت ردود الفعل الذاتية تظهر في البيئة الإسلامية، تقاوم الفساد والبدع والخرافات التي كانت قد عمت الجزيرة العربية وما حولها[4].

ورغم ما حاولته الدولة العثمانية من ترقيع للخروج من الضعف والجمود ومسايرة للتحولات التي بدأت تعصف بالشرق الإسلامي فإنها لم تفلح مع أنها استعانت « بأصحاب القيم الإسلامية... مثل شيخ الإسلام عارف حكمت[5] وإبراهيم الرياحي[6] وخالد الكردي[7] وابن عابدين[8] ....

---

(١) انظر: كتاب النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والنعمة لشيخ الإسلام مصطفى صبري الذي عاصر فترة إلغاء الخلافة.

(٢) انظر: الأسرار الخفية لمصطفى حلمي (ص ٩٥) وما بعدها.

(٣) انظر: النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والنعمة... (ص ١٢٧ - ١٤٥) وانظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (ص ١٦٩، ١٧٠).

(٤) للاطلاع على الحالة الاجتماعية والسياسية المتردية في الجزيرة العربية، ن. تاريخ نجد للشيخ حسين بن غنام، وقد خصص الجزء الأول منه لذلك، وقد كان المؤلف من معاصري الشيخ ابن عبد الوهاب.

(٥) أحمد عارف حكمت بن إبراهيم، اشتهر بخزانة كتب له في المدينة المنورة (ت: ١٢٧٥هـ) ن. هدية العارفين (١/ ١٨٨).

(٦) إبراهيم عبد القادر رئيس المفتين بتونس (ت: ١٢٦٦هـ)، ن. شجرة النور الزكية (ص ٣٨٦).

(٧) المشهور بالمجددي (ت: بدمشق ١٢٤٢هـ) انظر: فهرس الفهارس (١/ ٢٧٧) والتفسير ورجاله (ص ١٢٧).

(٨) محمد أمين بن عمر، فقيه الشام في عصره دمشقي المولد والوفاة عام (١٢٥٢هـ)، ن. هدية العارفين (٢/ ٣٦٧).

والألوسي[١] »[٢] فقد كان الأمر يقتضي قيام عمل تجديدي عميق وأصيل[٣] لا ترقيع فيه.

ولئن تعددت أشكال التعبير ضد الانهيار العثماني والغزو الأوربي والانحراف العقدي، فإن الذي يهمنا هو الاستجابات التي تمثل النمط السلفي في حركتها.

وقد كان أبرز هذه الحركات دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب[٤]. بما حملته من تصحيح للتصورات والسلوك انطلاقًا من القرآن والسنة ومفاهيم السلف الصالح، وبتأثيرها في العالم الإسلامي بأسره في العصر الحديث، داعية إلى توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات وتوحيد المتابعة وإلى القيام بأمر الدين سياسة وفكرًا واعتقادًا وذلك « عندما أحس القائمون على الحركة أن واجبهم يقتضي الدفاع عن الإسلام ضد الخطر الأوربي، لما رأوه من الوهن الذي طرأ على الوحدة الإسلامية العثمانية »[٥].

وكان أبرز ملامح هذه الحركة تلاحم الدولة فيها بالدعوة مما هيأ لها وجودًا سياسيًّا حركيًّا فاعلًا. وقد تسامع المسلمون بالحركة السلفية في نجد وكثر أتباعها باستيلاء « الدولة السعودية على مكة سنة (١٢٤٨هـ) وأصبح الحجاج يفدون إلى مكة آمنين، يسمعون علماء الحركة، ويشاهدون سيرة الدولة وما كانت عليه من اعتصام بالكتاب والسنة »[٦]. وتتلخص مبادئ هذه الحركة في:

١ - الدعوة إلى إخلاص التوحيد للّه ومعرفة أنواع العبادة، وتحقيق معنى الشرك في عرف الشرع.

٢ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومبايعة الأمير على الكتاب والسنة.

٣ - لا دليل إلا الكتاب والسنة وما أثر مستنبطًا منهما عن السلف الصالح، ومن

---

(١) أبو الثناء محمود بن عبد اللّه شهاب الدين الألوسي الكبير (ت: ١٢٧٠هـ) ن. أعلام العراق (ص ٢١).

(٢) التفسير ورجاله (ص ١٢٧).

(٣) حاول هذا العمل شيخ الإسلام مصطفى صبري بمجهوداته العلمية والعملية ولكن السيف كان قد سبق العدل.

(٤) انظر: ترجمته بتفصيل في: تاريخ نجد وفي مؤلفه آل طامي: الشيخ محمد بن عبد الوهاب وغيرهم.

(٥) اليقظة الإسلامية (ص ٥٤).

(٦) الشيخ محمد بن عبد الوهاب لآل طامي (ص ٣٩) انظر: الاستقصا (٨/ ١٢٠) وتاريخ الدولة السعودية (١/ ٥٠).

تلقى عنهم إلى القرن الثالث.

٤ - اتباع الحق والأخذ بالدليل الجلي... دون مبالات بمن خالف من السلف.

٥ - الأخذ بمذهب الإمـام أحمد في الفروع... دون الإنكـار على من قلد أحد الأئمة الأربعة.

٦ - الاستعانة على فهم كتاب اللّـه بالتفاسير المتداولة وخاصة تفسير ابن جرير وابن كثير والبغوي والبيضاوي...[1].

وقد بقيت الحركة فاعلة في العالم الإسلامي، تغذي طلائع التجديد رغم الذبول المؤقت الذي أصابها بغزو محمد علي باشا[2] بلاد الحجاز؛ إذ سرعان ما أعادت حيويتها باسم « الإخوان » مؤيدة سياسيًّا بآل سعود أيضًا[3].

وقد واكبت هذه الحركة دعوة الإمام الشوكاني في اليمن؛ حيث « أثارت جدلًا فقهيًّا وكلاميًّا عنيفًا بين معاصريها، وانتشرت في سائر الأقطار الإسلامية حتى وصلت الهند »[4]. وذلك لما تميزت به من نقد للمعتقدات الفاسدة ودعوة إلى الاجتهاد ونبذ التقليد. ومن هنا يأتي وجه الشبه بين الحركتين، ومن كونهما كانتا معًا قناة عبور للنقد العلمي وتصديره إلى الحركات الإسلامية، تطعيمًا أو بعثًا للتجديد السلفي في أنحاء من العالم الإسلامي.

امتدادًا لحركة التوحيد في الجزيرة[5] نمت حركة علمية ذات اتجاه سلفي إصلاحي في العراق تولى زعامتها الألوسي الكبير وذلك « باعتماده على القرآن الكريم في معالجة أوضاع التخلف في العالم الإسلامي عقديًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا وعلميًّا »[6].

أما الشام وإن وجد فيها علماء أجلاء... فإن طابع الجمود والتخلف.. كان مسيطرًا

---

(١) الشيخ ابن عبد الوهاب (ص ٥٤) وما بعدها رسالة لابن مؤسس الحركة يرد بها على الافتراءات الموجهة للدعوة وذلك إثر دخول السعوديين إلى مكة.

(٢) سيكون محمد علي باشا هذا محور المبحث الموالي: « مصر وما اتصل بها غربًا ».

(٣) ن. تاريخ الدولة السعودية (٢/ ١٣٣) وما بعدها.

(٤) انتصار المنهج السلفي (ص ١٩٣).

(٥) ن: تاريخ نجد (٢/ ٨٩).

(٦) دراسات في أصول تفسير القرآن (ص ١٥)، و ن. التفسير ورجاله (ص ١١٨)، واليقظة الإسلامية (ص ٦٤).

فيها في بداية العصر الحديث « إلى أن ظهر علاَّمة الشام جمال الدين القاسمي[١] متأثرًا بأقطاب السلفية قبله وزعمائها في عصره؛ أمثال محمد عبده ورشيد رضا والشيخ طاهر الجزائري[٢]... وغيرهم من رجال السياسة والدين »[٣]. حيث قامت نهضة علمية بقدوم محمد عبده إلى بيروت، فظهر بذلك جيل جديد للإصلاح عميده طاهر الجزائري وداعيته بإصلاح المناهج وتأسيس المكتبات[٤].

– **المنطقة الثالثة: مصر وما اتصل بها غربًا:**

ونبتدئ بمصر لدورها الريادي في الحركات العلمية الإصلاحية الباعثة، ذات الصبغة الشاملة في عصر أصابها فيه ما أصاب العالم الإسلامي عامة من سيطرة الفكر الخرافي ممثلًا في الاستغاثة بالصالحين في النوازل، ودعائهم في الحاجات وتقديم القرابين لكشف الكروب[٥]، وحكامها يومئذ المماليك، تحت سلطة الدولة العثمانية إلى أن قويت شوكتهم مع إطلالة القرن الثالث عشر الهجري، فصاروا يتمردون على السلطة المركزية[٦].

استغل نابليون هذا التمرد وحمل على مصر عام (١٧٨٩م) وأحدث تنظيمات اجتماعية وعلمية ونتج عن ذلك وعي سياسي اجتماعي أسهم في إحياء الإحساس الإسلامي؛ حيث اشتدت المقاومة بالدعوة إلى الجهاد الإسلامي ليتم الجلاء عام (١٨٠١م)[٧] ثم يظهر محمد علي باشا على الساحة السياسية واليًا على مصر من قبل العثمانيين، الذي تميزت فترته بالتحديث على النمط الأوربي والقيام بحملات متتالية على الحجاز بأمر من السلطة المركزية عندما أحست بالخطر من وصول الدعوة

---

(١) جمال الدين بن محمد بن سعيد بن قاسم الحلاق، إمام الشام في عصره (ت: ١٣٣٢هـ)، ن. ترجمته مفصلة في كتاب: شيخ الشام جمال الدين القاسمي لمحمود مهدي الإستانبولي.

(٢) طاهر بن صالح بن أحمد الجزائري ثم الدمشقي اللُّغوي المصلح المكتبي (ت: ١٣٣٨هـ) الموسوعة العربية الميسرة (ص ٦٣٠).

(٣) شيخ الشام (ص ٦٠).

(٤) ن. تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ٣٩١ – ٣٩٣) و (١/ ٤١٥). واليقظة الإسلامية (ص ٢٠٦).

(٥) انظر عجائب الآثار؛ حيث ذكر في حوادث القرن (١٣هـ) عجائب من الدجل والتخريف، وانظر: تاريخ نجد (١/ ١٥).

(٦) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (٥/ ٢٨٠).

(٧) انظر: عجائب الآثار (٢/ ١٨٠) حوادث سنة (١٢١٣هـ) وما بعدها وموسوعة التاريخ الإسلامي (٥/ ٢٨٢).

الوهابية إلى مصر. وانتهت هذه الحملة بأسر القيادة العلمية والسياسية في الحجاز وإنهاء حياتهم بصورة ملحمية[١].

ومع أن الأزهر لم تبق فيه إلا بقية من حياة علمية وفكرية فإنه استطاع جذب عدد من علماء فجر التاريخ الحديث؛ كالزبيدي[٢] والجبرتي[٣] والشيخ الدردير[٤]... وغيرهم ممن أحيوا نور المعرفة، مما هيأ نهضات علمية إصلاحية سلفية عظمى، لولا الإحباط الذي أحدثته الحملة الفرنسية، وتيار التغريب الذي قواه محمد علي باشا بالبعثات الدراسية إلى الغرب[٥].

وفي الوقت الذي وصل فيه التفكك العثماني مداه، وبلغ التحدي الأوربي قمته أواخر القرن (١٣هـ) ظهر جمال الدين الأفغاني[٦] في مصر (١٢٨٦هـ - ١٨٧١م) مكتمل الوعي، يحمل هم الأمة الإسلامية مشحونًا بالتجديد، فبدأ الصراع عنيفًا بين قوى الهدم والبناء، قوى الإسلام وقوى التغريب[٧]. بصيحات الأفغاني الداعية إلى الجامعة الإسلامية ومقاومة الاستعمار بالعودة إلى الإسلام في أصله: القرآن والسنة والاجتهاد وحسن فهم الدين والاستقامة عليه[٨]. وقد تقوى هذا التيار بانضمام الشيخ محمد عبده[٩] إليه وأصبح يدعو إلى إقامة « الحكم الإسلامي وإعادة الدين إلى

---

(١) ن. انتصار المنهج السلفي (ص ١٧٢). و ن. الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة (١/ ٧١).

(٢) محمد بن محمد الحسني عراقي الأصل، هندي المولد، يمني النشأة، والطلب، ن. فهرس الفهارس (١/ ٣٩٨ - ٤٠٠).

(٣) عبد الرحمن بن حسن، المؤرخ المشهور المفتي المصري (ت: ١٢٣٧هـ)، ن. الأعلام (٣/ ٣٠٤).

(٤) أبو البركات أحمد بن صالح العدوي، الأمّار بالمعروف والناهي عن المنكر، ن. شجرة النور الزكية (ص ٣٥٩).

(٥) فقد أرسل أول بعثة إلى فرنسا سنة (١٨٢٦م) وأنشأ مدارس عسكرية ومدنية.. أما عمله الإسلامي فيقول عنه محمد عبده: « ليقل لنا أحد من الناس أي أعماله ظهرت فيها رائحة الدين الإسلامي؟ لا يذكرون إلا مسألة الوهابية وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين »، ن. تاريخ محمد عبده (٢/ ٣٨٨).

(٦) سيرة الرجل طبقت الآفاق فلا يخلو كتاب فكر أو تاريخ من ذكره تقريبًا في العصر الحديث.

(٧) ن. اليقظة الإسلامية (ص ٥٥).

(٨) ن. تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ٨٢) وكتاب: جمال الدين الأفغاني المفترى عليه (ص ٣٣٤).

(٩) محمد عبده بن حسن خير اللـه، مفتي الديار المصرية ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في العصر الحديث، ولد ونشأ وتعلم بمصر ومنها انطلقت دعوته الإصلاحية متأثرة بجمال الدين الأفغاني وسيرته مليئة بالأحداث والمغامرات، سجلها تلميذه محمد رشيد رضا في مؤلف سماه: تاريخ الأستاذ الشيخ محمد عبده، كما ترجم له كل من كتب في الفكر والإصلاح والتاريخ في العصر الحديث، توفي (١٩٠٥م) بالإسكندرية ودفن بالقاهرة.

ما كان عليه من الطهارة والعدل... بتأسيس حكومة إسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة.. وما تقتضيه حالة العصر »[١]، ولا سيما عندما انضم إلى الحركة رشيد رضا[٢].

وفي غياب القيادة المحنكة واشتداد الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، استلمت الراية حركة « الإخوان المسلمون »[٣] بقيادة حسن البنا[٤]، وحددت منهاج عملها في عشرين أصلًا، جامعة بين النظري والعملي والروحي[٥] للنهوض بالأمة، موجزها:

- أن الإسلام نظام شامل للحياة، وأن القرآن والسنة مرجع كل مسلم في تعرف أحكام الإسلام.

- كل واحد يؤخذ من قوله ويترك إلا المعصوم ﷺ.

- معرفة اللّـه وتوحيده أسمى عقائد الإسلام... والإيمان بالأسماء والصفات كما جاءت دون تأويل أو تعطيل.

- كل بدعة في الدين ضلال تجب محاربته بأفضل الوسائل، وكل مسألة لا ينبني عليها عمل لا نخوض فيها.

- النظر الشرعي والعقلي لا يختلفان في القطعي... فإن كانا ظنيين فالشرعي أولى بالاتباع.

- لا يكفر مسلم أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما برأي أو بمعصية، إلا إذا أقر

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ٢٨٣).

(٢) ولد محمد رشيد رضا ببلدة القلمون – طرابلس الشام عام (١٢٨٢هـ) ونشأ وتعلم بها وتوسع في علوم اللغة والشريعة وتعلق بقائدي حركة النهضة في العصر الحديث جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، فصمم على اللقاء بهما واقتفاء أثرهما. قدم مصر ولازم محمد عبده وأنشأ مجلة المنار التي تولد من رحمها « تفسير المنار » ونشر فكر المنار في العالم الإسلامي، توفي عام (١٣٥٧هـ). انظر: سيرته في: رشيد رضا صاحب المنار لأحمد الشرباصي، رشيد رضا المفسر، للدامراتي، رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، لمحمد بن عبد اللّـه السلمان.

(٣) ن. الموسوعة الحركية (١/ ١٥٩).

(٤) ولد حسن البنا بمصر عام (١٩٠٦م)، ونشأ في بيت علم وتدين وظهرت عليه علامات حمل هم الإسلام والمسلمين منذ صغره... وهو يرى الغربيين جادين في اجتثاث الإسلام، فأنشأ حركة الإخوان المسلمين والتي انتشر فكرها وصيتها في العالم بأسره اغتيل عام (١٩٤٩م). انظر: مذكرات الدعوة والداعية للمترجم له، والموسوعة الحركية لفتحي يكن (ص ٥٩) فما بعدها.

(٥) ن. مذكرات الدعوة والداعية (ص ١٦٣).

بالكفر أو عمل عملًا لا يحتمل إلا الكفر[١].

أما ما اتصل بمصر غربًا - ونقصد به الغرب الإسلامي - فإن الإحياء والتجديد في هذه البلدان، وإن كانت له مظاهر نابعة من خصوصيات بيئة بلدانه فإنه قد ارتبط بالشرق الإسلامي، وبخاصة الحركة الوهابية وحركة جمال الدين الأفغاني، وبالأزهر كمؤسسة علمية، فهذه الثلاثة أسهمت بقوة في انبثاق حركات فكرية سلفية صوفية جهادية اجتهادية قاومت الفساد العثماني والاحتلال الأوربي والواقع الاجتماعي الذي « سيطرت فيه الطرق الصوفية سيطرة مذهلة، وخيم الجمود وكثرت البدع واستسلم الناس للقدر »[٢]. فكان رد الفعل قيام حركات إصلاحية على مبادئ السلفية القادمة من الشرق.

ففي ليبيا ظهرت الحركة السنوسية[٣] من إطار صوفي قوامها التوحيد ومصدرها الكتاب والسنة، فأنشأت زوايا على نظام شامل قوامه العبادة والرزق والثقافة[٤]. ووضعت منهجًا للإصلاح قواعده المهمة:

- لا حدود تقسم العالم الإسلامي، وحركته الإصلاحية يجب أن تكون شاملة، وأن تكون فكرية سياسية جهادية روحية فالإسلام دين ودولة.

- العودة إلى يسر الإسلام، والاعتماد على الكتاب والسنة وترك البدع والتواكل[٥]. وإلى السنوسية يرجع الفضل في نشر الإحياء في شمال إفريقيا ووسطها، ومقاومة الاستعمار فيها[٦].

وأما تونس فقد كانت تعيش فتنًا متلاحقة في العصر الحديث مادتها الأولى عزل الولاة

---

(١) انظر: مجموعة رسائل الإمام حسن البنا، رسالة التعاليم (٧ - ١١).

(٢) الحركة السلفية ومدرسة البعث (ص ١٣).

(٣) نسبة إلى محمد بن علي بن السنوسي الكبير، ولد سنة (١٢٠٢هـ) بالجزائر وطلب العلم في فاس ومكة ورجع إلى ليبيا واستقر في الجبل الأخضر بها وأنشأ عدة زوايا ثم قصد الأزهر للدراسة ومنه أمر بإنشاء زاوية الغبون في ليبيا، وكان قد أنشأ غيرها في الطائف ومكة وجدة وينبع (ت: ١٢٧٦هـ)، ن: شجرة النور الزكية (ص ٣٩٩).

(٤) ن. اليقظة الإسلامية (ص ٦٧).

(٥) ن. مصدر سابق (ص ٧٠).

(٦) ن. موسوعة التاريخ الإسلامي (٤/ ٤٠٦) وقد تطورت السنوسية إلى دولة عند منازلتها للزحف الفرنسي والإيطالي؛ إذ ألقت إليها تركيا بمقاليد الأمور، ن. موسوعة التاريخ الإسلامي (٤/ ٤١).

واغتيالهم إما لضعفهم أو لظلمهم[١]، ولم تهب عليها رياح التجديد إلا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، على يد الباي أحمد باشا[٢] الذي اعتنى عناية خاصة بالعلم والعلماء، ومع ذلك فقد كانت الطرق الصوفية والاجترار العلمي سمة علماء الفترة، فالشيخ إبراهيم الرياحي وهو المفتي المفسر الخطيب كان تجاني الطريقة شديد التعصب إليها بل ألف رسالة في الرد على الحركة الوهابية لموقفها من الطرق الصوفية[٣].

وباشتداد الضغط الاستعماري في منتصف القرن التاسع عشر، ظهرت بوادر إصلاح شاملة[٤] قوتها الحركات الإصلاحية القادمة من الشرق في صورة مطبوعات وصحف وكتب، وبزيارة محمد عبده إلى تونس سنة (١٨٨٤م) وعام (١٩٠٣م) واتصاله فيها بالزعماء المصلحين، مما بلور اتجاهًا إصلاحيًّا سلفيًّا كان على رأسه الشيخ محمد بن مصطفى الخوجة[٥]. الذي كان صلة وصل علمية بين الإصلاح في تونس والإصلاح في مصر، كما عمل على نشر كتاب السيوطي « الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض »[٦]. وابن الخوجة هذا هو الذي أشاع فكر الأفغاني ومحمد عبده في الجزائر، التي كانت أرضها مهيأة للإصلاح بآثار السنوسية وبالمكتبة الثعالبية، والرحلات المتتالية بين القرويين والزيتونة والأزهر. وما حركة الأمير عبد القادر[٧] إلا تعبير عملي عن الفكر السلفي الذي تشربه من مجلة « العروة

---

(١) ن. شجرة النور الزكية، التتمة (ص ١٧١، ١٧٢).

(٢) باي تونس بن مصطفى باشا تمت له البيعة بعد موت أبيه عام (١٢٥٣هـ) فسرع في إعادة شباب الأمة وتضخيمها وباشر بنفسه دقيق أمور الدولة... واعتنى بالعلم بإنشاء المدارس والمكتبات وتعيين رواتب للعلماء (ت: ١٢٧١هـ)، ن. شجرة النور الزكية، التتمة (ص ١٧٤).

(٣) انظر: نماذج لهؤلاء العلماء في شجرة النور الزكية فرع إفريقيا (ص ٣٨٥) وما بعدها.

(٤) انظر: الإصلاح والمجتمع المغربي (ص ١٥١).

(٥) شاعر متشرع توفي بعد (١٣٤٠)، ن. الأعلام (٧/ ١٠١).

(٦) ابن باديس حياته وآثاره (ص ٣٦).

(٧) هو عبد القادر بن محيي الدين الحسني، أصله من المغرب الأقصا، ولد عام (١٢٢٣هـ) موافق (١٨٠٨م) نشأ في بيت عز وعلم وتقوى، رحل إلى المشرق ثم عاد إلى بلده وقد نشبت الحرب بين الأتراك والفرنسيين فتولى زعامة الحرب، وأبلى البلاء الحسن فلقب بالأمير وأقام إمارة في الجزائر، وتوفي عام (١٨٨٣م) بدمشق الشام، انظر: الأعلام (٤/ ٤٥،٤٦)، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصا (٩/ ٤١ - ٤٤)، حاضر العالم الإسلامي (٢/ ١٦٨ - ١٧٢).

الوثقى »: التي كانت تصل إليه وإلى كبار العلماء والأمراء في بلاد الإسلام[١]. ولقد كان لزيارة محمد عبده إلى الجزائر عام (١٩٠٣م) - إثر زيارته إلى تونس - أثر كبير في تكوين ما يمكن تسميته « بمدرسة المنار » التي غدت حركة إحياء فكري سلفي في الجزائر وفي المغرب بعد ذلك[٢] حيث ظهر على الساحة العلمية والجهادية « جمعية علماء المسلمين » التي مثلت آمال الشعب الجزائري المسلم بتعبيرها عن هويته بحق، وكانت المحرك الروحي للمنظومة التحررية في الجزائر، على يد مؤسسها الإمام عبد الحميد بن باديس[٣] وزملائه في الحركة[٤] الذين تلمسوا المنابع الأولى للإسلام في منهج تكاملي قوامه القرآن والسنة وسلوك السلف[٥].

وأما في المغرب الأقصى فإن بوادر الإحياء والتجديد قد ظهرت فيه في إطار رسمي تميز سياسيًّا بالاستقلال التام عن السلطة العثمانية، باستثناء ما كان يفرضه الوضع السياسي في ظل الأحداث الدولية والوطنية[٦] كما تميزت هذه البوادر بارتباط العلماء فيها بالسلطة الزمنية، ولم تحدثنا المصادر - التي تيسر لنا الاطلاع عليها - عن أي حركة إحيائية متكاملة، ذات مشروع ممنهج، كما حدث في الهند أو في مصر، مع أن واقع المغرب، ربما كان أحوج إلى مثل هذه الحركات[٧]. وكل ما نجده في أوائل العصر الحديث أن « السلطان محمد بن عبد اللّـه (١١٧١ - ١٢٠٤هـ) كان يرى اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات في فن الفقه وغيره وإعراضهم عن الأمهات المبسوطة الواضحة، تضييع للأعمار... وكان ينهى عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الأشعرية... وكان يحض الناس على مذهب السلف.. وكان يقول

---

(١) ن. تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ٢٨٣).

(٢) ن. اليقظة الإسلامية (ص ٢٢٤). والحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي (ص ٢٠٢).

(٣) عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس، المفسر الأديب من كبار رجال الإصلاح والتجديد في العصر الحديث بالجزائر ورئيس جمعية علماء المسلمين، ولد بقسنطينة وتعلم بتونس، توفي عام (١٣٥٩هـ). انظر: ترجمته في كتاب إلى ابن باديس حياته وآثاره، لعمار الطالبي، معجم المفسرين (١/ ٢٥٩) - الأعلام (٣/ ٢٨٩).

(٤) ن. الموسوعة الحركية (١/ ٥٣) والموسوعة المغربية (٤/ ٢٤٠).

(٥) ن: نفس المرجع (٢/ ٥٨).

(٦) ن. تاريخ الضعيف (ص ٧٤، ٨٧، ٢١٨، ٣٠٣) و ن. الاستقصا: (٨/ ٣١، ١٠٤، ٩/ ٢٦).

(٧) نظرًا لما كان يعانيه من انحراف عقدي وتمزق وتقاتل، انظر مثلًا: تاريخ الضعيف (ص ١٧٣، ٢٢٣، ٢٦٣).

عن نفسه: إنه مالكي مذهبًا، حنبلي اعتقادًا... »[١].

إن مضمون النص عبارة عن تصور أولي لمشروع إصلاحي شامل على النهج السلفي تتجلى معالمه الكبرى في التأكيد على مذهب السلف في الاعتقاد وفي الرجوع إلى الأمهات. وهذه البوادر قد ظهرت مبكرة إذا ما قورنت بالغرب الإسلامي عامة؛ إذ في هذه الفترة كانت لا تزال الحركة الوهابية تقارع البلاد النجدية بالفكر والسيف[٢] مع أننا لم نسمع بوصولها رسميًّا، إلا في عهد المولى سليمان بواسطة رسالة من آل سعود[٣] ويظهر أنها قد وصلت إلى المغرب في صورة مشوهة، مما جعل عامة علماء المغرب يقفون منها موقف الرد والرفض[٤] لما كان قد استحكم في المغرب من تقليد وطرقية وتصوف[٥]، إلا أن السلطان سليمان قد تحمس للدعوة الوهابية وعمل على نشرها بالعمل على تصحيح الاعتقاد وهدم القباب وإبطال المواسم[٦].

وفي هذا الصدد وجَّه خطابًا لعلماء العصر يقول فيه: « أنا بعت روحي في صلاح المسلمين والضعفاء والمساكين والأرامل والأيتام، وحسبت أنكم كذلك تسعون في صلاح جمع كلمة المسلمين من هذا الخلاف الذي هو بينهم، وحتى الآن لا فائدة لكم؛ لأني اختبرتكم فوجدت همتكم في بطونكم »[٧]. وليس معنى هذا أن فكرة الإصلاح السلفي لم تجد لها مكانًا في نفوس المغاربة قاطبة، بلى، ولكنها أخذت شكل التأليف والدرس الشفوي[٨] ولم تتحول إلى حركة منظمة ذات أهداف محددة على غرار ما حدث

---

(١) ن. الاستقصا (٨/ ٤٥ - ٦٨) وانظر: شجرة النور الزكية (ص ٣٧١) والفكر السامي (٢/ ٢٩٣ - ٢٩٤).

(٢) لا يستبعد أن يكون سيدي محمد بن عبد اللّه قد تأثر في ذلك بالدعوة الوهابية أن علمنا أنه جلب كتاب من الشرق منها مسند الإمام أحمد وأنه قد ساهر سلطان مكة الشريف سرور، ن. الاستقصا (٨/ ٣٤، ٨/ ٥٦) وأن وفود الحج لم تكد تنقطع، وكان يصحبها العلماء، ن. دراسة حول الموضوع، (الإصلاح والمجتمع المغربي (ص ١٧٥).

(٣) ن. تاريخ الضعيف (ص ٣٢٧) وانظر: الدراسة التي قدم بها الأستاذ أحمد العماري لرسالة علي بن طاهر الوتري المدني في الرد على الوهابية بمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس (عدد خاص (٢) سنة (١٩٨٥م)).

(٤) ن. تاريخ الضعيف (ص ٢٢٣ - ٢٦٣) على سبيل المثال، وتراجم علماء الفترة في شجرة النور الزكية لا تكاد تخلو من انتماء صوفي طرقي.

(٥، ٦) ن. تاريخ الضعيف (ص ٣١٤) والاستقصا (٨/ ١٢٣) والفكر السامي (٢/ ٢٩٨).

(٧) تاريخ الضعيف (ص ٢٨٧).

(٨) ن. دروس حول الحركة السلفية: السلسلة الفكرية (١) (ص ٣٢). والإصلاح والمجتمع المغربي (ص ٣٢٧)، والعدد الخاص من مجلة كلية الآداب بفاس (٢) سنة (١٩٨٥م)، (ص ٣٦٢).

في الجزائر أو مصر مثلًا.

وهذا ما يزكي القول بأن المغرب في القرن الثالث عشر الهجري « قد بقي بمعزل عن الحركة الإصلاحية السلفية الناشئة في مصر مع وصولها إلى تونس والجزائر، ولم تصل إليه إلا بعض كلمات، أصح ما يقال عنها: إنها نتائج بدون مقدمات »[١].

ويذكر صاحب الفكر السامي[٢] أن المصلح التونسي سالم بوحاجب[٣] سأله « هل لا زال خطباؤكم على النسق القديم في خطبهم... غير مبالين بإنذار قومهم بما يتهددهم من البوار وإرشادهم لما فيه صلاح دنياهم التي بها صلاح دينهم وآخرتهم »[٤] « فأجابه: لا يزال خطباؤنا على الطرز القديم تمامًا، وهم في نومهم كأمتهم تحسبهم جامدين »[٥]، ورغم ما بذله عالم فاس الفقيه كنون[٦] من جهد في سبيل توعية الأمة حتى أوذي بسبب دعوته السلفية[٧]، فإن ذلك لم يحدث ما كان مطلوبًا لمواجهة الخطر الذي أصبح يهدد الدين والوطن من الخارج، أواخر القرن الثالث عشر، ولم يحدث ذلك إلا بمجيء المصلح السلفي عبد اللّه السنوسي[٨] من المشرق متشبعًا بالدعوة الوهابية، مصبوغة بفكر الأفغاني ومحمد عبده؛ حيث اتصل « بالمولى الحسن الأول... وصدع بوجوب إصلاح العقيدة وفتح باب الاجتهاد والأخذ بالسلفية »[٩].

---

(١) التعاشيب (ص ١١٢).

(٢) هو محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي (ت: ١٣٧٦هـ).

(٣) أبو النجاة سالم بن عمر بوحاجب البنبلي عالم تونس ومفتيها المصلح المفكر (ت: ١٣٤٢هـ)، ن. شجرة النور الزكية (ص ٤٢٥، ٤٢٦) والفكر السامي (٢/ ٣١٩).

(٤، ٥) الفكر السامي (٢/ ٣١٩، ٣٢٠).

(٦) أبو عبد اللّه محمد بن المدني العلامة الذائع الصيت (ت: ١٣٠٢هـ)، ن. الاستقصا (٩/ ١٧٩) و ن: شجرة النور الزكية (ص ٤٢٩، ٤٣٠).

(٧) ن. الفكر السامي (٢/ ٣٠٢، ٣٠٣).

(٨) الحافظ المدني لعبد اللّه الجراري (ص ٩٤) وفيه يقول: « إنه كان لعلماء فاس مع السنوسي شأن، فقد رشقوه بسهام الانتقاد؛ وذلك لصدعه بالحق والدعوة إلى السلفية ». والسنوسي هذا هو أبو سالم عبد اللّه بن إدريس بن محمد نزيل طنجة العلامة المحدث الأثري السلفي، قال صاحب معجم الشيوخ: « اتصلت بالمترجم له سنة (١٣٢٤هـ) وتتلمذت عليه، فوجدته مباينًا للمعتزلة في كل شيء وبريء من كل ما نسب إليه بل عقيدته سالمة على مذهب السلف الصالح، مات رحمه اللّه سنة (١٣٥٠هـ) بطنجة »، معجم الشيوخ (٢/ ٨١ - ٩٥) و ن. الحركات الإحيائية المعاصرة في الوطن العربي (ص ٢٠٢).

(٩) نفسه.

ولقد زاد هذه الحركة قوة، رجوع أبي شعيب الدكالي[١] من الشرق عام (١٣٢٥هـ) آية في علم التفسير والسنة... وشمر على ساعد الجد، يحارب البدع، وينصر السنة، ويحيي النفوس بدروسه السلفية، حاضًا على الكتاب والسنة واتباع السلف الصالح[٢]، فتمسك بدعوته صفوة من علماء القرويين[٣] مؤسسين بذلك مرحلة جديدة من مراحل الإصلاح والتجديد طبعتها ظروف الاحتلال الفرنسي للمغرب، بطابع النضال السياسي بإحياء نفسية الاستعلاء الإيماني في نفوس المغاربة، كلما أعلنوا محاربة المحتل باسم الإسلام رافعين راية الجهاد في سبيل اللّـه.

وما أن خرج المستعمر حتى انطفأت جذوة الإصلاح، إذ قنعت النفوس - أو أقنعت - بنشوة طرد المحتل، مبقية على الانحراف العقدي والسلوك الشعوذي معششًا في العقول والأفكار والواقع، وتدخل عامل الترويض باسم الحداثة والانفتاح والتراث الفني لتحول المنبوذات الشرعية، إلى ممارسات رسمية باسم إحياء التراث وتأصيل الثقافة[٤].

***

المَبْحَثُ الأَوَّلُ: الدعوة إلى الاجتهاد ونبذ التقليد:

لقد تظاهرت كلمة علماء الإسلام على القول والعمل بالاجتهاد[٥]، واعتباره أصلًا من أصول التشريع بعد القرآن والسنة والإجماع...

كما تظاهرت كلمتهم على أنه لا اجتهاد في أصول الدين، ولا فيما فيه نص من كتاب أو سنة أو إجماع؛ لأن اللّـه وضع على هذه المطالب أدلة قاطعة، ومكن العقلاء

(١) أبو شعيب بن عبد الرحمن الدكالي الصديقي حافظ عصره (ت: ١٣٥٦هـ)، ن. تفصيل سيرته في:
أ - المحدث الحافظ أبو شعيب الدكالي لعبد اللّـه الجراري.
ب - أبو شعيب الدكالي والسلفية لإبراهيم بن أحمد الكتاني.
(٢) المحدث الحافظ أبو شعيب الدكالي (ص ٨٠).
(٣) مثل محمد بن العربي العلوي، توفي (١٩٦٤م)، ن. الحركات الإسلامية المعاصرة (ص ٢٠٣)، ومحمد المختار السوسي (ت ١٣٨٣هـ).
(٤) ويراجع كتاب أم القرى لعبد الرحمن الكواكبي.
(٥) ن. أدلة التشريع في مؤلفات أصول الفقه عامة.

من معرفتها[١].

« والاجتهاد في عرف الشريعة هو: استنفاذ الطاقة في طلب حكم النازلة؛ حيث يوجد ذلك الحكم؛ لأن أحكام الشريعة كلها متيقن أن اللّـه تعالى بيَّـنها بلا خلاف »[٢]... وأن « أصول الفقه وإن كملت في الزمن النبوي ففروعه لم تتم بعد، ولا انتهاء لها أبدًا ما دامت الحوادث »[٣].

والاجتهاد في الإسلام عملية تأمل تستدعيها الأحداث والمشكلات المستجدة ليستفرغ المجتهد الفقيه جهده في شأن إيجاد حلولها ومواجهتها بتثوير النصوص الشرعية القاطعة، للاستنباط منها أو القياس على النوازل التي نزلت فيها أحكام[٤]، متوخيًا مقاصد الإسلام وروح التشريع فيه. فإذا ما جمدت العقول وتعطلت آلة البحث اكتفاءً بما كان عليه الآباء والأجداد، فيما يجب فيه معرفة الدليل وبذل الجهد لمعرفة الحق فيه، لمسايرة التحولات الاجتماعية، كان ذلك جمودًا وتقليدًا وإهمالًا للدليل الشرعي وإماتة للفكر، وهذا هو التقليد الذي عرفه الفقهاء بأنه « عبارة عن العمل بقول الغير من غير حجة ملزمة »[٥]. ذلك أن تحكيم الرجال من غير التفات إلى كونهم وسائل للحكم الشرعي المطلوب ضلال[٦].

وإذا كان الاجتهاد من مسلمات الإسلام ومن ضروريات الاستمرار فإنه قد أتت على الأمة أزمنة قصرت فيها همة علمائها، عن الاجتهاد، واكتفت بأقوال الأئمة واختصار الكتب وتحشيتها وترجيع أقوال المذاهب.. حتى استحكم التقليد، والحالة أن علماء الأمة هم من يعبر عن وعيها وعن وجودها الحضاري وعن مدى قدرتها على الاستمرارية، وأن الاجتهاد هو ما يجعل الأمة قادرة على العطاء والمواجهة[٧] - كما

---

(١) ن. المحصول (٢/ ٥٠٠)، والإحكام في أصول الأحكام (٨/ ١٣٤).
(٢) الإحكام في أصول الأحكام (٦/ ٦٠، ٨/ ١٣٣)، ن. المحصول (٢/ ٤٨٩)، وإعلام الموقعين (١/ ٦٧).
(٣) الفكر السامي (١/ ١٦٣).
(٤) ن. الرسالة (ص ٤٧٧ - ٤٩١).
(٥) الإحكام للآمدي (٢/ ٢٢١) وانظر: التعريفات للجرجاني باب التاء، والفتاوى (١٩/ ٢٦٠)، وإرشاد الفحول (ص ٢٦٥).
(٦) الاعتصام (٢/ ٣١٠) و ن. الفتاوى (٢٠/ ٢٠٤).
(٧) انظر: الفكر السامي (٢/ ٤٦٠).

أسلفنا - وهذا ما يعبر عنه في الإسلام بالتجديد والإحياء. وما حدث هو رواج فكرة إغلاق باب الاجتهاد[١].

وما أصاب الأمة من فتور عام كان سببه دعوى إغلاق باب الاجتهاد، ونزوع الأمة في عمومها إلى التقليد، الشيء الذي أفقدها حيويتها ونشاطها، فولت الأدبار، لا متحرفة لقتال ولا متحيزة إلى فئة، بل لتقف في طريق الفئة القليلة من العلماء التي حاولت فتح أعين الأمة على المرض، وتبصيرها بالدواء[٢].

ولأصالة الاجتهاد في المنهج السلفي وامتداده بالسبب إلى رسول اللّـه ﷺ وأصحابه، ومن سار على نهجهم من التابعين ومن الأئمة الأعلام - عدا أعصر الجمود والتقليد[٣] -... فإن الدعوة إليه مع ذم التقليد، يعتبر أهم معالم المدرسة السلفية الحديثة في التفسير، بل هو المعلم الذي انبثقت عنه كل المعالم المميزة التي فتحت الأبواب، وأنارت الطريق أمام كل محاولات التجديد التي قامت تسعى إلى إيجاد وعي شامل لقضايا المرحلة، وما تتطلبه من حلول للخروج من الجمود والتوقف الذي كان يطبع العالم الإسلامي بأسره.

يشهد شاهد من أهل فجر التاريخ الحديث[٤] قائلًا: « ولقد طفت من أقصى المغرب ومن أقصى السودان إلى الحرمين الشريفين فلم ألق أحدًا يسأل عن نازلة فيرجع إلى كتاب رب العالمين، وسنة سيد المرسلين وآثار الصحابة والتابعين، إلا ثلاثة رجال - لم يذكرهم - وكل منهم مقموع محسود... من المتفقهين... والعوام والمتسمين بسيم الصالحين »[٥] فطلب العلم في هذا الزمن « قد حاد أهله عن طريق سلفهم... وابتدعوا في ذلك ما بان به جهلهم وتقصيرهم... فطائفة قد رضيت بالدأب في جمع ما

---

(١) ن. إعلام الموقعين (٢/ ٢٥٦) وعلق على الموضوع صاحب إيقاظ الوسنان بقوله: « فلولا قصر الباع وقلة الاطلاع ما وقع بعض متعصبي المقلدين في سفسطة انعقاد الإجماع على فقد الاجتهاد بعد الأئمة الأربعة » ن. (ص ٧٩) من الكتاب.

(٢) نفسه.

(٣) إذ لم يخل عصر من عصور الإسلام من قائم للّـه بالحجة وإن كانوا قلة...

(٤) هو الإمام صالح بن محمد بن نوح الشهير بالفلاني (ت: ١٢١٨هـ) بالمدينة سوداني الأصل كان كثير الترحال، ن. الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام (٧/ ٣٤٤)، وفهرس الفهارس (٢/ ٢٦٤).

(٥) إيقاظ همم أولي الأبصار (ص ٢٨).

لا يفهم، وقنعت بالجهل في حمل ما لا يعلم... شغلوا أنفسهم بالاستكتاب عن التدبر والاعتبار... وطائفة هي في الجهل كتلك أو أشد لم يعنوا بحفظ ولا بأصل »[١].

والحالتان معًا جمود وتقليد ذكرهما صاحب إيقاظ الهمم في سياق التشنيع بالتقليد والدعوة إلى بذل الجهد في معرفة الحكم من أصله بدليله؛ إذ الفرض والحتم على المؤمن - كما يقول أحد تلاميذ المدرسة -[٢] « إذا بلغه كتاب اللّـه وسنة رسوله ﷺ - وعلم معنى ذلك في أي شيء كان، أن يعمل به، ولو خالفه من خالفه... أجمع على ذلك العلماء قاطبة إلا جهال المقلدين، وجفاتهم... ومثل هؤلاء ليسوا من أهل العلم »[٣].

وفي هذا السياق يورد الإمام الشوكاني أنه رأى مشايخ أهل زمانه « المشتغلين بعلوم الاجتهاد فلم يجد فيهم واحدًا منهم يقول: إن التقليد صواب، ومنهم من صرح بإنكار التقليد فوقع بينه وبين أهل عصره قلاقل وزلازل[٤]، وهكذا أهل الديار في جميع الأعصار... وهذا أمر يشاهده كل أحد في زمنه، فإنا لم نسمع بأهل مدينة من المدائن الإسلامية أجمعوا أمرهم على ترك التقليد واتباع الكتاب والسنة لا في هذا العصر - يقصد عصره - ولا فيما تقدمه من العصور، بعد ظهور المذاهب »[٥].

ولما حاجج الشوكاني أهل عصره في أمر التقليد قالوا على نهج سلفهم من المقلدة: « هذا هو الأمر القديم وعليه أدركنا الشيوخ »[٦] وهذا من العجب؛ لأن التقليد « إنما حدث بعد مائتي سنة من الهجرة وبعد فناء القرون التي أثنى عليها الرسول ﷺ »[٧]. والشوكاني - وهو ممن يمثل المرحلة التأسيسية للمدرسة السلفية الحديثة في التفسير - قد اهتم اهتمامًا خاصًّا بالتقليد والاجتهاد؛ إذ استوفى الكلام فيهما في مؤلفه « أدب الطلب ومنتهى الأرب » إلى جانب رسالته « القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد »[٨].

---

(١) ن.م (ص ٨٠، ٨١).

(٢) هو الشيخ سليمان بن عبد اللّـه حفيد مؤسس الحركة الوهابية كان فقيهًا ومحدثًا ومفسرًا. أعدمه إبراهيم باشا ابن محمد علي في غزوة للجزيرة العربية عام (١٢٣٣هـ)، ن. مشاهير علماء نجد (ص ٢٩).

(٣) تيسير العزيز الحميد (ص ٥٤٦).

(٤) حدث هذا للشوكاني نفسه مع أهل عصره، ن. الفكر السامي (٢/ ٤٥٩).

(٥) القول المفيد (ص ٥٠، ٥١).

(٦) المرجع السابق (ص ٤٤).

(٧) نفسه.

(٨) ن. فتح القدير (١/ ١٦٧) وله أيضًا في الموضوع « السيل الجرار » ن. مقدمة كتابه: القول المفيد.

كما عالج الموضوع في مناسبات متعددة في تفسيره « فتح القدير »؛ منها: ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠] قال: وفي هذه الآية من الوعيد الشديد الذي ترجف له القلوب وتتصدع منه الأفئدة ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج اللّـه سبحانه والقائمين ببيان شريعته، ترك الدهان، لأهل البدع المتمذهبين بمذهب السوء، التاركين للعمل بالكتاب والسنة المؤثرين لمحض الرأي عليهما[١]. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [البقرة: ١٧٠] يقول: « وفي هذه الآية من الذم للمقلدين والنداء بجهلهم الفاحش، واعتقادهم الفاسد، ما لا يقدر قدره إلا اللّـه »[٢].

ومما يلاحظ أن الدعـوة إلى الاجتهاد ونبذ التقليد لدى رواد المدرسـة الأوائل، قد انحصرت في الغالب في مسائل الاعتقاد والبدع في العبادات بمصطلح الفقهاء، وهذا يظهر جليًّا في مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب بما في ذلك ما فسره من آيات وسور[٣]، وفي مؤلفات الإمام الشوكاني، وفي مؤلفات صديق حسن خان، وخاصة منها: الدين الخالص، الذي عالج فيه قضايا التوحيد ناقدًا تصرفات الأمة وشركياتها في الربوبية والألوهية، وهي تصرفات ترجع إلى التقليد وترك الاجتهاد وترك البحث عن الدليل، « فتأمل في مقلدة المذاهب كيف أقروا على أنفسهم بتقليد الأموات من العلماء والأولياء واعترفوا بأن فهم الكتاب والسنة كان خاصًّا بهم، واستدلوا لإشراكهم في الصلحاء بعبارات القوم ومكاشفات الشيوخ في النوم ورجحوا كلام الأمة والأئمة على كلام اللّـه تعالى ورسوله... ومن صار أسيرًا للتقليد، وعبدًا للعبيد، وقنع من الإسلام بالاسم، ومن الدين بالرسم، واعتقد أن الإيمان هو الذي في كتب المقلدة والمتكلمة، وملفوظات الصوفية، وصحائف الفروع الفقهيـة... التي لا سند لها من أدلة

---

(١) فتح القدير (١/ ١٣٥).

(٢) المرجع السابق (١/ ١٦٦)، وذهب الطاهر ابن عاشور إلى أن هذه الآية لا تتعلق بأحكام الاجتهاد والتقليد؛ لأنها ذم للذين أبوا أن يتبعوا ما أنزل اللّـه، فأما التقليد فهو تقليد للمتبعين ما أنزل اللّـه، ن. التحرير والتنوير (٢/ ١١٠).

(٣) ن. المواضع الأولى من كتاب « التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب ».

الحديث والكتاب، فعلى نفسها جنت براقش[١] »[٢].

هذا وإن الاقتصار على الاعتقاد وفقه العبادات في معالجة أمر الأمة، عملٌ كانت تمليه المرحلة التي تميزت بالشركيات واستفحال البدع، مما اقتضى إزالة الإذعان لغير اللّـه من النفوس وتعويذها على طلب الدليل[٣]. ولما اشتدت أزمة الأمة الإسلامية، بما استحدثته الأمم الأوربية من علوم ونظم، استولت بها على شعوب وأمم، وسخرتها لإشباع جشعها، توسعت بذلك مدارك المصلحين، وتفتحت أعينهم على قضايا جديدة، تمس صميم حياة الأمة « فطالبوا بالإصلاح والتجديد النافع للأمة، مع المحافظة على مقوماتها... التي تمت بها حقيقتها »[٤]. وأعلنوا « أن أساس الإصلاح... الذي قام به وعليه الإسلام دينًا ودولة، وقامت عليه الدول القوية؛ هو الاستقلال في الفهم والعقل وهذا ما دعا إليه المجددان الأفغاني ومحمد عبده، وكان أشد ما أنكروه عليهما، القول بوجوب الاجتهاد وتحريم التقليد »[٥]؛ حيث قرر الأفغاني أن « الانحلال والضعف في روابط الملة الإسلامية بدأ عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه، كما كان الراشدون رضي اللّـه عنهم »[٦]... ثم أذن تابعه محمد عبده « بتحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى... »[٧].

ومن اطلع على مقدمة « تفسير المنار » أو مقدمة « مشكلات القرآن الكريم » وعلى ما فيها من دعوة إلى الاجتهاد وتحصيل أدواته، لفهم النص القرآني يعلم قيمة العمل الذي قام به محمد عبده بتأثير من أستاذه الأفغاني وأحوال عصره في « توجيه العناية إلى هداية القرآن على الوجـه الذي يتفق مع الآيات الكريمـة المنزلة في وصفه وما أنزل

---

(١) ن: مجمع الأمثال للميداني (٢/ ١٤، ١٥) ونص المثل فيه: (على أهلها جنت براقش: ويضرب لمن عمل عملًا يرجع ضرره إليه).

(٢) الدين الخالص (١/ ١٩٦).

(٣) ن. التحرير والتنوير (١/ ٤٠).

(٤) مقدمة تاريخ الأستاذ الإمام (ص: م).

(٥) مقدمة تاريخ محمد عبده (ص: ن) بتصرف.

(٦) العروة الوثقى، مقالة واقع المسلمين وسبيل النهوض لهم (ص ٥٦).

(٧) تاريخ محمد عبده (١/ ١١).

لأجله من الإنذار والتبشير والهداية والإصلاح »[١].

إن مقدمة التفسير هذه، هي التي فجرت عددًا من الطاقات الكامنة فانبجست منها عيون اليقظة الشاملة؛ حيث تنوقلت نصًّا أو معنًى إلى أكثر من تفسير[٢] لما فيها من قواعد داعية إلى الاجتهاد ومحذرة من التقليد، وما فيه من جناية على الإسلام.

ولنأخذ صورًا تطبيقية من تفسير المنار لريادته في الجمع بين الاجتهاد بطلب الدليل الصحيح من أصوله في الاعتقاد والتعبد، وبين الاجتهاد انطلاقًا من الأصول نفسها في مواجهة متطلبات الحياة المتجددة تحررًا من أثقال قرون التقليد، وركام العادات، وقيود العقول بمنهج « تفسير المنار لطالب الاجتهاد الطريق بأن أحكام الكتاب والسنة... » منها أحكام خاصة بالأعمال والوقائع، ومنها قواعد عامة للتشريع.

والأحكام الخاصة منها ما هو قطعي الرواية والدلالة، لا مجال للاجتهاد فيه ولا معدل عن الحكم به إلا لمانع شرعي[٣]. ومنها ما هو غير قطعي يعمل فيه باجتهاد من يناط به الحكم والتنفيذ[٤].

وأما القواعد العامة فهي ما تجب مراعاته في الأحكام المختلفة، وأهمها في الإسلام تحري الحق والعدل المطلق، وتقرير المصالح، ودرء المفاسد[٥]... « فالشريعة الإسلامية شريعة عامة باقية إلى آخر الزمان، ومن لوازم ذلك أنها تنطبق على مصالح الخلق في كل زمان ومكان مهما تغيرت أساليب العمران »[٦] وهذا الأمر لا يتم إلا بالاجتهاد وعدم الجمود على ما هو موجود.

وبناءً على ذلك، وعند تقديمه لسورة البقرة، يستنبط من السورة قواعد وأصولًا شرعية عامة، الثالثة عشرة، منها هي « بطلان التقليد للآباء والأجداد والمشايخ

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٠)، وانظر: مشكلات القرآن الكريم (ص ١٠).

(٢) ن. محاسن التأويل (١/ ٣٢٢) حيث قال: وهذا الفصل ينقله عن مقدمة التفسير الذي شرع فيه في هذا العهد... الشيخ محمد عبده مفتي مصر، و انظر: مقاصد القرآن الكريم (ص ١٢، ١٨، ٢٨) والتحرير والتنوير (١/ ٣٨).

(٣) كدرء الحدود بالشبهات أو فوات شرط لعذر شرعي آخر عملًا بقاعدة الضرورات تبيح المحذورات.

(٤) كالأمير العام والقاضي والمفتي وقائد الجيش..

(٥) تفسير المنار (١١/ ٢٦٨)، ن. الوحي المحمدي (ص ١٣١)، والفكر السامي (١/ ١٦٣، ١٦٤).

(٦) تاريخ محمد عبده (١/ ٦١٤).

والمعلمين والرؤساء؛ لأنه جهل وعصبية جاهلية... والشواهد عليه عديدة[١]... ثم يضيف: « وإن في تحريم التقليد.. لتأكيدًا شديدًا لإيجاب العلم الاستقلالي الاستدلالي في الدين، وهو لا يقتضي الاجتهاد المطلق في جميع مسائل التشريع، وإن في إطلاق مقلدة المصنفين.. من القرون الوسطى، القول بإيجاب تقليد المجتهدين في أمور الدين وتحريم الأخذ بالدليل فيه... لا افتياتًا على دين اللّـه... »[٢] « لأن عجائب القرآن والحديث لا تنقضي إلى يوم القيامة، كل قرن لا بد أن يأخذ منها فوائد خصه اللّـه بها »[٣] تصوغ بها الأمة حياتها في قالب إسلامي تتحصن به من أمراض المستحدثات والبدع ومن الجنوح إلى التبعية.

وعند تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] يقول تفسير المنار: « إن في الآيتين من هدم التقليد ما لا يخفى على ذوي البصيرة؛ ذلك أن اللّـه تعالى جعل تبين الرشد وظهوره في كتابه هو الطريق إلى الدين »[٤] والتبين لا يحصل إلا بالاجتهاد في طلب الدليل من الكتاب والسنة. « والتقليد منع من تدبر القرآن للاهتداء به، وتدبره واجب... والأئمة المجتهدون أجمعوا على وجوب الاهتداء بالقرآن، وعلى المنع من التقليد الذي يصد عنه ويقتضي هجره... ولسنا نبغي ببطلان التقليد أن كل مسلم يمكن أن يكون كمالك والشافعي في استنباط الأحكام الاجتهادية في أبواب الفقه،... وإنما نعني أنه يجب على كل مسلم أن يتدبر القرآن ويهتدي به بحسب طاقته، وأنه لا يجوز لمسلم قط أن يهجره ويعرض عنه »[٥].

وإن ذهبنا نرصد الدعوة إلى الاجتهاد وهدم التقليد عند المدرسة لوجدناها قد اتخذت لها كل وسيلة، ونادت بها في كل نادٍ حضرته، وأولتها أيما اهتمام في التفسير، بالوقوف عند كل آية لها تعلق بالموضوع قرب أو بعد[٦].

* * *

---

(١) أظهرها كما قال: ما حكاه اللّـه تعالى عن تبريء لمتبوعين من الاتباع يوم القيامة، الآية (١٦٦) من سورة البقرة، الآية (١٧٠) من نفس السورة ومما قاله سيد قطب في هذه الآية إنها (تندد بتلقي شيء في أمر العقيدة من غير اللّـه وتندد بالتقليد في هذا الشأن، والنقل بلا تعقل ولا إدراك) الظلال (١/ ٢١٩).

(٢) تفسير المنار (١/ ١١٤).

(٣) الفكر السامي (٢/ ٤٥٦).

(٤) تفسير المنار (٣/ ٤٢).

(٥) ن.م (٥/ ٢٩٦، ٢٩٧).

(٦) ن. تفسير المراغي (٢/ ٤٥).

المَبْحَثُ الثَّانِي: العناية بالقرآن وإعجازه:

أ - إعادة النظر في مناهج التفسير:

القرآن معجزة الإسلام الخالدة، تتحدى الإنسان والزمان والمكان... لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء... وإن قال فيه الدارسون ما قالوا، وذهب فيه المفسرون ما ذهبوا، واستنبط منه الفقهاء ما استنبطوا.. فارجع البصر إلى ما ألف في القرآن وحوله، منذ أن نزل، ترى ما ينوء بالعصبة أولي القوة، من الدراسات والاهتمامات، ما لم يظفر بها أي كتاب غيره. ومع كل هذا، ما زالت تطلع علينا في كل يوم كتب ودراسات، يتحدث فيها أصحابها عن هذا الكتاب المعجز، وعما حواه من هداية وإرشاد وإصلاح وتحدٍّ وإعجاز... وجلها لا يخلو من فوائد فريدة مستنبطة منه، نحن أحوج ما نكون إليها في عصر كشّر فيه الإنسان الجاحد، عن أنياب الجحود والعصيان، والتمرد.

قد يقول بعض محدودي النظر والفكر - من أهل هذا العصر- « لا حاجة إلى التفسير والنظر في القرآن؛ لأن الأئمة السابقين نظروا في الكتاب والسنة، واستنبطوا الأحكام منها، فما علينا إلا أن ننظر في كتبهم، ونستغني بها... ولو صح هذا لكان طلب التفسير عبثًا... وهو مخالف لإجماع الأئمة من النبي ﷺ إلى آخر واحد من المؤمنين »[1]. لأن الاكتفاء بما أنتج في هذا المجال أو النسج على منواله يصبح عملًا مستهلكًا، لا يساير الخطاب القرآني الموجه إلى كل عصر بعينه، وإلى نوعية العقول والأفكار الرائجة فيه، فلقد قرر السلف قاعدة مخاطبة الناس على قدر عقولهم، حتى لا يكذب اللّـه ورسوله[2].

وما وصل إليه المفسرون والدارسون في العصور الماضية - رغم أهميته وضرورة الاطلاع عليه، وكونه مصدرًا - لم يعد كافيًا وحده للاستنتاج واستخلاص المفاهيم والمعاني المؤيدة للقول بصلاحية القرآن لكل زمان ومكان... في إطار التحولات

---

(١) مشكلات القرآن الكريم (ص ١٢).

(٢) ورد أن عليًّا قال: « حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب اللّـه ورسوله » صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم.

الهائلـة عرفتها مناهج البحث العلمي والتطورات الباهرة التي حصلت في الحياة العقلية والفكرية.

من هذا المنطلق، حاولت أجيال المدرسة السلفية الحديثة إعادة النظر في مناهج التفسير في ظل المنهج السلفي الثابت واعتبارًا به[١]؛ بقصد إيجاد قواعد ضابطة لطرق الاستنباط وأدواته، ومن ثم ضبط المفاهيم والمعاني والنتائج، حفظًا للفكر من التسيب، وللعقل من تجاوز حدوده. وهم لم يقوموا بهذا لهوى في نفوسهم أو ليقال: إنهم أتوا بما لم تستطعه الأوائل... وإنما ذلك يقتضيه الإعجاز القرآني ومقاصده، وواقع الأمة وطبيعة الدعوة وروح التجديد، الذي هو خصيصة هذا الدين، وهو أيضًا أمر يقتضيه القيام بواجب الشهادة على الناس، بإيجاد أساليب فعالة ومؤثرة، تتلاءم وعقلية إنسان العصر الذي كيفته النتائج الفيزيائية والكيميائية، والاختراعات العلمية، فراح يعيد النظر في الكثير من الاعتقادات التي كانت سائدة في عصر ما قبل الثورة الصناعية...هذه الحيثيات هي التي كانت السبب المباشرة في ظهور « المنهج الجديد في تفسير القرآن الكريم الذي دعا إلى إعادة النظر في المناهج القديمة من أساسها، نتيجة للأوضاع السيئة التي تعرض لها العالم الإسلامي في نواحي الحياة كلها، فتحولت إلى أوضاع متخلفة بعيدة عن هداية القرآن، ومقاصد الإسلام »[٢].

ولئن كانت الدعوة إلى إعادة النظر في مناهج التفسير، قد ظهرت في أنحاء شتى من العالم الإسلامي في ظل رياح التجديد، فإنها تبلورت أول الأمر في مقدمة الشيخ محمد عبده في علوم التفسير، ثم تناقلها عنه كلُّ من تتلمذ عليه أو تأثر به، كالشيخ رشيد رضا والمراغيين في مصر، وجمال الدين القاسمي، وعبد القادر المغربي[٣] في الشام،

---

(١) إذ كل فهم جديد للقرآن لا بد من ارتكازه على شرطين أساسيين:
أ - أن يوافق مدلولات اللغة العربية.
ب - ألا يخالف أصول الدين القطعية، ن. تفسير المنار (٦/ ٤٧٢).
(٢) دراسات في أصول تفسير القرآن (ص ١٦).
(٣) عبد القادر مصطفى المغربي، الأديب اللغوي المفسر المصلح، ولد باللاذقية ونشأ في طرابلس الشام وتعلم بها وبدمشق وإستانبول، اتصل بجمال الدين الأفغاني وراسل محمد عبده، توفي بدمشق عام (١٣٧٥هـ) من آثاره في التفسير: تفسير جزء تبارك، وعلى هامش التفسير.
انظر: معجم المفسرين (١/ ٢٩٤) والموسوعة العربية الميسرة (ص ١٧٢٤).

وابن باديس والطاهر ابن عاشور[١]، وأبي بكر زنيبر[٢] في الغرب الإسلامي.

وسعيًا إلى تحديد قواعد مناهج التفسير لدى المدرسة، نعمد إلى مؤلفات علوم القرآن ومقدمات التفاسير، وبعض الدراسات القرآنية في العصر الحديث لاستخراج هذه الضوابط، في إجمالٍ جامع على الترتيب التالي:

أولًا: **فهم القرآن الكريم في ظل الكتاب والسنة الصحيحة، وأعمال السلف الصالح**، ونبذ ما تراكم على الأعمال التفسيرية من آراء الرجال ومفاهيمهم، والتعامل معها على أنها آراء يستأنس بها ولا تعتمد في هذا الفهم.

ثانيًا: **فهم القرآن متوقف على فهمه من الداخل** باعتبار وحدته الموضوعية وتناسب الآيات والسور في ترتيبهما الرباني، واعتبار السورة أساسًا لهذا الفهم، في جميع آياتها.

ثالثًا: **تتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة**، تمييزًا لها عما ورد في الكتاب الكريم؛ إذ كثيرًا ما نجد تفسير الكلمات القرآنية باصطلاحات حدثت بعد القرون الثلاثة الأولى، تحمل مفاهيم الفرق من منظور أصول عقيدتها.

رابعًا: **إبعاد التفسير عن أن يكون مجالًا لتدريب الملكة اللغوية**، وعدم إغفال الوقائع التاريخية في سير الدعوة إلى الإسلام، في تفسير الآيات التي نزلت فيها، مع بيان حكمة التشريع في العقائد والأحكام، على وجه الروايات الإسرائيلية والخرافية، ورد الأحاديث الضعيفة والموضوعة، استنادًا على القواعد المقررة في علوم الحديث.

خامسًا: **عدم الخوض في مبهمات القرآن**، والأمور الغيبية التي لا تعرف إلا من جهة النصوص الشرعية، وترك التعمق فيما لا فائدة عملية فيه.

سادسًا: **العلم بهداية البشر كلهم بالقرآن**، بعلم ما كان عليه الناس من ضلال قبل

---

(١) محمد الطاهر ابن عاشور، المفسر اللغوي، والأديب النحوي، من دعاة الإصلاح، ولد بتونس، وتعلم بها، وعد شيخًا للإسلام، وعميدًا لجامعة الزيتونة، له تفسير التحرير والتنوير، توفي عام (١٣٩٣هـ). انظر: معجم المفسرين (٢/ ٥٤٢).

(٢) أبو بكر بن الطاهر بن حجي زنيبر السلوي، فقيه قاضي مفسر مصلح من أهل سلا في المغرب، ولي القضاء والإفتاء، من آثاره في التفسير: « إرشاد اللّه للمسلم الغافل اللاهي »، وقد ذكر في مقدمته أن الباعث له على تأليف هذا التفسير: هو أن يكون هذا التفسير في هذا العصر طبيًا في وصف الأدواء وعلاجها... توفي عام (١٣٧٦هـ).
انظر: أبو بكر زنيبر وتفسيره « إرشاد اللّه » (ص ٣٧).من أعلام الفكر المعاصر في العدوتين (٢/ ٢٦٦).
معجم المفسرين (٢/ ٧٦٧).

البعثة، وكيف غيرهم القرآن، أخذًا مما قبح القرآن من عاداتهم وتصرفاتهم وما عاب من عقائدهم.

سابعًا: العلم بسيرة الرسول ﷺ وأصحابه وما كانوا عليه من علم وعمل وطاعة للرسول ﷺ.

ثامنًا: الاستفادة من التطور العلمي في تفسير الآيات الكونية لتجديد الإيمان في النفوس، وتفنيد الشبهات والأوهام، دون استعمال الاصطلاحات الغامضة والفنون المتخصصة.

تاسعًا: علم أحوال البشر بالنظر في أطوارهم وأدوارهم، ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم، وجهل... وهذا يحتاج إلى فنون علمية أخرى، على رأسها ما يعرف بالعلوم الإنسانية[1].

وكون هذه الضوابط من مميزات ومعالم المنهج السلفي في العصر الحديث، لا يعني بحال إغفال الأصول النقلية كالناسخ والمنسوخ... والأصول اللغوية، ما تعلق منها بالمبنى والمعنى؛ والأصول العقلية التي اشترطها السلف في عملية إعمال الفكر والنظر في التفسير. لأن هذه من مسلمات المنهج السلفي لما قررناه سابقًا في المبحث الخاص بأصول التفسير؛ السلفي وقواعده، بل إن كل هذه القواعد المنهجية أخذت وجودها إما من أصول السلف في التفسير المدونة قواعد وضوابط، أو من منهجهم العملي العلمي في تفسيرهم لكتاب اللّه تعالى. صاغها قادة المدرسة السلفية الحديثة وفق التصنيفات والتسميات المصطلحية المستجدة في عصرهم.

---

(١) رجعنا في صياغة هذه الضوابط إلى:

أ - مشكلات القرآن الكريم (ص ١٦، ١٧).

ب - مقدمة تفسير المنار، بداية الجزء الأول.

ج - مقدمة تفسير محاسن التأويل (١/ ٣٢٥).

د - التفسير والمفسرون (٣/ ٢١٤).

هـ - التفسير ورجاله (ص ١٤٢).

و - نحو منهج لتفسير القرآن (ص ٩٢).

ز - اليقظة الإسلامية (ص ١٧).

جـ - القواعد الحسان في تفسير القرآن (ص ٧٣، ١٤٤، ١٧٧).

هـ - النبأ العظيم (ص ١٥٨ - ١٦٣).

ب – ظاهرة التفسير الموضوعي:

تعددت الدراسات القرآنية وتنوعت، بدافع فهم الخطاب القرآني ومحاولة تفهيمه إلى المخاطبين. هذا التنوع والتعدد، صاحب المسيرة التفسيرية منذ العهود الأولى لتفسير القرآن(١) إلا أن التطور الذي شهدته الحياة الإنسانية في العصر الحديث قد غير العديد من المفاهيم والعلاقات، فتغيرت معها مناهج البحث ووسائله.. فصار علماء الأمة الحاملون للأمانة المهتمون بأمرها، أمام أمر خطير مؤداه: إما أن يوجدوا للأمة مناهج ونظمًا إسلامية منبثقة من أصول دينها، وإلا غمرها السيل الجارف من الشرق والغرب فلما أحسوا بأس الهجمة، واستشعروا ثقل التبعة نفروا آمّين القرآن الكريم، متدبرين ودارسين على هدي السلف الصالح عند نزول المدلهمات، فظهرت أنماط جديدة من الدراسات القرآنية والتفسيرية، منها ما اصطلح على تسميته « بالتفسير الموضوعي ». وهو لون من ألوان التفسير التي كان للمدرسة نصيب الأسد فيه، إدراكًا منها للدور الوظيفي للدين في الجانب الاجتماعي والاعتقادي والسياسي والتربوي، والحربي للأمة، وهي الأعمدة التي يقوم عليها كيان الأمة، كما أمر القرآن وبيَّـن، في الوقت الذي كانت فيه الأمة قد افتقدت كل أعمدة قيامها أو أهمها، لتسقط في حمئة الذل والهوان.

وإذ نجد القرآن الكريم يعرض في سوره وآياته مواضيع ذات قضايا مشتركة أو مستقلة في أماكن متعددة منه، وبأساليب متنوعة – إذ نجد ذلك – فقد كان مناسبًا أن تعرف علوم القرآن هذا اللون من التفسير بأنه: « التفسير الذي يتناول موضوعًا واحدًا في القرآن، يعمد المفسر فيه إلى ذكر الآيات المتعلقة بهذا الموضوع، وإن اختلفت عباراتها، وتعددت أماكن وجودها، مع الكشف عن أطراف الموضوع، حتى يستوعب المفسر جميع نواحيه ويلم بكل أطرافه(٢) ».

هذا النـوع من التفسير، قد يجـري على موضوع بعينـه، في كل القرآن الكريـم، وقد

---

(١) ذكر ابن النديم عددًا من هذه الدراسات وتشمل التفسير الجزئي والكلي للقرآن، كما تشمل أحكام القرآن وإعجازه في الفن الثالث من المقالة الأولى، ن. الفهرست (ص ٣٦) وما بعدها.

(٢) ن. أ – التفسير الموضوعي للقرآن الكريم للسيد الكومي ويوسف القاسم (ص ١٦).

ب – لمحات في علوم القرآن والتفسير (ص ٢٢٦).

ج – الصبر في القرآن الكريم (ص ٦).

يكون في السورة الواحدة منه، على اعتبار أنها تمثل وحدة مؤتلفة تترابط أجزاؤها وتتماسك معانيها، في سياق واحد - وإن تعددت مقاصدها - مكونة وحدة موحدة ذات موضوع واحد، روحه يسري في آياتها ويسيطر على مبادئها وأحكامها وتوجيهاتها(١).

إن تنوع الموضوع ووحدته، في القرآن الكريم، وتعدد القضايا فيه، والتحدث عنها بأساليب مختلفة، تهدف إلى غرض واحد، جعل ظاهرة التفسير الموضوعي لدى المدرسة تتخذ أشكالًا ثلاثة:

الأول: إفراد موضوع بعينه، أو المواضيع الكبرى التي تتناولها السورة، بزيادة تحليل وتوضيح ومقارنة في إطار تفسير شامل للقرآن الكريم، وذلك إما في مقدمة السورة أو في خاتمتها؛ مثل صنيع رشيد رضا في « تفسير المنار » وسيد قطب في ظلاله، وقد تجمل مواضيع السورة الرئيسية في آخر تفسيرها على هيئة خلاصة مركزة كنهج المراغي أحمد مصطفى(٢) صاحب التفسير الكامل للقرآن الكريم. وتتم هذه الأعمال بحثًا وإثباتًا للتناسق والتناسب بين سور القرآن وآياته، والمواضيع والقضايا التي تعالجها. وتحقيقًا للأوامر والنواهي الاعتقادية والعملية، وإظهارًا لبعض أوجه الإعجاز القرآني « فالسورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد، يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضًا ببعض في القضية الواحدة »(٣).

الثاني: اختيار سورة بعينها؛ لأنها تعالج موضوعًا واحدًا أو مواضيع متعددة، يرتئي المفسر توضيحًا لأهميتها في واقع الأمة المطروح للمناقشة، قصد حل إشكال، أو رفع شبهة، أو تصحيح مسار، في إطار ما يشغل بال الأمة، ويستقطب اهتمام مفكريها. وهذا النوع من الدراسات كثير جدًا، **نمثل له بـ:**

- تفسير سورة العصر، تفسير جزء عم، وكلاهما للشيخ محمد عبده(٤).

---

(١) ن. القواعد النظرية وتطبيقها على سورة البقرة في كتاب: « النبأ العظيم » (ص ١٥٨ - ١٦٣).

(٢) أحمد بن مصطفى المراغي المصلح المفسر الأصولي الأديب، تخرج في دار العلوم بالقاهرة ثم درّس بها وبالخرطوم، توفي بالقاهرة (١٣٧١هـ) من آثاره: تفسير القرآن، المعروف بتفسير المراغي. انظر: معجم المفسرين (١/ ٨٠) والأعلام (١/ ٢٥٨).

(٣) النبأ العظيم (ص ١٥٩).

(٤) ن. أعلام الدراسات القرآنية (ص ٣١٢).

- تفسير سورة الفاتحة: لنفس المؤلف ومشاركة تلميذه رشيد رضا[(١)].
- تفسير سورة لقمان وسورة العصر: للشيخ محمد مصطفى المراغي[(٢)].
- تفسير سورة تبارك: لعبد القادر المغربي[(٣)].
- تفسير سورة النور: لأبي الأعلى المودودي[(٤)].

الثالث: جمع الآيات الواردة في موضوع واحد، من مختلف سور القرآن ثم تصنيفها، واستنتاج الأحكام العملية والمفاهيم التصورية الاعتقادية. وعلى هذا المنوال نسج العديد من الدارسين للقرآن الكريم، في ضوء تصحيح المفاهيم، ودحض الشبهات وتقديم البديل الإسلامي للنظم البشرية المهترئة. ومن هذه الدراسات:

- القرآن والمرأة، القتال في القرآن: لشيخ الأزهر شلتوت.
- المرأة في القرآن، الإنسان في القرآن: للأستاذ محمود عباس العقاد.
- دستور الأخلاق في القرآن: د. محمد عبد اللّـه دراز.
- آية البر من آيات القرآن الكريم: عباس الجمل.

إلى غير ذلك مما حفلت به الدراسات القرآنية والتفسيرية في هذا المنحى، الذي كان له عظيم الأثر في رسم المعالم المؤسسة لمنهج الإسلام في التجديد والتحديث، وفي إيجاد صحوة العودة إلى الإسلام من جديد، والبعد عن تشاكس المناهج البشرية الداعية إلى التطاحن من أجل الهيمنة على العالم.

وهذا النمط من الدراسات القرآنية له من الأهمية في حياة المسلمين المعاصرة، ما يجعل وجود التفاسير الكاملة على النسق المألوف غير مغنٍ عن الدراسات الموضوعية[(٥)]؛ لأن العناية بموضوع واحد وتقصي كل جوانبه، يتيح للدارس فرصة جمع شتاته والاطلاع عليه في كل مظانه، والخروج من كل ذلك بنتيجة حاسمة، ويفسح المجال « للدارسين في شتى التخصصات ليحاول كل منهم تجلية ما يتعلق

---

(١) ن. معجم الدراسات القرآنية (ص ١٤٩) ومشكلات القرآن الكريم (ص ٧).
(٢) انظر: نفس المصدر (ص ١٥١).
(٣) ن. ن.م (ص ١٤٨).
(٤) هذا المؤلف وغيره من المؤلفات في نفس السياق مطبوعة ومتوافرة.
(٥) ن. الصبر في القرآن الكريم (ص ٧).

باختصاصه من القرآن بصورة أعمق مما لو تناوله غيره »[١]. وهذا ما تنبه إليه شيخ المدرسة السلفية الحديثة في التفسير خاصة، فسجله في مقدمته للتفسير بقوله: « إن القرآن لا يحتاج إلى تفسير كامل من كل وجه، فله تفاسير كثيرة أتقن بعضها ما لم يتقنه بعضها الآخر، ولكن الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات »[٢].

ج - العناية بمقاصد القرآن:

المقاصد: جمع مقصد، وهو مصدر ميمي لـ « قصد » التي من معانيها استقامة الطريق وسهولته، والوسط بين الطرفين، والاعتماد والأم.

و القصد والقصيد: المراد، والأم[٣]، وهي معاني ومفاهيم تكون أهم ما أنزل من أجله القرآن الكريم، قال تعالى في معرض تعظيم شهر رمضان: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، لأن اللّه أوجب على نفسه « قصد السبيل »[٤]. والقرآن كله - تشريعًا وأخلاقًا، ترغيبًا وترهيبًا وقصصًا - هو قاصد ضبط التصرفات البشرية وتنظيم علاقاتهم الحضارية والعمرانية تحقيقًا للمقصد الجامع الذي من أجله خلق اللّه الخلق. عبادة اللّه وحده في إطار التعمير والعمران البشري.

وعليه، فإن مقاصد القرآن ما يريده اللّه بخطابه القرآني الموجه إلى عباده بواسطة رسوله محمد ﷺ.

ومقاصد القرآن الكريم في عرف بعض الدارسين القدامى هي: « أنواع الخطاب القرآني ودلالته من الناحية البيانية؛ من طلب، ونداء ومدح أفعال وذم أخرى... ومن أمثال في القرآن، وتكرار لبعض المواضيع... »[٥] أما عند مفسري المدرسة فهي ما يتغياه

---

(١) ن. الصبر في القرآن الكريم (ص ٧).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٢). ومما يفيد في هذا المجال كتاب: تفصيل آيات القرآن الكريم لمصنف فرنسي اسمه جول لابوم، ترجمه وعربه فؤاد عبد الباقي.

(٣) ن. مفردات الراغب واللسان: مادة: قصد.

(٤) قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ [النحل: ٩]. قال ابن عباس: يقول وعلى اللّه البيان، أي يبين الهدى والضلالة، ن. تفسير ابن كثير (٢/ ٥٦٤).

(٥) ن. الإشارة إلى الإيجاز (ص ٢٧٣).

الخطاب القرآني من المخاطبين على مستوى الفهم والتطبيق[١]، لصلاح دينهم ودنياهم.

وكان من دواعي التركيز والاهتمام بالمقاصد - وما زال - في عملية التفسير لدى المدرسة الهوة السحيقة التي حدثت بين القرآن، باعتباره منهجًا شاملًا لكل أبعاد الحياة البشرية، وبين الحال الذي عاشته وتعيشه الأمة، حين تجردت العقيدة من فاعليتها في النفوس وفقدت إشعاعها في كينونة الأمة « وصار الإيمان، إيمان فرد متحلل من صلاته بوسطه الاجتماعي... وأصبح المشكل هو كيف نشعر المسلم بوجود اللَّـه ونملأ به نفسه... »[٢] لنعيد إليه الثقة والفاعلية لهذه الغاية ألَّف رائد السلفية في العصر الحديث: الشيخ محمد ابن عبد الوهاب كتابه « فضائل القرآن » عندما عاين بألم شديد بُعد الناس عن مقاصد القرآن، فكتب في مقدمة تفسيره لسورة الفاتحة يقول: « اعلم أرشدك اللَّـه لطاعته... وتولاك في الدنيا والآخرة أن مقصود الصلاة وروحها ولبها هو: إقبال القلب على اللَّـه تعالى فيها... »[٣]. وهذا محاولة منه لتبيان مقاصد الشرع وتوظيفها في معالجة القضايا الاعتقادية التي استولت على كل تفكيره.

ولهذا الغرض تأسست مجلة « العروة الوثقى » يوم أن تأسست على يد باعثي السلفية في شكلها الشمولي - جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده - إذ لا تكاد تخلو ديباجة مقالاتها من آية تنعي على الأمة حالتها، وأخرى تشخص أدواءها، وثالثة تصف لها الدواء، ورابعة ترسم الطريق وتحدد الوسائل وتبين الغايات والمقاصد[٤].

وعلى هذا النهج سار رشيد رضا مقتفيًا أثر أستاذه محمد عبده ومتبعًا منهجه، لما جعل مقدمة التفسير - تفسير المنار - في هذا الاتجاه لأن « أكثر ما روي في التفسير المأثور أو غيره حجاب على القرآن، وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية.. فكانت الحاجة شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن، على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة »[٥].

ولئن كانت مقدمة « تفسير المنار » مأخوذة في عمومها من آراء وأقوال محمد عبده

---

(١) ن. مقدمة الوحي المحمدي، وسائر فصول الكتاب في هذا الاتجاه.

(٢) وجهة العالم الإسلامي (ص ٥٥).

(٣) ن. القسم الرابع من مجموعة مؤلفات محمد بن عبد الوهاب: التفسير... (ص ٤).

(٤) نماذج لهذا ترى في الصفحات (٤١، ٥٣، ٦٣، ٩٠) من « العروة الوثقى ».

(٥) تفسير المنار (١/ ١٠).

في التفسير نقدًا ومنهجًا، فإن رشيد رضا قد أنجز عملًا مستقلًا في مقاصد القرآن الكريم، ضمنه كتاب « الوحي المحمدي »، يتوجب علينا عرضه لمكانة مؤلفه في المدرسة ومكانة التأليف في العناية بمقاصد القرآن.

لقد قدم للحديث عن المقاصد بتمهيد أقام فيه الحجج على نبوة محمد ﷺ وعرف فيه الوحي وأنواعه، وأسلوب القرآن الكريم الخاص، والانقلاب الذي أحدثه في العالم، ثم قسم مقاصد القرآن فيه إلى عشرة أقسام:

الأول: في أركان الدين الثلاثة، الإيمان باللّـه - عقيدة البعث والجزاء - العمل الصالح.

الثاني والثالث: في أمور النبوة والرسالة، وأن الإسلام دين الفطرة والحجة والحرية.

الرابع والخامس: في وحدة الأمة بتبني التشريع الإسلامي لمزاياه العامة في التكاليف.

السادس والسابع: بيان أصول التشريع الدولية وقواعد الاجتهاد.. والإرشاد إلى الإصلاح المالي، حفظًا وتنمية وإنفاقًا، والحقوق المفروضة فيه.

الثامن والتاسع والعاشر: قواعد الحرب والسلم وحقوق النساء وتحرير الرقاب.

وهو في هذه المقاصد يعلل ويقارن ويستنتج، موضحًا كون القرآن مشتملًا على جميع ما يحتاجه البشر من الإصلاح الديني والسياسي والاجتماعي والمالي والحربي؛ مطيلًا في بيان المقاصد الأساسية بعض الإطالة؛ لأنها على حد تعبيره « مثار جميع الفتن والمفاسد التي يشكو منها عقلاء هذا العصر »[١].

وفي الجانب الغربي من العالم الإسلامي نجد مفسرًا سلفيًّا آخر قد جعل « مقاصد القرآن » غاية كبرى يجب أن تكون محط اهتمام وبحث كل من سلك مسلك المفسرين؛ إذ « بمعرفة المقاصد التي نزل القرآن لبيانها تستبين غاية المفسرين من التفسير على اختلاف طرائقهم، ويعلم عند مطالعة التفاسير مقادير اتصال ما تشتمل عليه بالغاية التي يرمي إليها المفسر، فيوزن بذلك مقدار ما أوفى به من المقصد ومقدار ما تجاوزه »[٢].

بل تتحول المقاصد عند الطاهر ابن عاشور في تحريره، إلى قواعد للتفسير لا بد من

---

(١) الوحي المحمدي (ص ٨).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٨).

حضورها في ذهن من يريد اقتحام ميدان التفسير[١].

ويقرر حسن البنا في مؤلفه « مقاصد القرآن » أنه « ليس المقصود من القرآن مجرد التلاوة أو التماس البركة. ولكن بركته الكبرى في تدبره وتفهم معانيه ومقاصده، ثم تحقيقها في الأعمال الدينية والدنيوية على السواء... »[٢] وللمصلح السلفي في الهند صديق حسن خان تفسير كامل للقرآن في عشرة أجزاء سماه: « فتح البيان في مقاصد القرآن »[٣].

إن مقاصد القرآن بالمفهوم الذي أخذه عند المدرسة السلفية - وهو مفهوم قرآني - قد أخذ حيزًا كبيرًا في الدراسات القرآنية. وحظي باهتمام زائد في تفاسير المدرسة لما للإفصاح عن المقاصد القرآنية من دور في ربط المسلم بما يريده منه الخطاب القرآني، وفي إعادة التوازن الاجتماعي إلى حياة الفرد والأمة، وفي إزالة التناقض الحاصل بين المسلم والإسلام. والمدرسة قد أخذت على عاتقها تحقيق ذلك.

د - العناية بالإعجاز:

الإعجاز[٤] القرآني هو « القصور عن الإتيان بمثل القرآن، ولو بأقصر سورة منه، إظهارًا لربانية مصدر القرآن وصدق نبوة الرسول ﷺ »[٥]. وربانية المصدر وصدق النبوة مقصدان أساسيان من مقاصد الإعجاز القرآني، يترتب عليهما الإيمان الواعي بكل ما في القرآن والعمل به عقيدةً وأحكامًا ونظامًا، ومدار الإعجاز في القرآن مبني على أسلوبه ونظمه وبيانه، إلى جانبها وجوه من الإعجاز الأخرى.. تتحدى الإنسان زمانًا ومكانًا في مضاهاة القرآن.

وعلى إثر القومة التي قامها علماء الإصلاح في تاريخ الأمة الحديث يبتغون رفع التحدي المذهبي والحضاري وإعادة الاعتبار والهوية إلى أمتهم، لم يجدوا أضمن

---

(١) لأن مقاصد القرآن الأصلية لا بد من معرفتها من طرف المفسر، ومن هنا تصبح شرطًا أساسيًا، لا بد من توفره في من يريد تفسير كتاب اللـه تعالى، ن. التفصيل في: التحرير والتنوير (١/ ٤٠) وما بعدها.

(٢) مقاصد القرآن الكريم (ص ٦).

(٣) مقدمة كتاب: نيل المرام من تفسير آيات الأحكام.

(٤) أصل العجز: المتأخر عن الشيء، وحصوله عند عجز الأمر.. وصار في التعارف اسمًا للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القدرة. مفردات الراغب، مادة: عجز.

(٥) مناهل العرفان (٢/ ٢٩٧).

ولا أقوم لعملهم الإصلاحي من العودة إلى القرآن الكريم لما فيه من عناصر التحدي المستمرة ومن خصوصيات الإحياء والتجديد؛ لأنه معجزة الإسلام الخالدة، عادوا إليه سيرًا على هدي السلف واقتفاءً لمنهجهم.

في هذا العود الأحمد، وجدوا أنفسهم أمام مشكلتين خطيرتين:

الأولى: التطور الثقافي والتقني، نتيجة التقدم الصناعي الذي أثر في العقل الإسلامي سلبًا وإيجابًا، فهو من جهة أسهم في توسيع أفقه وإثارة انتباهه إلى ما يجري حوله ويهدده حضاريًّا، ومن جهة أخرى أحدث شبهات عقدية، واتجاهات فكرية غريبة عن تصوراته العقدية، مما استدعى استجابة سريعة ومتطورة في مستوى حاجيات الأمة الثقافية والفكرية.

الثانية: ما كتبه المستشرقون عن الإسلام مستغلين كل أدوات النشر وخاصة ما كتب حول القرآن والسنة وشخصية الرسول ﷺ فقد تميزت هذه الجوانب الثلاثة في كتابات المستشرقين ببث روح التشكيك في النص القرآني وفي ربانية مصدره، وأثارت الشبهات حول رسول الإسلام، وحول النظم الإسلامية. زعزعة للإيمان، ونشرًا للإلحاد، وحسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق.

هكذا أصبح لب المشكلة لدى المصلحين من السلفيين: ما هو السلاح الأنجع لرد هجمة الاستشراق، ودحض الشبهات؟ وما هو الأسلوب المقنع للعقل الذي يفكر به العالم الإسلامي؟ هذا العقل الذي يريد إدراك ما يطمئن إليه من إعجاز القرآن على الوجه الذي يدحض شبهات العصر الناتجة عن سيطرة الفكر المادي؛ لأن الإعجاز البياني للقرآن الكريم - وإن كان قائمًا إلى يوم القيامة وله دور الزعامة والريادة في الإعجاز - أصبح غير كافٍ وحده لأجيال بعدت صلتها باللغة العربية، وضمرت ملكتها البيانية.

استجابة لذلك... أظهر علماء الإسلام، وجوهًا أخرى للإعجاز القرآني وظفوها في عملية نشل العالم الإسلامي من تحت أنقاض القرون، وأوحال التقاليد والعادات التي غرق فيها. كما وظفوها في عملية كنس العقلية الإسلامية ولوثات الجاهلية الحديثة، في سبيل إحداث إصلاح شامل وجذري للأمة، متخذين من الدراسات القرآنية وعلوم القرآن والتفسير، وتخصيص وجوه الإعجاز بالتأليف، وسائلهم الأولى

لتحقيق ما يهدفون إليه. وأذنوا في أذن « كـل مـن يطلـب الحـق بإنـصاف أن ينظـر في القرآن الكريم من أي النواحي أحب: من ناحية أسلوبه، أو من ناحية علومه، أو مـن ناحية الأثر الذي أحدثه في العالم وغير به وجه التاريخ، أو من تلك النواحي مجتمعة – على أن تكون له الخيرة بعد ذلك – أن ينظر إليه في حدود البيئة والعـصر الـذي ظهـر فيه، أو يفترض أنه ظهر في أرقى الأوساط والعصور التاريخية، هل يجد فيه إلا قوة شاذة تغلب كل مغالب.. ثم تنقضي الأجيال والأحقاب ولا ينقضي ما فيه من عجائب »[١].

لنجعل الحق مطلبنا، والعدل منهجنا، ثم ننظر في القرآن الكريم نرى وجوهًا شتى من الإعجاز فيه « لغته وأسلوبه ونظمه، علومه ومعارفه، قصصه وأخباره، وفاؤه بحاجات البشر في العقائد والاجتماع والتشريع والسياسة.. »[٢].

إن هذا التعدد في وجود الإعجاز يرجع إجمالًا إلى نواحٍ ثلاثة من الإعجاز القرآني، هي الإعجاز البياني والإعجاز العلمي والإعجاز التشريعي، إليها مرجع كل وجوه الإعجاز التي تميزت المدرسة بإبرازها والتحدي بها.

وقبل الحديث عن كل وجه من هذه الوجوه الثلاثة نرى أن نسبقها ببيانات أولية مهمة في قضية الإعجاز القرآني:

أولًا: أن التحدي الذي تضمنته آيات التحدي في القرآن إنما هو تحدٍّ بلفظ القرآن ونظمه وبيانه، وما عداه من وجوه الإعجاز الأخرى تابعة له؛ « لأن الناحية اللغوية هي التي وقع من جهتها التحدي بالقرآن جملة وتفصيلًا »[٣].

ثانيًا: أن أول من قصد بهذا التحدي هم العرب على ما كانوا عليه من فصاحة وبيان. والاطلاع على هذا الوجه يقتضي التضلع في علم اللغة.

ثالثًا: أن الإعجاز البياني مصاحب للقرآن، لا ينفك عنه « فهو تحدٍّ مستمرٌّ قائم إلى يوم الدين »[٤].

والمدرسة السلفية الحديثة لما هالها الهجـوم على الإسلام ومقدساته أبرزت الإعجـاز

---

(١) النبأ العظيم (ص ٧٩).
(٢) مناهل العرفان (٢/ ٣٣١)، ن. لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير (ص ٥٥).
(٣) النبأ العظيم (ص ٧٩)، ن. الظاهرة القرآنية (ص ٢٥) في تقديم محمود محمد شاكر.
(٤) الظاهرة القرآنية (ص ٣١).

القرآني بناءً على هذه البيانات، مستأنسة بعطاء السلف[١] في علم الإعجاز، لما لهم من فضل السبق والتوطئة، تبعًا لحاجات عصرهم وبيئاتهم الثقافية، وباشرت عملية إظهار الإعجاز القرآني بأسلوب خاص، يعكس سورة العقل والعصر الذي وجدت فيه، متأثرة بالحاجات التي ضغطت على الأمة. إدراكًا من تلاميذ المدرسة لأهمية المنهج في الوصول إلى الهدف.

١ - الإعجاز اللغوي:

يكاد لا يخلو أي مصنف من مصنفات تلاميذ المدرسة السلفية في الدراسات القرآنية من الحديث عن إعجاز القرآن اللغوي بالذات « للخصائص العليا التي تميز بها أسلوب القرآن ولغته ونظمه وبيانه والتي تحدى بها فأعجز أساطين الفصحاء، وأعيا مقاويل البلغاء وأخرس ألسنة فحول البيان من أهل صناعة اللسان »[٢] لأجل ذلك ألحّ مفسرو المدرسة على تعلم اللغة العربية، والتعمق في معانيها، واستكناه خصوصياتها وعناصر بلاغتها، وجعلوا من قواعد التفسير: العلم باللغة العربية لفهم المعنى المراد من النص القرآني، بل قالوا: « إن مفسر القرآن لا يعد تفسيره لمعاني القرآن بالغًا حد الكمال في غرضه ما لم يكن مشتملًا على بيان دقائق وجوه البلاغة في آيه المفسرة، بمقدار ما تسموا إليه الهمة »[٣].

والقرآن معجزة بيانية من جهة « بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ، من حصول كيفيات في نظمه، مفيدة معاني دقيقة ونكتًا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب... ومن جهة ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام، مما لم يكن معهودًا في أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسعه اللغة العربية »[٤].

والاستشهاد لعناية المدرسة بقضايا الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم بإمكاننا أن نجده في كل مؤلفات التفسير التي ألفتها، والدراسات القرآنية التي أبدعتها، ولكن تلك القضايا تتفاوت من دراسة إلى دراسة، ومن مؤلف إلى آخر.

---

(١) السلف هنا: بمعنى الماضي من علماء الأمة في مجال الدراسات اللغوية والبلاغية، دون نظر إلى المنهاج أو الاتجاه المسيطر والموجه للدراسة.

(٢) مناهل العرفان (٢/ ٢٢٨).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٠٢).

(٤) انظر: التحرير والتنوير (١/ ١٠٤).

ففي الوقت الذي يأخذ فيه الشوكاني في فتحه، وابن ناصر السعدي في تيسيره، وابن عبد الوهاب في السور والآيات التي فسرها، بالإشارة والتنبيه ببعض كلمات في مجال البيان اللغوي في وقفات عاجلة وفي آيات التحدي خاصة، نجد الإمام محمد عبده، وتلميذه رشيد رضا، وعبد القادر المغربي، ومصطفى المراغي(١)، وسيد قطب، وأبا الأعلى المودودي، قد أعطوا لهذا الجانب ما يستحق من البيان والإيضاح والمقارنة، وبيان الفروق لمن لم تستبن له بين الكلام الإلهي في بلاغته، والكلام البشري في هيئته. فإذا لم يستبن ذلك لذي عينين فإن الرافعي في « إعجاز القرآن » يشفي كل عليل، وسيد قطب في « التصوير الفني » يسكت كل متبجح ضليل، والدكتور دراز في « النبأ العظيم » وضع المنهاج وأجرى النموذج، فلم يبق للمكذبين الضالين من سبيل.

٢ - الإعجاز العلمي:

القرآن كتاب هداية وإعجاز، لهذا نزل وعلى هذا يدل، فهو وإن اشتمل على العلوم والمعارف فما ذلك إلا لهداية الخلق على الحق، « لا لرسم نظريات وقوانين تجريبية في العلوم والمعارف... بما أودع فيه من المعاني الحكيمة، والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن، وفي عصور بعده متفاوتة »(٢). وعلينا ألا نتجاوز بهذا الكتاب « حدود الهداية والإعجاز، حتى إذا ذكر فيه شيء من الكونيات فإن ذلك لهداية الخلق على الخالق. ولا يقصد القرآن مطلقًا من ذكر هذه الكونيات أن يشرح حقيقة علمية في الهيئة والفلك أو الطبيعة أو الكيمياء »(٣). لأن القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية.. كما يحاول بعض المتحمسين له، أن يلتمسوا فيه هذه العلوم، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يلتمسوا مخالفته لها(٤).

تلك النصوص على اختلاف مآخذها تصب في اتجاه واحد، هو وضع إطار نظري في صورة ضوابط تعصم مقتحم ميدان التفسير من التّقوّل على اللّه في كلامه. والجامع

---

(١) هو محمد بن مصطفى المراغي مصلح مفسر كاتب خطيب، تتلمذ على محمد عبده وتخرج في الأزهر وتولى مشيخته بالإسكندرية (١٣٦٤هـ)، ودفن بالقاهرة، من آثاره: تفسير سورة الحجرات وغيرها، ن. معجم المفسرين (٢/ ٦٣٩).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٠٤).

(٣) مناهل العرفان (٢/ ٣٥٤).

(٤) ن. الظلال في تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، (١/ ٢٥٩).

بينها هو انتهاؤها للمدرسة السلفية الحديثة، مما يجعلنا نقول: إن منهج المدرسة في هذا الوجه من الإعجاز هو تسخير ما أشار إليه القرآن من حقائق علمية وعقلية في سبيل الهداية البشرية؛ « لأن القرآن الكريم كلام اللّـه، والكون خلق اللّـه، وحقائق الكون الموجودة فيه... لا بد أن تنسجم مع كلام اللّـه »[1] مع التحذير من تحويل القرآن - وهو كتاب هداية - إلى كتاب في الطب أو الهندسة، يطرق حتى جزئيات الموضوع وتفصيلاته،... كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين في العصر الحديث[2].

ولعل المسلمات التي نجدها في القرآن الكريم فيما يتعلق بالمواضيع العلمية البحتة، هي التي كانت وراء صياغة منهج المدرسة في مجال الآيات الكونية والعلمية. ومن هذه المسلمات:

أ - وفرة المواضيع العلمية التجريبية منها والنظرية؛ مثل قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ﴾ [الروم: ٤٧] وقوله سبحانه: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].

ب - الحقيقة العلمية في جوهرها لا تتغير، بل تتفق والحقيقة القرآنية؛ لما سبق تقريره من أن الكون خلق اللّـه، والقرآن كلام اللّـه، فلا يمكن أن يختلفا، وهذا ما عبر عنه ابن تيمية بـ« موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول »[3].

ج - وفرة الآيات التي تدعو إلى التدبر والنظر في القرآن الكريم.

د - الإشارة إلى استمرارية الإعجاز القرآني في مثل قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٢].

ما من شك في أن البيئة العلمية والعقلية التي وجدت فيها المدرسة، كان لها الدور الحاسم في تحديد معالم منهج التعامل مع الآيات الكونية، وهي تتحدث عن الإعجاز العلمي في القرآن، ولا سيما وأن بعض رجالاته كانوا قد انبهروا بالعقل التجريبي، وأن بعض مثقفي فترتها قد أخذ هذا العقل بلبابهم إلى حد الفتنة[4].

---

(١) القضاء والقدر للشعراوي (ص ١٢٢).

(٢) مثل: طنطاوي جوهري في تفسيره « جواهر القرآن ».

(٣) عنوان أحد مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٤) مثل: علي عبد الرازق في حاشيته: على كتاب « الإسلام وأصول الحكم » لمرغوليوث. وطه حسين في كتبه =

ومهما يكن فإن هذا المنهج يظهر واضحًا في كتاباتهم في التفسير، وفي دراساتهم لمثل هذه المواضيع؛ وخاصة فيما ألفوه في علوم القرآن. يقول الرافعي في إعجازه: « وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع، وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية... على أن هذا ومثله إنما يكون فيه إشارة ولمحة، ولعل متحققًا بهذه العلوم الحديثة، لو تدبر القرآن وأحكم النظر فيه... لاستخرج منه إشارات كثيرة تومئ إلى حقائق العلوم وإن لم تبسط من أنبائها،.. بلى وإن في هذه العلوم الحديثة على اختلافها لعَوْنًا على تفسير بعض معاني القرآن، والكشف عن حقائقه »[1]. هذا في المنهج.

وفي التطبيق نجتزئ من ظلال سيد في تعليقه على الآيات (٣٠، ٣١، ٣٢) من سورة الأنبياء قوله: « إن السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقتا، مسألة جديرة بالتأمل كلما تقدمت النظريات الفلكية في محاولة تفسير الظواهر الكونية، فحامت حول هذه الحقيقة التي أوردها القرآن الكريم، منذ أكثر من ثلاثمائة ألف عام، فالنظرية القائمة اليوم هي أن المجموعات النجمية... كانت سديمًا، ثم انفصلت وأخذت أشكالها الكرية،.. ولكن هذه ليست سوى نظرية فلكية تقوم اليوم، وقد تنقض غدًا وتقوم نظرية أخرى... ونحن – أصحاب هذه العقيدة – لا نحاول أن نحمل النص القرآني المستيقن على نظرية غير مستيقنة... إن القرآن ليس كتاب نظريات علمية... إنما هو منهج للحياة كلها، منهج العقل ليعمل وينطلق في حدوده، ولتقويم المجتمع ليسمع للعقل بالعمل والانطلاق »[2]. ثم يمضي في عرض مشاهد الكون الهائلة ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ [الأنبياء: ٣١] فيقرر أن (هذه الجبال الرواسي تحفظ توازن الأرض... ولنترك للبحوث العلمية كشف الطريقة التي يتم بها هذا التوازن... ولنكتف من النص القرآني الصادق، باللمسة الوجدانية والتأمل الموحي، وبتتبع يد القدرة المبدعة المدبرة لهذا الكون الكبير)[3]. منهج بمثل هذا الوضوح والفاعلية في فهم كتاب اللّـه تعالى: لا ينتجه إلا المنهج السلفي الذي قرر ومنذ الوهلة الأولى

= « الفتنة الكبرى » و « مستقبل الثقافة في مصر ». ن. مؤلفات في الميزان لأنور الجندي وهو يزن هذه المؤلفات.

(١) إعجاز القرآن (١٢٧، ١٢٨).

(٢) الظلال (٥/ ٥٣٠).

(٣) المرجع السابق (٥/ ٥٣١) (بتصرف قليل).

لبدء فهم الوحي في غياب المبين عن اللّـه. إن هذا القرآن جاء لهداية البشر، وفهم الهداية متوقف على نص من صاحبها، أو باللسان الذي جاءت به على طبيعته.

ونختم الحديث في الموضوع بعالم المدرسة في الغرب الإسلامي الطاهر ابن عاشور لما لتفصيله من أهمية، والإعجاز العلمي - عنده - ينقسم إلى قسمين: « قسم يكفي لإدراكه، فهمه، وسمعه، وقسم يحتاج إلى إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم. وكلا القسمين دليل على أنه من عند اللّـه؛ لأنه جاء به أمي في موضع لم يعالج أهله دقائق العلوم »[1].

في هذا التقسيم يتحدث عن الإعجاز العلمي في تفسيره لقول اللّـه تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [البقرة: ١٦٤] قائلًا: « وقد قرر اللّـه في هذه الآية دلائل كلها واضحة، من أصناف المخلوقات، وهي مع وضوحها تشمل على أسرار يتفاوت الناس في دركها.. ولعل الآية تشير إلى ما يعبر عنه في علم الهيئة بالنظام الشمسي.. والآية في هذا الخلق « لقوم يعقلون » آية عظيمة لمن عرف أسرار هذا النظام، وقواعد الجاذبية التي أودعها اللّـه تعالى في سير مجموع هاته « السيارات، على وجه لا يعتريه خلل ولا خرق... »[2].

ذلك بعض مما ميز المدرسة في أوجه الإعجاز العلمي، اجتمع فيه المنهج والغاية والقصد، وقوفًا والتزامًا بقواعد المنهج السلفي في التفسير في العصر الحديث.

٣ - الإعجاز التشريعي:

من مقاصد القرآن، تنظيم حياة الناس بحيث تكون خاضعة لأمر الخالق، تصورًا وسلوكًا. وهذا يتطلب بالضرورة قواعد وقوانين ضابطة، معيارية لا تتحكم فيها الشهوات والنزعات، وإلا ضاعت إنسانية الإنسان في شريعة البشر القاصرة. والواقع الماثل أكبر شاهد... فرغمًا عما وصل إليه العصر من تقدم مادي تقني وما نتج عن هذا من وسائل ترفيهية تدخل في إطار ما سماه القرآن « بالتكاثر »، فإن الإنسان يعيش فيه قمة الجحيم، وصدق اللّـه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

وإبرازًا لحقيقة ارتباط المصالح العليا للإنسان بالتشريع القرآني، عمل المصلحون

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٢٧).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٢٨).

من السلف في العصر الحديث، على إظهار خصائص التشريع الإلهي في إطار رفع التحدي وإظهاره في وجه كل تشريع بشري، مهما كان مصدره، في محاولة مخلصة وجادة منهم لرد إنسان الفترة إلى ما كان عليه السلف الصالح من عز وصلاح في ظل التشريع الرباني.

وكان من دواعي الاهتمام بهذا الجانب ظهور العديد من النظريات القانونية في التشريعات المدنية والجنائية والأسرية والدولية... انبهرت بها الأمة أيما انبهار - وهي تفرك عينيها من أثر النوم الثقيل، وتفرك يديها من هول ما فقدت... « فلم يحدث أن فُصِلَ المسلمون عن أنفسهم في عصر من العصور، كما فصلوا في العصر الحديث.. بسبب الاستعمار العسكري والفكري الذي هاجم أرضهم وأفكارهم.. ولم يكتفِ بذلك حتى هاجمهم في لغتهم وثقافتهم، وصاغ منهم كائنات على صورته... فبينما تجدهم متمسكين في الغالب بالانتساب إلى الإسلام... إذ بك تجدهم يقاومون كل رجوع إليه، ويتمسكون بشريعة المستعمر ولغته وتفكيره »[(١)].

من أجل ذلك لم تكتفِ المدرسة ببيان وجه الإعجاز التشريعي في التفسير، وإنما ألفت مؤلفات صاغت فيها نظرية الإسلام في مجالات الحياة البشرية « النُّظم الإسلامية » إظهارًا للإعجاز القرآني، وإسهامًا في إيجاد البديل للنظم المستوردة مقرونة بوجه التحدي، ونمثل لهذا بـ:

- نظرية الإسلام وهديه - أسس الاقتصاد في الإسلام: أبو الأعلى المودودي.
- دراسات إسلامية - دستور الأخلاق في القرآن: د. محمد عبد اللّـه دراز.
- خصائص التصور الإسلامي - مقومات التصور الإسلامي - العدالة الاجتماعية في الإسلام: سيد قطب.
- الفرد والدولة في الشريعة الإسلامية: د. عبد الكريم زيدان.
- الإسلام وأوضاعنا القانونية: عبد القادر عودة.
- الإسلام عقيدة وشريعة: محمود شلتوت.

---

(١) دفاع عن الشريعة (ص ١٦)، وقد تحدث فيه مؤلفه عن الحالة التي تخلى فيها المسلمون عن إسلامهم، وكيف تسلل الغزو الفكري والعقدي والاجتماعي إلى النفوس ومنها إلى السلوك.. فإلى الاستسلام إلى شريعة المستعمر.

- مقالات من العروة الوثقى - ومجلة المنار. وكان الهدف منهما إيقاظ المسلمين عن طريق تنبيههم إلى هدي القرآن وما فيه من خيري الدنيا والآخرة.

أما على مستوى التفاسير فإن تفسير المنار والظلال، وتفسير سورة النور قد أبانت عن هذا النوع من الإعجاز أكثر من غيرها عند تفسيرها للآيات التي تتحدث عن التشريع. كما خصصت مصنفات علوم القرآن مباحث خاصة لذلك، كما هو الحال في « إعجاز القرآن » للرافعي و « النبأ العظيم » لدراز، و « مناهل العرفان » للزرقاني، حتى عُدّ الجانب الاجتماعي العام (القانون الضابط للسلوك الاجتماعي) من مميزات التفسير في العصر الحديث[1] وأصبحت مقولة محمد عبده التي يقول فيها: « إن التفسير الذي نطلبه هو فهم كتاب اللّـه من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة »[2]. هي شعار المدرسة؛ عليها تنسج التفاسير، حتى عصرنا الحالي.

وطلبًا للإيجاز يمكن حصر وجوه الإعجاز التشريعي « لدى المدرسة » في النقاط التالية:

أ - نزول القرآن منجمًا.. بعدًا بالناس عن الطفرة - المباغتة - وتيسيرًا لعملية التلقي، لتتم الاستجابة في ظروف نفسية إيمانية صادقة.

ب - مجيء القرآن على غير المعهود في تأليف القوانين والفنون من بناء تقسيمها وتبويبها على الموضوعات وسياق أبوابها سياقًا جافًا.

ج - تكرار ما يستحق التكرار من الأمور المهمة في حياة الناس، بأساليب متنوعة، حتى يجد التكليف الشرعي سبيله إلى النفوس النافرة والطباع العصبية.

د - مخاطبة العقول والأفكار والعواطف، والدعوة إلى إعمال النظر وطلب الدليل والبرهان.

هـ - ترتيب الأوامر والنواهي ترتيبًا يسع جميع الناس، على تفاوت استعدادهم ومواهبهم؛ إذ لا تكليف إلا بما يطاق...

و - مجيء القرآن بمطالب الروح والجسد جميعًا، دون طغيان أحدهما على الآخر، وبمطالب الدنيا والآخرة، عن طريق التزام تعاليمه وهدايته، وبالتيسير ورفع الحرج

---

(١) ن. التفسير والمفسرون (٣/ ٢١٣).   (٢) ن. تفسير المنار (١/ ١٧).

عن الناس، والحسم في كل قضية يمكن أن تتحول إلى مرض اجتماعي.

ز - استعمال أسلوب الترغيب والترهيب، وإثارة العواطف ومخاطبة العقول والفطر السليمة، في تداخل بياني معجز[١].

إن الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم قد وفى حاجة الناس وأسلوب تبليغهم حقه، فهو خطاب اللّـه تعالى « موجه إلى العالم بأسره » بغض النظر عن نوعية الناس وأصلهم، لتطهير نفوسهم وتهذيب أخلاقهم، وتوحيد مجتمعهم، واستبدال السطوة بالعدل والأخوة[٢]. ولن يتم هذا إلا في إطار تشريع صادر عن عليم خبير، بقضايا الناس وأحوالهم ونزعاتهم؛ وهذا ما حاولت المدرسة ترسيخه في الأفكار والنفوس، معتمدة على أسلوب القرآن ومقاصده.

***

المَبْحَثُ الثَّالِثُ: العناية بقضايا المجتمع:

أ - التحدي ورفع التحدي:

من مقاصد القرآن الكريم الكبرى، تقرير حقيقة العبودية للّـه تعالى، وتحقيقها على أرض الواقع، في مجتمع تؤدى فيه العبادة على الوجه الصحيح والصورة الكاملة. فإقامة المجتمع وفق شرع الإسلام واجب حتمي وأمر لا بد منه، لأن إقامته من أوامر الدين الواجبة التطبيق، وإقامة الدين لا تتم إلا بإقامته في النفس والمجتمع، هذا ما تؤكده عملية الهجرة النبوية الكريمة إلى المدينة المنورة وتزيده تأكيدًا بنود الاتفاق التي أبرمها رسول اللّـه ﷺ مع أهل يثرب في ظل القيام بالهجرة والاستقرار بيثرب[٣]

(١) ن. الوحي المحمدي (ص ٦١).
- مناهل العرفان (٢/ ٣٦١).
- إعجاز القرآن (ص ١٠٧، ١٠٨).
- دفاع عن الشريعة (ص ٩٩).
- تفسير المنار (١/ ٢٠٦).
- مبادئ أساسية لفهم القرآن (ص ٥٢، ٥٣).
(٢) دراسات إسلامية (ص ٢).
(٣) ن. سيرة ابن هشام (١/ ٤٤٢ - ٤٥٤، ٥٠١).

لتقوم للإسلام الدولة بكل مقوماتها القائمة على القرآن والسنة قيامًا كاملًا. ثم دبّ الوهن والضعف إلى الأمة بمقدار ما تخلت عنه من مبادئ دينها، حتى إذا انسلخت منه أو كادت - على مستوى الأمة على الأقل - أصابها ما حذر منه الرسول ﷺ في حديث القصعة[١]. يثبت هذا وقائع المسيرة التاريخية في حياة الأمة، ويشتد أكثر في واقع تاريخها الحديث، ولا سيما عند استسلام الإنسان في هذا الواقع إلى النبوءات البشرية، وإلى تشريعها القاصر. فلقد انتهى العالم الإسلامي في العصر الحديث إلى حالة مهينة، جردته من القوة النفسية والمادية؛ لأنه تلقى عن القرون الأربعة التي سبقت هذا العصر أثقالًا من الأدواء والمصائب، لم تمتحن أمة من قبلها بمثلها[٢]؛ مما أطمع فيه العديد من الدول الاستعمارية التي كانت تتوق إلى إيجاد أسواق لترويج منتجاتها وتزويد مصانعها بالمواد الخام؛ يدفعها حب السيطرة وروح الانتقام من العالم الإسلامي، فحددوا لذلك أهدافًا رئيسية، وقد صمموا على غزو العالم الإسلامي كان في مقدمتها : التبشير - الاستغلال - الاستعمار - وهي ثالوث تكاملي يغذي تحقيقه الفعلي الاستيلاء الكامل على الإنسان والعقيدة والأرض، ويسد كل منافذ النجاة.

حدثت نكبة الأمة بالاستعمار في شكله التكاملي، وإن بقيت بعض الدول الإسلامية خارج إطار الاستعمار المباشر مثل الدولة العثمانية في بيئتها التركية وإيران[٣]. فإن هذا لا يعدو الاستقلال الظاهري « لأنها لم تكن تملك من حقوق التصرف في سياستها.. ما تملكه الدول المستقلة... وكانت الدولة العثمانية هي محور المسألة الشرقية التي تتلخص في عبارة واحدة: تقسيم بلاد الشرق بين الدول التي أثبتت وجودها في ميدان الاستعمار والسياسة العالمية، روسيا، فرنسا، بريطانيا »[٤].

---

(١) عن ثوبان قال: قال رسول اللّـه ﷺ : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها ». قال: قلنا: يا رسول اللّـه أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: « أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، لينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن »، قال ثوبان: قلنا: وما الوهن؟ قال: « حب الحياة وكراهية الموت » أخرجه أبو داود (كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام). والإمام أحمد في المسند (٥/ ٢٩٨) عن ثوبان أيضًا.

(٢) موسوعة العقاد (٤/ ٥٦٨).

(٣) والمغرب أيضًا قبل الاستعمار الفرنسي أوائل القرن العشرين الميلادي.

(٤) موسوعة العقاد (٤/ ٥٨٠).

إذ ما أن أطلَّ القرن العشرون حتى نفذت الخطة باحتلال ما تبقى من البلدان الإسلامية ونشر الإرساليات التبشيرية النصرانية، وفتح المدارس للتعليم بمنهج غربي ومقررات استعمارية، ينفذه مستشرقون ورهبان في ثياب علماء؛ إدراكًا منهم أن التعليم خير وسيلة لتحقيق ما يهدفون إليه.

قيض اللّـه لهذه الأمة انبعاثًا إسلاميًّا جديدًا واجهت به التصدع الذي لحق بالمجتمع الإسلامي رفعًا للتحدي ومواجهة للأزمات. انطلاقًا من ذاتية الإسلام وانبثاقًا من قلب المجتمع الإسلامي؛ حيث « هيأ المنهج السلفي القرآني رجالًا بعثوا في الأمة القدرة على التطور والعودة إلى أصل الدين.. وإلى خصيصة الجماعة الإسلامية وهي الائتمار بالمعروف والتناهي عن المنكر »[1] لإعادة الأمة إلى سابق مجدها وربطها بهويتها فارتفعت في الجزيرة العربية والهند، ومصر والشام والغرب الإسلامي، وفي مناطق أخرى من عالم الإسلام أصوات تنادي بالعودة إلى الإسلام في أصليه: القرآن والسنة وسط ظلام الجمود والجبرية والتخلف، وتواجه النفوذ الأجنبي في صورتيه العسكرية والفكرية، وتؤسس مدارس فكرية توظف الدليل العقلي المنطقي، والدليل النقلي؛ القرآني والسني، لإزالة الانفصام بين الأمة ودينها ومن ثم مقاومة الدخيل على كل الجبهات.

فالدعوة الوهابية - وقد قامت على التوحيد - تأثرًا بالبيئة التي ولدت فيها « تمثل مقاومة لكل ظلم واستبداد وطغيان »[2] إلى جانب تصحيح الاعتقاد. والغرض الذي رامه صاحب « المنار » هو في جملته ما عملت على تحقيقه « العروة الوثقى » التي مثلت حركة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.. لتظهر الحركة السلفية الحديثة في منهج متكامل، تقيم الحجة على أن الإسلام نظام للحياة مع كونه دينًا به تتم الإصلاحات الاجتماعية، وبه تحارب التعاليم الضالة والمبادئ الفاسدة، والتفاسير الخاطئة لكل ظواهر الحياة.

والعمل نفسه، هو ما جاهد من أجل تحقيقه عميد المدرسة السلفية في الجزائر عبد الحميد بن باديس في دروس التفسير؛ حيث تحولت هذه الدروس إلى حركة

---

(١) انتصار المنهج السلفي (ص ١٠).

(٢) اليقظة الإسلامية (ص ٢٤٢).

جماعية هادفة مثلتها « جمعية علماء الجزائر »... إلى غير هذا من الحركات الإصلاحية النضالية التي عمت العالم الإسلامي؛ من القارة الهندية شرقًا إلى شمال إفريقيا غربًا.

ومهما كان الشأن في منهج الحركة السلفية حديثًا.. فإن قضايا المجتمع الإسلامي قد استولت على اهتمام رجالها، لما رأوه من فروق صارخة بين المجتمع الإسلامي والمجتمع الغربي المصنع، ولما ظهر من مدارس ومذاهب اجتماعية وتربوية لها مناهجها وأساليبها وأهدافها.

وهكذا فمنذ بداية اليقظة الحديثة في العالم الإسلامي عملت المدرسة على إصلاح القضايا الكبرى في المجتمع، رفعًا للتحدي، واضعة قضية العقيدة الأساس لكل إصلاح.

ب - الجانب الاجتماعي:

لقد اهتمت أول حركة إصلاحية وهي الحركة الوهابية، بالجانب العقدي، لأهمية حضوره في أي إصلاح، ولأن « الظروف كانت تقتضي الرجوع في الإصلاح إلى السلف أدراجًا؛ إذ لم يكن القيام بأي عمل في النظام السياسي أو الاجتماعي ممكنًا، قبل تحرير الضمائر »[١]. وما أن مازجتها دعوة الأفغاني المتشبعة بالفكر السياسي، حتى أصبح لزامًا على المدرسة السلفية الحديثة، الخوض في الحياة الاجتماعية، من هنا نجد محمد عبده بنى منهجه في تفسير القرآن على « إخضاع حوادث الحياة والمجتمع القائمة في عصره لنصوص القرآن، إما بالتوسيع في المعنى أو بحمل الشبيه على الشبيه، واعتبار القرآن جميعه وحدة متماسكة، لا يصح الإيمان ببعضه وترك البعض الآخر »[٢].

وكان الركن الثالث من أركان منهجه الإصلاحي « التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة؛ لأن هذا التمييز، هو الركن الركين الذي تقوم عليه حياة الناس الاجتماعية، وما أصابهم الوهن والضعف والذل، إلا بخلو مجتمعهم منه... »[٣].

---

(١) من تقديم مالك بن نبي لكتاب: ابن باديس حياته وآثاره (ص ١٠).

(٢) اليقظة الإسلامية (ص ١٣٣).

(٣) انظر: تاريخ محمد عبده (١/ ١٢) والركنان الآخران هما:

أ - تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب=

إن تلاميذ ابن عبد الوهاب لما أدركوا حاجة المجتمع الإسلامي إلى تطبيق نظم الإسلام في شؤونه الحياتية كتبوا يقولون: « من أكبر الأغلاط وأعظم الأخطاء استمداد الحكومات الإسلامية والجماعات والأفراد، نظمهم وقوانينهم المتنوعة من النظم الأجنبية، وهي في غاية الخلل والنقص، وتركهم الاستمداد من دينهم... »[١]، والحال « أن التطورات التي لا تزال تتجدد في الحياة والمجتمع، قد وضع لها هذا الدين الكامل، قواعد وأصولًا، يتمكن العارف بالدين وبالواقع من تطبيقها، مهما كثرت وعظمت وتغيرت بها الأحوال... »[٢]، وصار المجتمع وقضاياه الشغل الشاغل لمفسري المدرسة، فيه ينظرون وعنه يكتبون.

فتفسير المنار مثلًا تجد صاحبه قد صنف فيه السنن الاجتماعية، أخذًا من قصة طالوت وجالوت في سورة البقرة، مستنبطًا ذلك من أحداث القصة وما جرى فيها في صورة حوار، قاصدًا توعية الجمهور المسلم بهذه السنن، لإيجاد وعي جماعي محرك.

أولى هذه السنن: أن شعور الأمة بوجوب حفظ حقوقها وصيانة استقلالها، إنما يكون على حقيقته وكماله في خواصها.

الثانية: متى عظم هذا الشعور في نفوس خواص الأمة... فإنه لا يلبث أن يسري إلى عامتها.

الثالثة: أن من شأن الأمة الاختلاف في اختيار الرئيس الذي يكون له الملك عليها، والاختلاف مدعاة للتفرق، فيجب أن يكون هناك مرجع يقبله الجمهور لذلك لجأ الملأ... إلى نبيهم يوحد كلمتهم - أي الملأ من بني إسرائيل -.

الرابعة: أن الناس لا يتفقون على التقليد أو الاتباع فيما يرونه مخالفًا لمصلحتهم الاجتماعية.

الخامسة: أن الأمم في طور الجهل ترى أن أحق الناس بالملك والزعامة أصحاب الثروة الواسعة...

ثم يستمر في ذكر ما استنتجه من سنن اجتماعية، إلى أن وصل بها إلى أربع عشرة

=معارفه إلى الينابيع الأولى.

ب - إصلاح أساليب اللغة العربية.

(١) الرياض الناضرة (ص ١٤١). (٢) ن.م (ص ١٤٩).

سنّة، مستشهدًا على كل واحدة منها بآيات من القرآن الكريم في سور أخرى[١].

ويذكر الطاهر ابن عاشور أن « من مقاصد وأغراض القرآن سياسة الأمة، وهو باب عظيم في القرآن، القصد منه صلاح الأمة، وحفظ نظامها، لأن القرآن أنزله اللّـه تعالى كتابًا لصلاح أمر الناس كافة.. فكان المقصد الأعلى منه: صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية »[٢]. وفي هذا الإطار يضع المودودي نظرية اجتماعية مهمة تأسيسًا على قول اللّـه تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] مؤداها: « أن البشر كلهم سواسية؛ لأنهم من سلالة واحدة... وعليه، فلا فرق جوهري بين إنسان وآخر، والفرق إنما يأتي ويظهر لأجل أفكارهم أو أخلاقهم أو غاياتهم في الحياة »[٣].

على هذا الأساس الرباني يقوم بناء النظام الاجتماعي في الإسلام، وعليه يقرر صاحب الظلال أنه « لحقيقة الإنسانية ووحدة أصلها الذي أنشأها منه ربها، ولحقيقة قيامها على قاعدة الأسرة... نجد التشريعات العملية لتحقيق البناء التكافلي للجامعة الإسلامية، مستندة إلى ركيزة الربوبية ووحدانيتها... »[٤].

ومما نجده يبين هذه العلاقة: « التوجيه الموحي والتشريع المحدد لأصول حماية اليتامى في قول اللّـه تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ [النساء: ٢] ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ [النساء: ٢] ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ﴾ [النساء: ٦]. وفي حماية الإناث خاصة... وحفظ حقوقهن، في الميراث وفي الكسب وفي حقهن في أنفسهن، واستنقاذهن من عسف الجاهلية، نجد مثل هذه التشريعات الكثيرة الموجهة: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ [النساء: ٤] ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ [النساء: ٧] كما نجد آيات أخرى في تنظيم الأسرة وإقامتها على أساس ثابت من موجبات الفطرة، وحمايتها من تأثير الملابسات العارضة في جو الحياة الزوجية والحياة الاجتماعية »[٥].

والحديث عن المرأة والأسرة والبيت، على اعتبارها لبنات أساسية في بناء المجتمع،

---

(١) انظر: تفسير المنار (٢/ ٤٩٢) وما بعدها.
(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٨).
(٣) نظام الحياة في الإسلام (ص ٤١).
(٤) الظلال (٢/ ٢١١).
(٥) المرجع السابق (٢/ ٢١).

وعن عناية المدرسة بهذا الجانب نذكر بأعمال المدرسة في قضية المرأة، خاصة إثر الغزو الفرنسي لمصر الذي أتى على البقية الباقية من أمر الشرع في واقع الأمة الاجتماعي؛ حيث أخذت قضية المرأة صورة صراع بين الاتجاه الإسلامي السلفي والاتجاه اللبرالي التغريبي بزعامة خريجي الجامعات الغربية من البلدان الإسلامية، ممثلًا في كتاب قاسم أمين « تحرير المرأة » نظريًا وأعمال لطفي السيد عمليًّا[1]، هذه الأعمال بما فيها من سلبيات كان لها أثر مباشر في زرع الوعي بقضايا المرأة المسلمة... وذلك بما أحدثه من مقارنات بين الأوضاع الاجتماعية في أوروبا، وما ينبغي أن يكون عليه الفرد والمجتمع في المنظور الإسلامي.

وقضية المرأة بالذات في المدرسة أخذت الاهتمامات الأولى، بدءًا بمقارنة وضع المرأة في الجاهلية الأولى وما صارت إليه في ظل الإسلام؛ وانتهاءً بما توجد عليه المرأة في الغرب المسيحي وغير الديني من وضع مُزْرٍ. كل ذلك لإبراز الحقيقة الموضوعية من خلال القرآن؛ المتعلقة بهذا الشق من المجتمع الإنساني[2]. وذلك من خلال زوايا ثلاثة:

١ – صفتها الطبيعية.

٢ – حقوقها وواجباتها.

٣ – المعاملات التي تفرضها الآداب[3].

وعلى كلٍّ، فإن الجانب الاجتماعي قد حظي باهتمام كبير في أعمال المدرسة التفسيرية إلى درجة تخصيصه بمؤلفات مستقلة من بينها:

– « نحن والحضارة الغربية » – « النظام الاجتماعي في الإسلام » – « تحديد النسل » للمودودي.

– « دراسات إسلامية » – « الدين » – د. محمد عبد اللّـه دراز.

– « العدالة الاجتماعية في الإسلام » – « نحو مجتمع إسلامي » – « الإسلام ومشكلات الحضارة »: لسيد قطب.

(١) انظر تحليلًا مفصلًا للموضوع في كتاب: قضايا إنسانية في أعمال المفسرين (ص ١٨٩).

(٢) انظر على سبيل المثال (ص ٩٠ – ٣٨١ – ٤٢٢) من الجزء الثاني في تفسير المنار.

(٣) انظر: موسوعة العقاد (٤/ ٣٩٥).

هذه المؤلفات وما على شاكلتها، وأقوال مفسري المدرسة في تفاسيرهم فتحت الباب أمام مفكري الأمة في العصر الحاضر لينشئوا ما أصبح يطلق عليه اليوم « علم الاجتماع الإسلامي ».. وهو وإن لم تتكامل كل مقومات كونه علمًا قائمًا بذاته، فهو على وشك... وذلك في إطار ما صار يطلق عليه: أسلمة المعرفة.

ج - الجانب الاقتصادي:

« إن الإسلام أقام حدودًا ووضع أصولًا ليقر شؤون الإنسان الاقتصادية على قواعد الحق والصدق والعدالة والأمانة وقضى ألا يسير نظامها، ولا يعمل عمله؛ من دوران الثروة واكتسابها وإنفاقها؛ إلا في ضمن هذه الحدود المرسومة، ولا يحيد عنها أبدًا »(١).

بهذه العبارة التي رسمت الإطار العام للنظام الاقتصادي في الإسلام بدأ المودودي رسالته الرابعة في مؤلفه « نظام الحياة في الإسلام » الذي خصصه للدعائم الأساسية للحياة الاقتصادية في الإسلام، متحدثًا فيه عن طرق الاستثمار وصوره وما خلق اللَّـه من المتاع، لمصلحة عامة الناس في الأرض، للانتفاع به، بشرط أن ينتفع به هو أو يذره ليتمتع به غيره، مبينًا نظرية الإسلام في هذا الجانب المهم من حياة البشر(٢). ولأن المال عصب الحياة الدنيا وقوام الأمة(٣) فإن مفسري المدرسة قد أولوا هذا الجانب اهتمامًا كبيرًا، يوازي اهتمامهم بالقضايا الاجتماعية الأخرى، تقويمًا لمفاهيم خاطئة سادت المجتمع، وانعكس مفهومها السلبي على الفرد والجماعة، فتقاعس عامته عن طلب الوسائل الكفيلة بتحسين ظروف عيشه، فزادت هوة الانفصال بين حقيقة الإسلام وسلوك المنتسبين إليه. ثم ازدادت هذه العناية، لما شاهدوا سيطرة النظام الربوي على العالم، وسقوط العديد من الدول الإسلامية ضحية طغيانه واستفحال أمره.

والمتتبع لتفاسير المدرسة يجد أن أصحابها ما تركوا مناسبة قرآنية تتحدث عن الربا إلا وحاولوا فيها بيان الأضرار الاجتماعية والاقتصادية والدينية التي تلحق بالإنسان، بله الأمة الإسلامية، من جراء المعاملات الربوية. ولم يكتفوا ببيان الجانب الفقهي منها فقط، شأن

---

(١) نظام الحياة في الإسلام (ص ٥٧).

(٢) ومقسمًا ذلك إلى: نظام سياسي - ونظام اجتماعي - ونظام اقتصادي - ونظام روحي، والنظم الأربعة هي موضوع الكتاب: (نظام الحياة في الإسلام).

(٣) قال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾ [النساء: ٥].

التفاسير التي سبقت المدرسة زمنيًا.

- فالمراغي مثلًا يتحدث عن الربا في تفسيره لقول اللّـه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. فيقول: « الربا ضربان: ربا النسيئة، وربا الفضل: فالأول يكون بإقراض قدر معين من المال لزمن محدود... مع اشتراط الزيادة فيه، نظير امتداد الأجل، وهو المستعمل الآن في المصارف المالية، وهو الذي نص القرآن على تحريمه، والتعامل بهذا النوع من الكبائر »[(١)]. « وزعم كثير من المسلمين الذين ذهبوا إلى الغرب، بلاد المدنية والحضارة، ونهلوا من مناهل العلم هناك، أن تحريم الربا في الإسلام، هو العقبة الكؤود في مجاراة الأمم الإسلامية للبلاد الغربية في الثورة، التي هي مناط العزة والقوة في العصر الحديث، ويحتجون بأن المسلمين ما منوا بالفقر وذهبت أموالهم إلى أيدي الأجانب إلا بتحريم الربا... وهم يريدون بذلك أن الدين وقف عقبة كأداء في أهم مسألة عمرانية اجتماعية »[(٢)].

ونص المراغي هذا بالإضافة إلى كونه شاهدًا على اهتمام المدرسة بالجانب الاقتصادي في حياة الأمة.. فإنه من جهة أخرى يصور لنا مدى الصراعات التي كانت قائمة في تلك الفترة بين الاتجاه الإسلامي والاتجاه التغريبي، كما يوضح من جهة ثالثة استحواذ الاستعمار على خيرات الأمة، وإخضاعها له في أحوالها الاقتصادية، ومن ثم الجوانب الأخرى، مما زاد في انحطاط الواقع الاجتماعي للأمة كلها. يفسر أسباب هذا الخضوع المراغي نفسه في تفسيره بأن « المسلمين في هذا العصر لا يحكمون الدين في شيء من أعمالهم ومكاسبهم؛ إذ لو حكموه ما استعانوا بالربا، ولما جعلوا أموالهم غنائم لغيرهم، فإن كانوا تركوا الربا لأجل الدين، فهل هم تركوا الصناعة والتجارة لأجل الدين...؟ فالأمم جميعًا قد سبقتنا إلى إتقان ذلك، فلماذا لا نتقن سائر المكاسب لنعوض على أنفسنا ما فاتنا من الكسب المحرم، وديننا يدعونا إلى السبق في إتقان كل شيء »[(٣)].

ثم يكشف المفسر نفسه عن السر في انتشار هذا الوباء الاقتصادي الخطير، الذي انتشر في أكثر الأقطار الإسلامية في العصر الحديث والمعاصر، بكونه ناتجًا عن تقليد المسلمين لحكامهم وولاة أمورهم في هذا السبيل « فكثيرًا ما ألزم الحكام الرعية

---

(١) تفسير المراغي (١/ ٥٥). (٢) المرجع السابق (١/ ٥٦).

(٣) تفسير المراغي (٢/ ٥٦).

بالتعامل بالربا أداء للضرائب التي يفرضونها عليهم »[1] وتطور الأمر بعد ذلك « حتى دخل الإذن به في دائرة التشريع تحت ضغط السلطات الأوربية المحتلة للأقطار الإسلامية »[2]. « وصار أكل الربا كأنه ضرورة يفطرون عليها »[3].

- ويسوق صديق حسن خان في تفسيره لآيات الأحكام نصوصًا للسلف في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧] منها عن « إبراهيم النخعي[4] قال: « هو الذي لا يجيع ولا يعرى، ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف ». وعن يزيد بن حبيب[5] قال: أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا لا يأكلون طعامًا للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثوبًا للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة اللّه، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويقيهم الحر والبرد »[6]. وغالبًا ما يكتفي بذكر ما اختاره من أقوال السلف في تفسير الآية وبيان الحكم الذي جاءت به؛ لذلك، لم يزد على ما قالوه في هذه الآية.

وإذا ما اعتبرنا آيتي المداينة (٢٨٢ - ٢٨٣ من سورة البقرة) في هذا المجال، باعتبار أنهما تعالجان الجانب المالي في الإسلام، وجدنا مفسري المدرسة قد أولوهما عناية كبيرة، لما لهما من دور في إقامة المجتمع على أسس تعاملية، تسد كل الثغرات في وجه العابثين بالقيم الإنسانية، حفظًا للمجتمع من التفكك.

- وقد صاغ تفسيرهما صاحب « التفسير الحديث » محمد عزة دروزة على شكل بنود مرقمة إمعانًا في التوضيح فقال: « في الآيتين تعليمات للمسلمين بما يفعلونه في ظروف الدين والبيع:

١ - عليهم إذا تداينوا بدين إلى أجل معين أن يكتبوا بالدين وثيقة.

---

(١) نفس المصدر (٢/ ٥٧). (٢) دراسات إسلامية (ص ١٥٤).

(٣) تفسير المراغي (٢/ ٥٧).

(٤) أبو عمران إبراهيم بن يزيد، فقيه العراق من التابعين (ت: ٩٦هـ)، ن. تذكرة الحفاظ (١/ ٧٣، ٧٤) وتقريب التهذيب (ص ٢٤).

(٥) أبو رجاء يزيد بن أبي حبيب الأزدي الفقيه هو أول من أظهر العلم (ت: ٢٨هـ)، ن. تذكرة الحفاظ (١/ ٢٩)، وتقريب التهذيب (ص ٣٨١).

(٦) نيل المرام من تفسير آيات الأحكام (ص ٣٦٣).

٢ - وعلى الكاتب أن يكتب الوثيقة بالحق، ولا يجوز له أن يمتنع عن كتابتها.

٣ - ولا مانع من عدم تدوين المعاملة التجارية إذا كانت فورية.

٤ - وعلى المؤمنين على كل حال أن يتقوا اللّـه ويراقبوه فيما يقوم بينهم من معاملات »[١]. ثم يعلق على هذا النظام الإلهي المعجز، قائلًا: « فروعة التعليم والتشريع في الآيتين ظاهرة قوية لا تحتاج إلى إطناب، وقد روعي فيها تعليم المسلمين توثيق أمورهم التجارية وتوطيد الحق والعدل فيما بينهم... وبالتالي تلقيهم تنظيم أمورهم الدنيوية على الوجه الذي يكفل لهم الطمأنينة والثقة وعدم النزاع[٢]؛ لأنه من الحقائق الواضحة في النظام الاقتصادي الإسلامي: الربط بين كل جوانب الحياة الإنسانية، فهو يشمل الإنسان بكل أبعاده ويضبط كل نزعاته ويتوج القرآن الكريم تعليماته الربانية بالأمر بالتقوى والتذكر والتدبر والتعقل، والتذكير بيوم المعاد[٣].

د - الجانب التربوي:

شكلت المدرسة السلفية الحديثة، بما أنتجته في ميدان التأليف، حصيلة فكرية وعلمية، غطت العالم الإسلامي كله، وتميزت هذه الحصيلة بالشمولية تبعًا لشمولية القرآن الكريم الذي جعلته المدرسة محور كل برمجة لأعمالها الإصلاحية؛ حيث المنهج التربوي المتكامل: « النظرية والتطبيق »، والنموذج العملي لذلك الرسول ﷺ في سيرته الذاتية، وفي أسلوبه في التربية والتبليغ، منهج أثمر أرقى تجمع بشري عرفته الإنسانية، مجتمع الصحابة ﷺ.

ولئن غابت أوليّات هذا المنهج وأولوياته، في صورة تصنيف ترتيبي محدد الوسائل، في الأعمال الأولى للمدرسة، فإن « أعمال محمد عبده في العشرين عامًا التي قضاها بعد جمال الدين الأفغاني (١٨٨٦ - ١٩٠٥م) قد تميزت بتحويل منهج الأفغاني من منهج سياسي إلى عمل تربوي ثقافي[٤] سار عليه تلميذه رشيد رضا في ترقية التعليم وإصلاح

---

(١) بتلخيص من التفسير الحديث (١/ ٤٠٧، ٤٠٨).

(٢) التفسير الحديث (١/ ٤٠٩).

(٣) كقوله تعالى: بعد النهي عن أكل الربا: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠]. وكقوله تعالى في آخر آية المداينة: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

(٤) اليقظة الإسلامية (ص ١٣٠).

الكتب المدرسية، كما كان هذا الطابع واضحًا في تفسير عبد العزيز جاويش للقرآن الكريم، وفي مجالس التذكير لابن باديس وغيرهما ممن تأثروا بسلفية محمد عبده في ثوبها المنسوج بفكر جمال الدين الأفغاني، وسلفية رشيد رضا التي جمعت بين هذين الرجلين إلى جانب تكوينه في علوم الحديث ونقده. وتشبعه بدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب، ومن هنا وصف سياسة الإصلاح لدى كل من الأفغاني ومحمد عبده بأنها: « تجديد سياسي وعلمي »[١]، ثم عبر عن رأيه في هذه السياسة قائلًا: « وكل منهما ضروري لا بد منه: الإصلاح والتجديد عن طريق السياسة، والإصلاح والتجديد عن طريق التعليم والتربية »[٢] وهذا إدراك من المدرسة، للغاية المتوخاة في التربية الإسلامية، الهادفة إلى إيجاد الإنسان الصالح.

ولأهمية الدور التربوي والتعليمي والحاجة إليه، كان أحد دروس الإمام محمد عبده - وقد حضر تونس للاطلاع على أحوال المسلمين - في تحديد مفهوم العلم والتعليم؛ لأنه وجد « عند الأغلب اشتباهًا فيما هو العلم الذي ينفق الوقت في تحصيله؟ ملاحظًا في نفس الوقت القاسم المشترك بين بلاد المسلمين وهو (مسألة الرضا بالموجود) - حسب تعبيره - والتي لها تعلق بالتعليم، فإذا ذكرت نقصًا أو عيبًا في طريقة أو حالة من الأحوال قيل لك: ماذا نصنع ونحن أناس متوكلون على اللّه »[٣].

وعلى منهاج السلف حدد لهم معنى العلم ممهدًا لذلك بقوله: « إن الغرض من الكلام في معنى العلم ليس الخوض فيما اصطلح عليه علماء السلف الصالح أو غيرهم. فهذه الألفاظ اصطلاحية حددوها لتنضبط بها المعاني »[٤]؛ ولذلك تركها وتكلم في معنى العلم من حيث هو معروف في الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، وعلى لسان العامة والخاصة وهو: « ما يبصر الإنسان في الغاية التي يطلبها ويهديه إلى الحق الذي هو معقد النجاة لقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢]. ولم يقل للجاهلين أو الغافلين »[٥]. ثم ذهب متحدثًا عن العلوم الإسلامية، وأسهل الطرق لتعليمها

(١، ٢) تاريخ الإمام محمد عبده (١/ ٩٧٤).
(٣) دروس من القرآن الكريم (ص ١١٩، ١٢٠).
(٤) دروس من القرآن الكريم (ص ١١٩).
(٥) المرجع السابق (ص ١٢٠).

محددًا هذا في المعاناة ومكابدة مشقة العمل في صناعتها والغاية منها.

ونبقى مع محمد عبده في هذا المجال، لدوره المؤسس في المدرسة في هذا الاتجاه بما أنجزه في كتابه: « رسالة التوحيد » الذي ألفه وهو في بيروت « لما استقر رأيه على أن الإصلاح الاجتماعي والسياسي محصور في إحياء لغة الأمة وإصلاح نفوسها بالتربية الصحيحة والتعليم النافع »[(١)] إثر تدريسه بالمدرسة السلطانية في بيروت؛ حيث رأت أن المؤلفات في فن التوحيد قد لا تأتي على الغرض من إفادة التلاميذ، وأن من الأليف إملاء ما هو أمس بحالهم... في أسلوب لا يصعب تناوله، وإن لم يعهد تداوله[(٢)].

وعليه يمكننا القول: إن منهاج المدرسة التربوي بدأ يتبلور في أعمال محمد عبده تأليفًا وتدريسًا وأخذًا بالمفهوم المعاصر للتربية؛ فقد كانت دروسه في الأزهر بناءً جديدًا للعقائد على أساس البراهين القطعية وتجديدًا لما بلي من سائر العلوم العقلية، وكانت حلقته... واسعة جدًّا، تحيط بأعمدة كثيرة، وكان يقرأ في بيته درسًا في الأخلاق أو السياسة لطائفة من المجاورين »[(٣)]. وذلك في عصر كان فيه الأزهر على حالة من الركود، لا يتيسر معها أي عطاء علمي نافع، مما أبعد الطلبة عن تذوق العلم واستيعابه والتأثير به على النفوس تقويمًا وإصلاحًا[(٤)].

وفي هذا الصدد، وقد تحقق محمد عبده أن صلاح الأمة في أخلاقها ومقوماتها الجوهرية لا يكون إلا بإصلاح مؤسساتها العلمية، والأزهر يومئذ على أسوأ حال، لا مكتبة جامعة، ولا مالية منظمة، تقدم بجملة مشاريع تربوية الغاية منها علاج الأمراض التربوية التي كانت تعاني منها الأزهر المؤسسة العلمية، وأهم هذه المشاريع:

١ - إحياء العلوم التي أهملت، وتقويم العلوم التي ضعفت؛ كالتوحيد والحديث والرياضيات...

٢ - اختيار أمهات الكتب وقيامه بتدريس العلوم المهمة؛ كالتفسير والبلاغة..

٣ - تهييء امتحانات للمسابقة، تسهيلًا للامتحانات الرسمية، وفك قيود امتحان العالمية...

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ١٣٣).

(٢) ن. مقدمة رسالة التوحيد (ص ١٥).

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ١٣٥).

(٤) ن. دراسات إسلامية (ص ١٧٧).

٤ - إنشاء المكتبة الأزهرية، وإصلاح مجلس الأزهر الإداري وإصلاح بعض المعاهد وإنشاء معاهد أخرى(١).

هذه المشاريع التربوية المهمة انعكست آثارها الإيجابية على الحركة العلمية في العالم الإسلامي عامة، يعبق ريحها الطاهر ابن عاشور فيجعل من مقاصد القرآن الكريم: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين وما يؤهلهم لتلقي الشريعة ونشرها... لأن القرآن الكريم حثَّ على تعليم حكمة ميزان العقول، وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضالين، وفي دعوته إلى النظر، ثم نوَّه بشأن الحكمة فقال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وهذا باب انبجست منه عيون المعارف وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم(٢).

وإعطاء الشيخ محمد عبده هذه المكانة في القضايا التربوية، لا تلغي بحال الجهود التربوية الميدانية أو التأليفية التي بذلها ممثلو المدرسة في أنحاء شتى من العالم الإسلامي(٣) وإنما لدوره الريادي في التأليف والإصلاح العملي المباشر، في مناهج التدريس ومؤسساته، اعتبارًا بالأزهر... فالقضايا التربوية كانت الشغل الشاغل لرجالات المدرسة، يهدفون من ورائها إلى إعادة تشكيل المجتمع المسلم في ظل مبادئ القرآن والسنة، ومن ثم الاختلاف في الأسلوب والوسيلة الكفيلين تربويًّا بتحقيق الهدف.

هذه التصورات ازدادت وضوحًا وتوحدًا عند تلاقح الأفكار وإعادة النظر تصحيحًا للمنهج في ظل التحديات التربوية الآتية من الغرب وتقويمًا لما بلي، أو لم تثبت فعاليته التربوية.

نأخذ نموذجًا لهذه الاهتمامات الفاضل ابن عاشور في كتابه: (أليس الصبح بقريب) الذي يعد صيحة مشعرة بما كانت تعانيه الأمة وبما كانت تنتظره من نور يبدد ظلام التخلف والاستعمار بكل مظاهره.

فمن خلال عنوان الكتاب ومقدمته التي يتحدث فيها عن سبب تأليفه، يظهر مدى

---

(١) المرجع السابق (ص ١٧٤). (٢) ن. التحرير والتنوير (١/ ٤١).

(٣) تلك الجهود تمثلت في الحركات الإحيائية والتجديدية والنهضات الاجتماعية والاستقلالية التي ظهرت في الهند والجزيرة العربية ومصر والشمال الإفريقي. تحدثنا عن مظاهرها في مدخل الفصل الثاني: (الإحياء والتجديد في العالم الإسلامي).

الوعي التربوي الذي ساد الفكر السلفي في بدايات القرن العشرين وخاصة في مجال التعليم والتعلم.

يقول الفاضل معبرًا عن ذلك: « إنه التفكير في طرق إصلاح تعليمنا العربي والإسلامي الذي أشعرني مدة مزاولته متعلِّمًا ومُعلِّمًا بوافر حاجته إلى الإصلاح الواسع النطاق... خدمة للملة، وتهيئة للنشأة العلمية التي تزين مستقبلنا وتمجد ماضينا... لأننا في أشد الاحتياج إلى العلم بوجوه استقامة الاشتغال، وهي المراد من التعليم، ليكون المتعلم بذلك راضيًا عن نفسه، واثقًا بحصول مبتغاه من عمله... ناهيك بما يجد المتعلم من الابتهاج، بما يبينه للمتعلمين من الحقائق وما يعالجه من إنشاء أمة مستقلة... هذه هي منافع العلوم الحاجية التي تدعو إلى معرفتها حاجة الحياة الاجتماعية »(١).

إنه الإدراك التام لحاجات الأمة الضرورية والمرحلية، في عصر لم تكن فيه الأمة تدري أي وجهة تتخذ؟ ولا تدري كيف تتخذ هذه الوجهة(٢).

وابن عاشور يقرر في إطار توضيح الغايات التي تحصل من وراء مزاولة التعليم أن أعظم وأسمى غاية... هي إنتاج قادة للأمة في دينها ودنياها، وهداة هم مصابيح إرشادها ومحاصد قتادها... جاعلًا صلاح التعليم من أهم مميزات الأمم، وأقدم تعاليم البشر، هي الأديان التي أرشدهم اللّه بها إلى ما فيه الصلاح... وأن التعليم الصحيح يرمي إلى إنشاء أرقى أصناف الناس من كل من تمرس بالأشغال والأعمال(٣).

ويوم أن تأسست « الجمعية الخلدونية »(٤) في تونس، لم يكن الهدف منها إلا

---

(١) أليس الصبح بقريب (ص ٥).

(٢) اللهم ما كان قد أحدثته حركة محمد عبده، ورشيد رضا في إطار فكر الأفغاني، وبعض الومضات هنا وهناك من العالم الإسلامي، وهذه منها ولكنها أعمق وأكثر إدراكًا.

(٣) ن. أليس الصبح بقريب (ص ٦، ٧).

ومما يميز هذا المؤلف بالنسبة إلى عصر تأليفه، حديثه عن أطوار التعليم في الأمة العربية قبل الإسلام، وفي الأمم المعاصرة لها وعند ظهور الإسلام. والأطوار التاريخية للتربية، مع وصفه للأساليب والمناهج والطرق التربوية وواقعها في الأقطار الإسلامية، بانيًا على هذا الوصف الدعوة إلى إعادة النظر في التأليف وتهذيبها ومشيرًا إلى أسباب التأخر لتفاديها.

(٤) جمعية علمية تأسست عام (١٣١٤هـ)، ن. أليس الصبح بقريب (ص ١٠١).

« تكميل ما يحتاج إليه أهل ذلك العصر من العلوم الفكرية الخارجة عن العلوم الأصلية والعلوم الآلية... وفي حفل التأسيس ألقى الأستاذ بوحاجب[١] درسًا منطلقًا من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] مبينًا أن عمران الأرض منوط بتدبير الإنسان؛ حيث جعله اللّـه الخليفة فيها، وركب فيه العقل الذي هو الآلة الوحيدة لذلك التدبير »[٢].

والحاصل أن المدرسة قامت بجهود تربوية تنظيرًا وسلوكًا، أسهمت بشكل فعال في إعادة بناء الأمة في العصر الحديث، وهذا ما ميزها وأعطاها نعت الظاهرة الإحيائية الإسلامية (في الأدب السياسي والاجتماعي العربي، لتشير إلى ظاهرة العودة إلى الإسلام، باعتباره نسقا كليًا يتضمن أنساقًا فرعية قادرة على مواجهة متغيرات العصر، بكل أنماطها وتفاعلاتها، باعتبارها نموذجًا كاملًا وأصيلًا للتطور الحضاري للمجتمع[٣].

وما زالت المدرسة تسعى جاهدة لإيجاد هذا البناء في شكل مؤسسات اجتماعية حضارية، وفق نظم الإسلام في الاقتصاد والسياسة والاجتماع، والتربية، والأخلاق...

***

ٱلْمَبْحَثُ ٱلرَّابِعُ: اعتماد القرآن في إعادة بناء الأمة:

الإنسان هو القضية الأساس في الإسلام، فهو المقصود بالخطاب القرآني وإرسال الرسل ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]، وذلل إليه ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه...[٤] وإنسانيته وما تميزت به من خصائص، كانت هي مناط التكليف والاستخلاف والتكريم والتفضيل، ومقتضى هذا التكريم، هو إسلام النفس وكل شؤون الحياة للخالق المسخر المتفضل، تأليهًا وتوحيدًا، وربوبية، ولأجل ذلك حوت الرسالة الخاتمة كل عناصر الاستمرارية والإصلاح، في

---

(١) سالم بن عمر بوحاجب أستاذ مشارك في شتى العلوم تولى الفتيا والشورى وله دور في الإصلاح الحديث (ت: ١٣٣٧هـ)، ن. شجرة النور الزكية (ص ٤٢٦، ٤٢٧).

(٢) أليس الصبح بقريب (ص ١٠٣).

(٣) الفكر التربوي الحديث (ص ٦٨).

(٤) قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣].

﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١]. « فيه من الأصول والقواعد الدينية والاجتماعية والسياسية... ما يتوقف على اتباعها صلاح البشر »[١] كتاب هز عروش الطغيان، وبعث أمة من موتها الاجتماعي وأعاد بناء نفوس كان الاستعباد والقهر قد هدها هدًّا، ولتضمنه قواعد الصلاح والإصلاح، وأصول الكرامة البشرية على امتداد تاريخها، كانت معجزته متحدة مع منهجه، فالقرآن هو المنهج وهو المعجزة... به يرفع اللّـه من تمسك بهديه، ويضع من حاد عن نهجه[٢].

وأقرب واقع تاريخي لهذه الضعة، فترة الضمور والكلالة التي أسلمت فيها الأمة (مقادتها للدجالين والمحتالين... ولاذوا بالأضرحة والتوابيت وترتيل العزائم، ظنًّا منهم أن ذلك يغنيهم عن التدبير والاجتهاد)[٣]. فأذاقهم اللّـه: ﴿ مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ ﴾ [السجدة: ٢١] بتسليط عدوهم عليهم، فلم يجد ذوو الهمم من علماء الأمة المصلحين غير القرآن دواء لواقع الأمة المتردي، فراحوا يبتغون من آياته ما يحل مشكلات الأمة الحضارية.

ولعل سير المدرسة في هذا المنحى، هو ما جعل بعض المهتمين بقضايا التفسير في العصر الحديث ينعت هذه المرحلة بمرحلة التفسير التطبيقي « حيث نجد المفكر الديني معنيًّا بمواجهة قضايا عصره الاجتماعية والثقافية والحضارية، عناية بالغة »[٤] خصوصًا، وأن اللّـه ﷻ قد أودع ذلك في ألفاظ القرآن الكريم التي خاطبنا بها خطابًا بيانيًّا، وتعبدنا بمعرفة مراده والاطلاع عليه [٥]. وحفظه لنا من التغيير والتبديل والتحريف، لنرجع إليه في كل آن وحين.

ألم تر كيف صاغ المودودي المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم وكيف فسر سورة النور، وأخرج إلى الناس مجلة ترجمان القرآن... وكيف اتخذ الإمام « البنا » كل مواضيع رسائله من القرآن الكريم، منظرًا لجماعته وداعيًا إليها. ومن خلالها إلى الأمة

---

(١) الوحي المحمدي (ص ١).
(٢) عن عمر ﷺ قال: أما إن نبيكم ﷺ قال: « إن اللّـه يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين ». أخرجه مسلم في فضائل القرآن، باب من يرفع بالقرآن.
(٣) موسوعة العقاد (٤/ ٥٧٤) (بتصرف قليل).
(٤) قضايا إنسانية في أعمال المفسرين (ص ١٣).
(٥) التحرير والتنوير (١/ ٣٩).

الإسلامية، لتعيد النظر في علاقتها بالقرآن الكريم، إلى غير ذلك من مفسري المدرسة الذين جعلوا من العودة إلى القرآن الكريم لبناء الأمة، السمة المميزة للمدرسة السلفية الحديثة، عن كل الحركات الفكرية والتحررية التي واكب ظهورها ظهور المدرسة، باتسامها بالبعد عن منهج القرآن والاستسلام إلى المناهج البشرية في رفعها للتحدي الخارجي والداخلي.

وسيرًا في هذا الاتجاه، صدّر رشيد رضا مؤلفه: « تاريخ محمد عبده » بآيات كلها دعوة إلى بناء الفرد المسلم ونداء إلى استئناف حياة جديدة كريمة، مثل قوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥] وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠]...[1].

كما نبه في مقدمة تفسير المنار إلى الخطأ المنهجي الناشئ عن إغفال تربية القرآن بقوله: « قد شاهدنا – ولا نزال نشاهد – في بلادنا أن طلب العلوم والفنون مع إهمال التربية المصلحة للنفس، لم تحل دون استعباد الأجانب لنا... وإنما طرقنا هذا الباب لنذكركم أيها القارئون لهذه الفاتحة بوجوب فهم القرآن والاهتداء به »[2] وهذه الحقيقة هي ما يقررها صاحب الظلال بعد فترة من الحياة مع القرآن الكريم، يتفيأ ظلاله لحظة لحظة؛ حيث انتهى « إلى يقين جازم أنه لا صلاح لهذه الأرض، ولا راحة لهذه البشرية.. إلا بالرجوع إلى اللّـه، والرجوع إلى اللّـه له صورة واحدة وطريق واحد: إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج اللّـه، الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم[3].

وخدمة لهذا الاتجاه وتأكيدًا له في النفوس، أنجز كتابيه: « خصائص التصور الإسلامي » و « مقومات التصور الإسلامي »[4].

واعتماد المدرسة القرآن في بناء الأمة هو اعتماد أولي، وإلا فقد سخرت لهذا الموضوع ما صح من السنة باعتبارها مبينة للقرآن، وباعتبارها الأداة الأولى لفهمه. كما سخرت للغرض نفسه فهم السلف وهديهم وسلوكهم، للاستنباط والتطبيق في عملية

---

(١) ن. تصدير كتاب تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ص، ب).

(٢) تفسير المنار (١/ ٦، ٧).

(٣) الظلال (١/ ٨).

(٤) الكتابان مطبوعان بدار الشروق، ودار إحياء الكتب بالقاهرة.

صياغة منهج البناء، مواكبة لمستجدات الحياة. أعقب ذلك ظهور نفوس مؤمنة، استجابةً لنداء الفطرة وتحقيقًا لسنة التجديد، وشاهد إعجاز لفاعلية القرآن الذاتية في النفس الإنسانية، لتعيد بذلك بناء الإنسان المسلم كما يريده القرآن، واتخذت لغايتها القرآن، ومنهجه في بناء الفرد وفي بناء الأمة كما يتغياهما الإسلام.

ومنهج القرآن - في مثل هذه الحالة - أولياته العقيدة: إنباتها في النفوس من جديد أو إزالة المفاهيم الخاطئة حول « الربوبية والألوهية » أو إزالة ما أحال هذه العقيدة لدى معتنقيها إلى مجرد معرفة نظرية باردة، أو حوار كلامي، أو حفظ حاسوبي في الذاكرة.

لهذا كانت افتتاحية محمد بن عبد الوهاب الدعوية والتأليفية؛ تأليفه كتاب: « التوحيد » وكانت فاتحته قول اللّـه تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات: ٥٦] ثم قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] مردفًا هذا بالعديد من الآيات والأحاديث الصحيحة المتعلقة بموضوع العقيدة[(١)]؛ فقد وقر في ذهن المدرسة السلفية نتيجة منهجها المتميز أن: « إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح... أعظم سبب لإصلاح الخلق؛ لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك والدهرية »[(٢)]. فصحة الدليل وطهارة المقصد تقوِّمان كل انحراف يسقط فيه الإنسان. من هنا كان الهدف من التفسير عند المدرسة « فهم الكتاب، من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة »[(٣)].

***

(١) ن. كتاب التوحيد في أول موضوع فيه.

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٠).

(٣) الكلمة لمحمد عبده في مقدمة التفسير، نقلها عنه رشيد رضا في تفسير المنار (١/ ١٧).

الْبَابُ الثَّانِي

تفسير المنار نموذجًا للمدرسة

ويشتمل على مدخل تمهيدي وأربعة فصول:

الفَصْلُ الأَوَّلُ: **معالم التفسير السلفي في تفسير المنار.**

الفَصْلُ الثَّانِي: **رد الشبهات ومواجهة الفرق الإسلامية والمقاصد الضالة.**

الفَصْلُ الثَّالِثُ: **قضايا المجتمع في تفسير المنار.**

الفَصْلُ الرَّابِعُ: **الإصلاح في تفسير المنار.**

مدخل تمهيدي

تفسير المنار عمل مشترك بين الشيخ محمد عبده والتلميذ محمد رشيد رضا؛ فالمنهج نظريًّا وتطبيقًا لمحمد عبده، والفكرة والإخراج لمحمد رشيد رضا، مع مشاركة في التفسير، وتفرد كل منهما فيه بميزات في القدر المفسر، والمنهج العملي في التفسير[١].

واتخاذ هذا التفسير نموذجًا للمدرسة يوجب علينا تأكيد الصفة التي من أجلها جعلناه نموذجًا، وذلك من خلال ثلاثة عناصر: سلفية محمد عبده، سلفية رشيد رضا، وسلفية التفسير.

١ - سلفية محمد عبده:

لا يكاد يخلو أي مؤلَّف في الفكر الإسلامي أو في التفسير في العصر الحديث، من ذكر لهذا الإمام، تأريخًا له، أو استشهادًا به، أو نقدًا لبعض ما ذهب إليه، وفي ذلك تجدها تعرضت لسيرته الذاتية والعلمية، لذلك نرى:

- أن نعفي أنفسنا من الحديث عن سيرته إلا بقدر ما تدعو إليه الحاجة، وفي مكانها.

- عدم الخوض فيما خاضت فيه كثير من الكتابات، بين متهم ومبرئ ومهاجم ومنتصر له أو عليه، سالكين منهج حسن الظن به والاعتذار له مراعاة للظروف المعرفية والحياة العقلية التي اكتنفت عصره.

- أن نكتفي في بيان سلفيته بالنقل من « تفسير المنار » وقد نتجاوزه إلى بعض آثاره الأخرى وإلى ما كتبه عنه تلميذه محمد رشيد رضا؛ لأنه في نظرنا الرجل الذي توفرت فيه كل عناصر الشهادة له أو عليه.

---

(١) قال التلميذ في مقدمة التفسير: « اتصلت بالشيخ... وكان أول اقتراح لي عليه أن يكتب تفسيرًا للقرآن. فاعتذر بأن القرآن لا يحتاج إلى تفسير كامل، فاقترحت عليه أن يقرأ درسًا في التفسير » ثم كرر الأمر عليه حتى أقنعه، فشرع في قراءة التفسير في الأزهر سنة (١٣٠٧هـ). وانتهى سنة (١٣٢٣هـ) عند تفسير الآية: (١٢٥) من النساء، وكان التلميذ يكتب أثناء الدرس ثم بدأ النشر في مجلة المنار ثم جمع ما كان يكتب ليخرج لنا تفسير المنار ›ن. المقدمة في المجلد الأول (ص ١٢ - ١٦).

- أن الكثير مما انتقد عليه، سببه النظرة التجزيئية والتمسك بالعبارات الموهمة وترك الحاسمة، فالغالب على منهجه في التفسير تقرير ما قرره جمهور السلف الصالح في معنى الآية، ثم التعقيب بما يوضح الموضوع ويقربه بأسلوب عصره[١].

إن المقصود بسلفية محمد عبده، مذهبه في الأسماء والصفات، والمنهج الذي سلكه في بيان معانيها، دون إدخال أصول الإيمان الواردة في حديث جبريل المشهور؛ لأن هذه من الأصول المسلمة التي لا يصح إسلام المسلم إلا باعتقادها. وللتذكير فإن مذهب السلف هو: الإيمان بما وصف اللّـه به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله، من غير تحريف ولا تكييف ولا تمثيل، ولا تعطيل، إجراءً للنصوص على ظاهرها، وحملها على حقيقتها اللائقة باللّـه ﷻ، مع عدم الإلحاد في الأسماء والصفات، بالعدول بها وبحقائبها... عن الحق الثابت لها[٢].

وفي ضوء هذا الإجمال نسوق الشواهد على سلفية الإمام بدءًا بتعليله لحاضر الأمة المرير في عصره؛ حيث يقول: (إنما وقع فيه المسلمون من الضلال في العقائد الأصلية، سببه البدع التي عرضت على دين الإسلام.. ومن أشدها ضررًا؛ خوض رؤساء الفرق منهم في مسائل القضاء والقدر، والاختيار والجبر، وتحقيق الوعد والوعيد، وتهوين مخالفة اللّـه على نفوس العبيد) ثم لا يلبث أن يقرر بعد هذا معيار الهداية والضلال، وسبيل توظيفه في معرفة المنهج الحق فنحن « إذا وزنا ما في أدمغتنا من الاعتقادات بكتاب اللّـه تعالى من غير أن ندخلها أولًا فيه، يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين، وأما إذا أدخلنا ما في أدمغتنا في القرآن وحشرناها فيه أولًا. فلا يمكن أن نعرف الهداية من الضلال، لاختلاط الموزون بالموزون به... أريد أن يكون القرآن أصلًا تحمل عليه المذاهب والآراء في الدين، لا أن تكون المذاهب أصلًا والقرآن هو الذي يحمل عليها، ويرجع بالتأويل والتحريف إليها »[٣].

---

(١) وقد كان التلميذ يستدرك عليه ما يتأثر فيه بالأشعرية التي كانت قد تمكنت منه.

(٢) والإلحاد فيها يكون بجحدها وإنكارها.. أو بجحد معانيها وتعطيلها أو تحريفها عن الصواب بالتأويلات الفاسدة. والسلف لا يفوضون في علم المعنى، بل يفهمون معاني النصوص من الكتاب والسنة وإنما في كنه الصفات أو كيفياتها. انظر مثلًا: الإبانة عن أصول الديانة (ص ٨) وما بعدها. وشرح العقيدة الطحاوية (ص ٩) وشرح العقيدة الواسطية (ص ٢١ - ٢٣). والملل والنحل (ص ٤٢).

(٣) تفسير المنار (١/ ٧١).

فهل بعد هذا التصريح من شك في منهج الشيخ السلفي، وفي تقديمه للنص القرآني على كل أداة أو نص أو فهم بشري، إنها وجهة سلفية تجعل « عماد الفلاح ووسيلة الفوز بخيري الدنيا والآخرة... صدق الإيمان باللّـه تعالى بأن يكون التصديق به سطوعًا على النفوس من مشرق البرهان أو جيشانًا في القلب من عين الوجدان، فيكون الاعتقاد بوجوده وصفاته، خاليًا من شوب التشبيه والتمثيل... »[١].

أما التطبيق العملي في التفسير لمذهب الشيخ السلفي، فهو متوفر، وإنما قد يحدث له بعض اضطراب في تقريره، سببه المخلفات الثقافية الموروثة...

نأخذ لمذهبه هذا تطبيقًا، تفسيره لقول اللّـه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠][٢]. فقد قدم للموضوع بكلام تمهيدي قال فيه: (ما مثاله)[٣]: « أجمعت الأمة الإسلامية، على أن اللّـه تعالى منزه عن مشابهة المخلوقات، وقد قام البرهان العقلي والنقلي على هذه العقيدة، فكانت هي الأصل المحكم في الاعتقاد الذي يجب أن يرد إليه غيره، وهو التنزيه ».

فإذا جاء في نصوص الكتاب أو السنة شيء ينافي ظاهرة التنزيه، فللمسلمين فيه طريقتان:

إحداهما: طريقة السلف، وهي التنزيه الذي أيد العقل فيه النقل.. وتفويض الأمر إلى اللّـه تعالى في فهم حقيقة ذلك، مع العلم أن اللّـه يعلمنا بمضمون كلامه ما نستفيد به في أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا.

الثانية: طريقة الخلف وهي التأويل؛ يقولون: إن قواعد الدين الإسلامي وضعت على أساس العقل... فإذا جزم العقل بشيء وورد في النقل خلافه، يكون الحكم للعقل... (قال الأستاذ): وأنا على طريقة السلف، في وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق باللّـه تعالى وصفاته، وعالم الغيب[٤].

---

(١) قال الأستاذ: « ولا بد في تحقيق الإيمان من اليقين ولا يقين إلا ببرهان قطعي ولا بد أن يكون البرهان على الألوهية والنبوة عقليًا وإن كان الإرشاد إليهما سمعيًا. ولا ينحصر البرهان العقلي في الأدلة التي وضعها المتكلمون والفلاسفة فقلما تخلص مقدماتها من خلل ». تفسير المنار (١/ ٧١).

(٢) انظر: المصدر السابق (١/ ٣٣٤).

(٣) عبارة « ما مثاله » هي للتلميذ رشيد رضا يستعملها حيث يريد تقرير قول الشيخ بلغته هو لا بما عبر عنه الشيخ بلفظه.

(٤) تفسير المنار (١/ ٢٥٢).

هذا على مستوى الاعتقاد القلبي، وأما على مستوى منهج التفسير فيقول: « وإننا نسير في فهم الآيات على كلا الطريقتين؛ لأنه لا بد للكلام من فائدة يحمل عليها »[١].

والقصد من العبارة « السير على الطريقتين » ما علق به التلميذ موضحًا كلام شيخه: « إن ما انتشر في الأمة من نظريات الفلاسفة ومذاهب المبتدعة والمتأخرين جعل قبول مذهب السلف واعتقاده يتوقف في الغالب على تلقيه من الصغر بالبيان الصحيح أو طول ممارسة الرد عليهم »[٢].

إن المنهج الذي أعلن تبنيه في فهم الآيات؛ هو ما وظفه في تفسير حقيقة الملائكة وهو من بين المواضيع التي شنعت على الرجل، يقول: أما الملائكة فيقول السلف فيهم، إنهم خلق أخبرنا اللّـه تعالى بوجودهم وببعض عملهم، فيجب علينا الإيمان بهم... فإذا ورد أن لهم أجنحة نؤمن ولكننا نقول: إنها ليست أجنحة من الريش ونحوه كأجنحة الطيور، وإذا ورد غير هذا... فإنا نستدل بذلك على أن في الكون عالمًا ألطف من هذا العالم المحسوس... والعقل لا يحكم باستحالة هذا بل يحكم بإمكانه لذاته، قال الأستاذ: « وقد بحث الناس في جوهر الملائكة.. ولكن من وقفهم اللّـه تعالى على هذا السر قليليون، والدين إنما شرع للناس كافة، فكان الصواب الاكتفاء بالإيمان بعالم الغيب من غير بحث عن حقيقته »[٣].

ولما أراد بسط الكلام عن الملائكة قال: تقدم أن الملائكة خلق غيبي لا نعرف حقيقته، وإنما نؤمن به بإخبار اللّـه تعالى الذي نقف عنده ولا نزيد عليه.

وُشِيَ به مرة إلى شيخ الأزهر الشيخ عليش[٤] بأنه قرر في درسه مذهب المعتزلة على مذهب الأشعرية... فكان رده: إذا كنت أترك تقليد الأشعري، فلماذا أقلد المعتزلي: إذًا أترك التقليد وآخذ بالدليل[٥].

والحاصل: أن الشيخ محمد عبده، كـان سلفيًّا، وإن ظهرت عليه الأشعرية على حد

(١،٢) تفسير المنار (١/ ٢٥٢).

(٣) نفسه (١/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٤) أبو عبد اللّـه محمد بن أحمد، ولد بالقاهرة، وتعلم بالأزهر، وولي مشيخة المالكية فيه، (ت: ١٢٩٩هـ). ن. شجرة النور الزكية (ص ٣٨٥).

(٥) ن. تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ١٣٣، ١٣٤)، وانظر: رده اللاذع على المعتزلة في تفسير المنار (٣/ ٩٥).

تعبير تلميذه رشيد رضا[١] أو محاولة الاجتهاد في تفسير صفات اللّـه تعالى بما يقربها من الأفهام[٢]. قال صادعًا بهذا الاعتقاد بعد تقريره « إن كلام اللّـه شأن من شؤونه قديم بقدمه »[٣] « لا يجوز لنا البحث عن كيفية كلامه القديم ولا نزيد على هذا البيان في هذا الكلام فإنه من مزال الأقدام والأقلام، فنحن نؤمن بكلام اللّـه تعالى ووحيه مع تنزيهه في ذاته وصفاته عن مشابهة خلقه، فإن وقع ما يوهم خلاف هذه العقيدة السلفية، فهو من عثرات القلم الضعيف في البيان لا من شذوذ عن صراط اللّـه المستقيم في البيان »[٤].

٢ – سلفية رشيد رضا:

إذا ما أصررنا على الاستدلال على سلفية رشيد رضا فإننا نكون قد ذهبنا مذهب من ينشد برهانًا على ضوء الشمس في واضحة النهار، ولكن – من باب ليطمئن قلبي – نورد شهادات مؤكدة، اعتمادًا على تفسير المنار، باعتباره الجامع لفكر الرجل، مستأنسين بغيره من تأليفاته إذا دعا الأمر إلى ذلك.

إن فكر رشيد رضا السلفي في عمومه راجع إلى نشأته العلمية الأولى التي تمازج فيها الحديث والفقه، باللغة والتصوف... وإلى اتصاله بفكر جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده عن طريق « مجلة العروة الوثقى »[٥] في وقت مبكر من حياته بواسطة أبيه وشيخه حسين الجسر[٦]... ثم إلى إعجابه بمؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ومؤلفات

(١) ن. هذا في تفسير المنار (٢/ ٣٩٥).

(٢) ن. كلام محمد عبده في تفسير صفة القرب في قول اللّـه تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦] وتقريره لإتيان اللّـه في قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٠] (٢/ ٢٦٥) في تفسير المنار.

(٣) تفسير المنار: (٣ / ٤)، وقد نقله من رسالة التوحيد لمحمد عبده. وقد كان قد توغل في مذاهب أهل الكلام والفلسفة والتصوف جميعًا، فهداه اللّـه إلى مذهب السلف مجملًا ثم مفصلًا والرجوع عما خالفه تدريجيًا، ن. تفسير المنار (٨/ ٢٢٢).

(٤) نفسه.

(٥) لقد تحدث رشيد رضا عن نشأته العلمية ومحاولة اتصاله بجمال الدين الأفغاني وعد المراحل التي قطعها ليصل إلى محمد عبده بعد أن لم يتمكن من الاتصال بجمال الدين الأفغاني وذلك في مؤلفه، تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ٨٤، ٨٥، ٣٠٣ – ٣٤٠).

(٦) حسين بن محمد بن مصطفى عالم بالفقه والأدب ومن بيت علم في طرابلس الشام، توفي بها عام (١٢٢٧هـ)=

ابن القيم، ومؤلفات محمد بن عبد الوهاب وإلى شغفه بمؤلفات الشاطبي الأصولي[١]. علاوة على اتصاله المستمر بشيخه محمد عبده منذ أن وفد إلى مصر واستقر بها[٢].

فإن ذهبنا نعد تصريحه بانتمائه إلى السلفية في تفسير المنار لأعيانا ذلك[٣]، بل كان يُقوّم ما يقع لأستاذه من هفوات في منهج السلف الاعتقادي[٤] وها هو يهتبل فرصة بيان شيخه محمد عبده لمنهج السلف والخلف في الصفات، ليؤذن قائلًا: « أنا مؤلف هذا التفسير - إنني والحمد للّـه على طريقة السلف وهديهم، عليها أحيا وعليها أموت، إن شاء اللّـه تعالى »[٥] معلنًا أنه « لا يعرف في كتب علماء السنة أنفع في الجمع بين النقل والعقل من كتب شيخَي الإسلام، ابن تيمية وابن القيم... »[٦].

ثم لا يلبث أن ينصح قارئ تفسيره بأن « يعلم أنه من الخير له أن يطمئن قلبًا بمذهب السلف ولا يحتفل بغيره »[٧].

والتزامه مذهب السلف جاء نتيجة دراسة علمية طويلة، يقول عنها: « كنا نظن في أوائل الطلب: أن مذهب السلف ضعيف، وأنهم لم يؤولوا كما أول الخلف؛ لأنهم لم يبلغوا مبلغهم من العلم والفهم، ولا سيما الحنابلة أو بعضهم، ولما تغلغلنا في علم الكلام، وظفرنا بعد النظر في الكتب التي هي منتهى فلسفة الأشاعرة[٨] في الكلام،

= ن. الأعلام (٢/ ٢٥٨).

(١) ن. تفسير المنار: (١/ ٦٨، ١/ ٧٦).

(٢) ن. ترجمة رشيد رضا زيادة على تاريخ محمد عبده في:

- المجددون في الإسلام (ص ٥٣٩).

- أعلام الأدب والفن (٢/ ٣٥٧).

- معجم المطبوعات (ص ٩٣٥).

- الموسوعة العربية الميسرة (٢/ ١٦٦٠).

- معجم المؤلفين (٩/ ٣٦١) وغيرها من كتب التراجم الحديثة.

(٣) ن. الواجهات الأولى لكل مجلدات: تفسير المنار.

(٤) ن مثلًا: تفسير المنار (٨/ ٢٢٢، ١٠/ ٤٤، ١/ ٧٧).

(٥) تفسير المنار (٨/ ٤٥١، ١١/ ٣٧٨، ١/ ١٥٢).

(٦) ن.م (١/ ١٥٣)، وقد فصل فيها مسألة التأويل إلى (ص ١٧٢).

(٧) تفسير المنار.

(٨) الفرقة المنتسبة إلى أبي الحسن الأشعري، ن. الملل والنحل (ص ٩٤).

بالكتب التي تبين مذهب السلف حق البيان، لا سيما كتب ابن تيمية، علمنا علم اليقين أن مذهب السلف هو الحق الذي ليس وراءه غاية ولا مطلب، وأن كل ما خالفه فهو ظنون وأوهام »[١].

٣ - سلفية تفسير المنار:

ونعني بها سير مؤلفيه على نهج السلف في تفسير القرآن الكريم، في ظل مكوناتهما العلمية وقواعد فقه الواقع وإصلاحه من خلال ربط هذه القواعد بقضايا الأمة وحاجاتها النفسية والاجتماعية. ومع تشابه التلميذ والشيخ في السير على هذا المنهج من الناحية العلمية فإنه لا بد من أن نقرر أن هناك بعض الاختلاف، يظهر جليًّا في التطبيق؛ حيث يغلب على التلميذ الجانب الأثري والفقهي والأصولي، في حين يغلب على الشيخ الجانب الكلامي الفلسفي، وهذا راجع إلى التكوين العلمي لكلٍّ منهما.

يقول التلميذ عن التكوين العلمي للشيخ: « فأما علوم اللغة العربية فقد بلغ منها أن كان أدق الناس فهمًا للقرآن والحديث ولغيرهما.. وأما العلوم العقلية فقد ارتقى فيها أن كان فيلسوفًا حكيمًا[٢] وأما علوم التصوف فكان فيها من الراشحين. وأما العلوم الشرعية فقد كان فيها إمامًا مجتهدًا، وناهيك بفهمه في القرآن ووقوفه على أصول الشريعة وحكمها وأسرارها... ودفع الشبهات عنها، وتطبيق أحكامها على مصالح البشر »[٣].

والذي يقرأ كتابات محمد عبده يدرك هذه الموسوعية العلمية، غير أن هناك جوانب علمية كانت بضاعته فيها قليلة. يقول التلميذ في هذا الجانب: « إنه على نصرته للسنة لم يكن واسع العلم برواية الحديث، ولا حفظه، ولا كثير العناية بالجرح والتعديل فيه... وكان يرى أن المحدثين قد غلطوا في تصحيح كثير من أحاديث الفتن والفرق وعنوا بترويجها وكذا الأحاديث المخالفة للقرآن »[٤].

---

(١) تفسير المنار (٣/ ١٩٧).

(٢) عرف محمد عبده الفيلسوف بأنه « الذي له رأي ومذهب في العقليات والاجتماعيات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه » ن. تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ١٣٢).

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ١٠٣٢).

(٤) قال التلميذ بعد ذلك: « وقد جادلته في بعض المسائل وقلت له: إن علماء الجرح والتعديل يقولون بوضع =

لذلك كان تفسير القرآن بالقرآن من مسلمات المنهج عند محمد عبده، اتباعًا للسلف.

أما التفسير بالسنة عنده فإن « المتواتر منها هو المبين للقرآن بتفصيل مجمله وبيان مبهمه، وإظهار ما في أحكامه من الأسرار والمنافع »[١]، وغير المتواتر من السنة، وإن توافرت فيه شروط الصحة فإنه لا يفسر به القرآن عنده، خلافًا لجمهور السلف[٢].

وعمليًا نجده يفسر القرآن بالسنة دون التفات إلى التواتر أو عدمه[٣] وإلا وظف اللغة، وتاريخ النزول، والظروف التاريخية، في البيان والتفسير[٤].

إن محمد عبده بمنهجه هذا وبمقدمته في التفسير[٥] يعد المنظر الأول للمدرسة السلفية الحديثة في التفسير، وإن كان التلميذ أحذق منه في السير على النهج السلفي عمليًا، سواء تعلق الأمر بالاستمداد من المصادر، أو بطرق الاستدلال وترتيبها.

في سياق تفسيره لقول اللّه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣] يقول مبينًا دور الاختلاف في إهلاك الأمم وموضحًا منهج الائتلاف والاتفاق: « يجب أن يكون في الأمة رجال أهل بصيرة ورأي في سياستها ومصالحها الاجتماعية.. يرد إليهم أمر الأمن والخوف وسائر الأمور الاجتماعية والسياسية. أما في الأمور القضائية والإدارية والسياسية فبإقامتها على القواعد الشرعية في حفظ المصالح ودرء المفاسد بحسب حال الزمان والمكان.

وأما في الأمور الاعتقادية والتعبدية فبإرجاعهم إلى ما كان عليه السلف الصالح بلا زيادة ولا نقص، واعتبار ما أجمع عليه المسلمون في العصر الأول هو الدين الذي يدعى إليه، ويحمل كل مسلم عليه، وما عداه من المسائل الاجتهادية فيعمل فيها صاحب الدليل بما يظهر له أنه الحق من غير مماراة، ولا معاداة[٦]. وعمليًا يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ

=الحديث المخالف لنص القرآن ولغيره من القطعيات، قال: نعم، وإنها لنعمة القاعدة ولكن لا ترى فيهم من طبقها على جزئياتها. ورأيته في الاستدلال بها يوافق مذهب السلف، ن. (تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ١٠٣٣).

(١،٢) تفسير المنار (١/ ٣٠).

(٣) ن. ن.م (٤/ ٢٦).

(٤) ن. ن.م (١/ ٦٦، ٦٧).

(٥) وقد نقلها تفسير المنار مقدمًا بها للتفسير كما نجدها في كتاب مشكلات القرآن الكريم. لمحمد عبده.

(٦) تفسير المنار (٣/ ١١، ١٢).

دِينًا﴾ [المائدة: ٣]: نبدأ تفسير هذه البشارات الثلاث... بذكر ما ورد فيها عن مفسري السلف من معناها وزمن نزولها ومكانه، فذكر في ذلك ما ورد عن ابن عباس وغيره، عن طريق البيهقي، وابن جرير، والشيخين، وأصحاب السنن[1]، ثم أعقب ذلك بما ذهب إليه في معنى إكمال الدين بالقرآن على نهج السلف فقال: « إن اللّـه تعالى أكمل الدين بالقرآن وببيان نبيه ﷺ فما صح من بيانه لا يعدل عنه إلى غيره... وما بعد سنته ﷺ نور يهتدى به في فهم أحكامه... مثل إجماع الصحابة أو عمل السواد الأعظم منهم، وممن تبعهم في هداهم... »[2].

***

(١) ن. تفسير المنار (٦/ ١٥٤ – ١٥٧).

(٢) ن.م (٦/ ١٦٦). وللزيادة انظر: (٤/ ٣٧ – ٤٠)، (٥/ ٣١٣ – ٣٣٢). (٩/ ١٣٣، ٢١٢، ٦٣٣) من تفسير المنار والبراهين كثيرة.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

معالم التفسير السلفي في تفسير المنار

المَبْحَثُ الأَوَّلُ: في قواعد التفسير:

لقد درج المصنفون في علوم القرآن على المزج بين « أصول التفسير وقواعده » في مبحث واحد دون وضع فوارق محددة لما هو قاعدة وما هو أصل.

ولعل هذا راجع إلى تداخل المعنى الدلالي لكلمتي: « قاعدة وأصل » من جهة، ومن جهة أخرى إلى تداخل الإجراءات العملية التي تتخذ أثناء العمل التفسيري.

فاللغة تقول: « الأصل أسفل كل شيء »[(١)]... وأصَّل الشيء جعل له أصلًا ثابتًا ينبني عليه... وأصْلُ الشيء: أساسه الذي يقوم عليه[(٢)]... وتقول: إن « القاعدة أصل الأساس، والقواعد الأساس، وقواعد البيت أساسه »[(٣)].

ولما أرادت وضع تعريف معرفي للأصول قالت: والأصول: أصول العلوم وقواعدها التي تنبني عليها[(٤)]، وبذلك قررت أن القاعدة هي الأصل والأساس، وأن الأصلَ هو القاعدة والأساس، جامعة بين المعنى الدلالي لهما في إطار تبادلي.

وأما الإجراءات العملية فإننا نستطيع القول:

١ - إن الأصول هي تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة وباللغة والاجتهاد، وأن القواعد هي الأخذ بهذه الأصول على الترتيب مضافًا إليها تقسيمات الأصوليين للفظ بالنسبة إلى معناه[(٥)]..

---

(١) اللسان، مادة: أصل.
(٢) المعجم الوسيط: مادة: أصل.
(٣) اللسان، مادة: أصل.
(٤) المعجم الوسيط: مادة قعد.
(٥) كالخاص والعام والمطلق والمقيد، وهو ما يعرف بوضع اللفظ للمعنى.

وإلى ظهور هذا المعنى وخفائه[١].

٢ - إن الأصول ما يضبط منهج التفسير، والقواعد ما يضبط فهم النص المفسر.

وفي كلا الحالين نجد كلًّا من القاعدة والأصل يشتركان في عملية البيان والتفسير وتيسير الفهم عن اللّـه تعالى وحفظ هذا الفهم من الزلل والزيغ؛ لذلك سنكتفي بصياغة هذا المبحث في تفسير المنار بذكر القواعد والأصول على أنها مترادفة، في انتظار أن يهيئ اللّـه لهذا الأمر من يفصل فيه.

إن كل من يتعامل مع « تفسير المنار » يعلم أن الجزء الأول منه قد ازدان بمقدمة في التفسير، جمعت بين استنهاض همم المسلمين للعمل بالقرآن، وبين وضع قواعد وأصول تأخذ بيد الآخذ بها إلى فهم القرآن والاهتداء به... في إطار الحاجة الماسة إلى « تفسير توجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكونية المنزلة في وصفه، وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهداية والإصلاح »[٢].

وهذا لا يتحقق إلا بجملة قواعد، عليها يتوقف فهم القرآن في هذا الاتجاه، نوجزها من تفسير المنار على الشكل التالي:

أولًا: « **فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أوردها القرآن، من استعمالات أهل اللغة**... وتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الأولى ليفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب... والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه[٣] بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه، وينظر فيه، فربما استعمل بمعانٍ مختلفة فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه »[٤].

ثانيًا: الأساليب، وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته مع التفطن لنكته ومحاسنه والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه[٥].

---

(١) كالنص والظاهر والخفي وهو ما يعرف بظهور المعنى وخفائه.

(٢) تفسير المنار (١/ ١٠).

(٣) لا يستبعد بحكم السبق التاريخي لتفسير المنار أن يكون أمين الخولي قد بنى أسس المنهج البياني للتفسير في العصر الحديث على هذه الإشارة، ن. اتجاهات التفسير في القرن (١٤هـ) (٣/ ٨٩٤).

(٤) تفسير المنار (١/ ٢١، ٢٢).

(٥) ن. تفسير المنار (١/ ٢٢، ٢٣).

ثالثًا: علم أحوال البشر، فقد بين القرآن كثيرًا من أحوال الخلق وطبائعهم والسنن الإلهية فيهم(١).

قال محمد عبده: « أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٣] وهو لا يعرف أحوال البشر وكيف اتحدوا وكيف تفرقوا »(٢).

رابعًا: العلم بهداية البشر كلهم بالقرآن... بعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم؛ إذ كيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفًا بأحوالهم وما كانوا عليه(٣).

خامسًا: العلم بسيرة النبي وأصحابه، وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون، دنيويها وأخرويها. بهذا يتم فقه القرآن وتفسيره، « لمن لم يؤت من ملكة لغته وذوق أساليبها وروح بلاغتها، ومن تاريخ الإسلام وسيرة الرسول ﷺ، وهدي السلف الصالح ما يمكّنه من فقهه بنفسه »(٤).

وهذه كلها جوانب كسبية، لا تكفي وحدها لأن يفتح لك القرآن أبواب جنانه لترتع في رباها، فإن رغبت في أن تتم لك كل أبواب الفتح لفهم القرآن، فاحرص على أن يكون القرآن الكريم « نصب عينيك ووجهة قلبك في تلاوته في الصلاة، وفي غير الصلاة، ما بينه اللّـه تعالى فيه من موضوع تنزيله، وفائدة ترتيله وحكمة تدبره، من علم ونور وهدى ورحمة وموعظة، وعبرة وخشوع وخشية وسنن في العالم مطردة... ويلزمها عقلًا وفطرة تقوى اللّـه تعالى »(٥).

في إطـار هـذه القواعد العامـة التي بُنِيَ عليها التفسير العملي في تفسير المنـار، نجد

---

(١) ن. تفسير المنار (١/ ٢٢، ٢٣).

(٢) تفسير المنار (١/ ٢٣) وقد ذهب في تفسير الآية (بتوظيف العنصر الأول في هذه القواعد وبأسلوب التفسير الموضوعي متتبعًا معنى لفظة أمة وأماكن ورودها في القرآن – إلى أن اللّـه خلق الإنسان أمة واحدة: أي مرتبطًا بعضه ببعض في المعاش.. وينحون بمقتضى فطرهم نحو المنافع التي يرونها لازمة لقوام معيشتهم فيختلفوا.. فكان من رحمة اللّـه بهم أن يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، ن. تفسير المنار (٢/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(٣) ن. تفسير المنار (١/ ٢٤).

(٤) ن. ن.م (١/ ٧)، ن. مقاصد القرآن الكريم (ص ٢٦، ٢٧).

(٥) تفسير المنار (١/ ٢٤).

قواعد أخرى جزئية بالنسبة إلى هذه كلية في بابها، تُكوّن المرجع المعياري والتذكيري لما ينبني عليه التفسير من الأصول التي تمنهج العمل التفسيري السلفي.

وهذه القواعد الجزئية التي يتضمنها « تفسير المنار » يمكن تصنيفها كما يلي:

١ - القرآن خير ما يفسر به القرآن وأصحه[1]، وكل ما خالفه وخرج عنه فهو باطل؛ ذلك أن القرآن يفسر بعضه بعضًا، ألفاظًا وجملًا في حالات كثيرة جدًّا. قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ [الأنعام: ٩٨]: ليس في الكتاب العزيز ما نستعين به على تفسير هذه العبارة، كدأبنا في تفسير القرآن بالقرآن، إلا قوله تعالى: ﴿ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الحج: ٥] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ [هود: ٦][2].

٢ - القرآن وبيان الرسول له فوق التنازع واختلاف المذاهب والشيع[3]. وعلى هذه القاعدة يقرر « أنه يجب على المسلم ألا ينظم الآية في سمط أخبار التاريخ ولا في سلك علم الملل والنحل، أو علم المناظرة والجدل... بل يتلوها متذكرًا أنها ما أنزلت إلا هداية وعبرة »[4].

٣ - سنة النبي ﷺ وسيرته[5]. **وما جرى عليه السلف من أصحابه والتابعين لهم، تسهل فهم الكتاب**، بشرط تعلم اللغة العربية تعلمًا صحيحًا[6].

بناءً على هذا الشرط يجعل مفتاح التفسير تعلم اللغة العربية؛ إذ بدونها لا يفهم قرآن ولا سنة، ولا أي خطاب إسلامي، ومن هنا يكون:

٤ - « الشرط الرابع الذي لا بد منه... وهو معرفة لغة القرآن مفرداتها وأساليبها »[7]؛ لأن النصوص تفهم بقواعد اللغة والسنة العملية، لا بما اصطلحوا عليه من تأويل، « فالبدع التي فرقت الأمة في أصول دينها وجعلتها شيعًا، تؤثر كل شيعة اتباع زعمائها ومذاهبها على كتاب اللّـه وسنة رسولـه، وهدي السلف الصالح بالتأويـل، من حيث

---

(١) ن. تفسير المنار (١١/ ٤٢٠).
(٢) وانظر: نص التفسير في (٧/ ٦٤٠) من تفسير المنار.
(٣) ن. تفسير المنار (٩/ ١٢٩).
(٤) ن.ت.م (٣/ ٢٥٩).
(٥) لعله يقصد ما يسمى في علم السيرة « بالشمائل المحمدية ».
(٦) ن. تفسير المنار (٢/ ١٠٨).
(٧) ن. ن.م (٥/ ٢٩٦).

تدعي أن أئمتها أعلم من مخالفيهم بتأويل الكتاب والحديث »[١].

٥ - **الاستقلال في فهم القرآن واجب** « لأن التدبر لا يتم إلا بذلك، بمعنى أنه يجب على كل مسلم أن يتدبر القرآن ويهتدي به بحسب طاقته، وأنه لا يجوز لمسلم قط أن يهجره ويعرض عنه »[٢] إذ « لا يمتاز أحد على أحد في علم الدين إلا بفهم القرآن، **والطريق إلى هذا الاستقلال على نوعين:**

الأول: كسبي يتوسل إليه بعلم السنة وآثار علماء الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار في الصدر الأول ومفردات اللغة العربية وأساليبها وكذا بعلوم الكون وشؤون البشر، وسنن اللّـه في الخلق.

الثاني: وهبي، وهو الذي أشار إليه الإمام علي.. « بالفهم الذي يؤتيه اللّـه عبدًا في القرآن »[٣]، ومن لا حظ له من الكسبي لا حظ له من الوهبي؛ لأن الأول هو الأصل الذي يثمر الثاني[٤].

٦ - **أكثر ما روي في التفسير ليس بصحيح**[٥] قد عضد هذا بقولة الإمام أحمد: « لا يصح في التفسير شيء »[٦]، بل يذهب إلى أنه متى ما صح لا يقبل إلا إذا صح رفعه إلى المعصوم ﷺ[٧].

٧ - **لا قياس فيما تعبدنا اللّـه به** « لأن هذا النوع يوقف فيه عند نص ما شرعه اللّـه، لا يزاد فيه ولا ينقص منه ولا يقاس عليه، ولا يؤخذ فيه برأي أحد، ولا باجتهاده... فهو شيء شرعه اللّـه وتعبدنا به لعلمه بأن فيه مصلحة لنا، ولكننا لا نفهم سر ذلك... »[٨].

٨ - **المغيبات لا تعلم حقيقتها إلا بنص قطعي من المعصوم ﷺ** فأحق النصوص بالاتباع من غير تصرف، نصوص العقائد، من صفات اللّـه تعالى وعالم الغيب... لأن تحكيم العقل البشري في ذلك طغيان من العقل وتجاوزه لحدوده[٩].

٩ - **المثل في القرآن عام**، يشمل كل من ينطبق عليه في زمن التنزيل وغيره[١٠].

---

(١) ن. ن.م (١١/ ٤٤٢).
(٢) تفسير المنار (٥/ ٢٩٦).
(٣،٤) ن.ن.م (٦/ ٤٧٢).
(٥) ن.ن.م (٨/ ٣٠٥).
(٦) مقدمة في أصول التفسير (ص ٥٩).
(٧) ن. تفسير المنار: (٨/ ٣٠٥).
(٨) ن.ن.م (٢/ ٤٤).
(٩) ن.ن.م (١٢/ ١٦٦، ١٦٧).
(١٠) ن.ن.م (٨/ ٣٠).

١٠ - الاعتبار بما خوطب به السلف لا بتعظيمهم[١] وعليه فإن خطاب سلفنا الصالح من الصحابة يجب عده خطابًا لنا[٢].

١١ - من سنن القرآن، وصل الدليل بالدعوى وقرن المسائل الاعتقادية ببراهينها[٣] ومقارعة الحجة بالحجة[٤] وتأمُّل هذا يعين على فهم الخطاب القرآني.

١٢ - العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب أو مقتضى السياق[٥].

١٣ - سبب النزول إنما يحتاج إليه في آيات الأحكام، تعليل ذلك « أن معرفة الوقائع والحوادث التي نزل فيها الحكم تعين على فهمه وفقه حكمته... أما الآيات المقررة للتوحيد، فلا حاجة إلى التماس أسباب لنزولها، وما عساه يكون قد قارن نزولها، فهو إن صحت روايته، لا يزيدنا بيانًا في فهم الآية »[٦]. وبناءً على ذلك يستنتج أن « العناية بمقاصد القرآن أولى من سبب النزول »[٧].

١٤ - تقصير المفسرين فيما يتوقف عليه فهم المراد، يوقع في سنن الضالين « وما سبب غفلة أذكياء المفسرين، إلا اقتصارهم في أخذ التفسير على الروايات المأثورة، ومدلول الألفاظ في اللغة أو في عرف الفقهاء والأصوليين والمتكلمين. الذي حدث في الملة بعد نزول القرآن بزمن طويل... ولا يغني شيء من ذلك عن فهم الآيات الواردة في شؤون البشر بمعرفة الملل والنحل وتاريخ أهلها، وما كانوا عليه في عصر التنزيل[٨] فمن أسباب « ضعف الاهتداء بالقرآن خُلو تفسيره من تطبيق عقائده وأحكامه على أحوال الناس، ودفع الشبهات التي تصدهم عنه »[٩].

١٥ - كل فهم جديد في القرآن يشترط فيه:

- ألا يخالف أصول الدين القطعية.
- أن يوافق مدلولات اللغة العربية[١٠].

---

(١) ن.ن.م (٢/ ٣٣٠).

(٢) ن.ن.م (٦/ ١٧٢).

(٣) تفسير المنار (٢/ ٥٦، ٥٧).

(٤) ن.ن.م (٣/ ١٠٨).

(٥) ن.ن.م (٧/ ٤٩٣).

(٦،٧) ن. تفسير المنار (٢/ ٥٦).

(٨) ن.ن.م (٨/ ١٨).

(٩) ن.م (٩/ ٣٦٣).

وانظر أيضًا: (٣/ ١٧٢)، (٩/ ١٢٨)، (٧/ ٢٢٤) من تفسير المنار.

(١٠) ن. ن.م (٦/ ٤٧٢).

إلى غير ذلك مما يمكن جمعه فيما عبر عنه تفسير المنار نفسه بـ « الاستعانة على فهم كتاب اللّـه ببيان سنة رسول اللّـه ﷺ وما جرى عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين وبأساليب لغة العرب ومعرفة سنن اللّـه في خلقه »[١].

***

المَبْحَثُ الثَّاني: في إعجاز القرآن:

مما قررناه في عناية المدرسة السلفية بالقرآن وإعجازه أن ذلك كان إسهامًا في رفع التحدي الحضاري، ودفع الشبهات، وأن للقرآن وجوهًا من الإعجاز، ترجع في عمومها إلى ثلاثة ميادين: الإعجاز البياني - الإعجاز العلمي - الإعجاز التشريعي - وأن الثلاثة مرجع كل وجوه الإعجاز التي تميزت بها المدرسة »[٢].

وإذا كانت المعجزة حجة وبرهانًا في صورة تحدي فإنها لا تأتي إلا بعد إقامة البراهين والحجج العقلية وضرب الأمثال للمتوسمين[٣].

والقرآن الكريم مع كونه معجزة فإن فيه من البراهين والحجج، على وجود الخالق ووحدانيته، وصدق الرسالة وربانية المصدر، ما يقطع قول كل قائل... فهو الحجة وهو المعجزة، وبذلك كان اهتمام المفسرين منصبًّا على الجانبين معًا - وهم يؤدون مهمة البيان والتبليغ بالقلم واللسان - في إطار رد الشبهات غالبًا من موقع القوة.

غير أن طغيان العقل في العصر الحديث، انبهارًا بما وصلت إليه التجربة في ميدان المحسوسات وخضوع العالم الإسلامي للعالم المتصنع... جعل علماء التفسير يهتمون بالإعجاز القرآني إظهارًا للتحدي ورفعًا له في إطار فكري جدالي يتداخل فيه الحجاج بالإعجاز... وهذا ما ميز المنهج السلفي في التفسير في العصر الحديث.

لذلك نجد « تفسير المنار » في أول تحدٍّ قرآني[٤] للمكذبين بالرسالة ومبلغها، يعقد فصلًا مستقلًّا لتحقيق وجوه الإعجاز، للتدليل على صدق الرسالة والرسول ابتداءً،

(١) ن. ن.م (٦/ ١٩٦). (٢) ن. تفسير المنار (ص ٩٩).
(٣) إذ لم تنزل آيات التحدي إلا بعد مدة طويلة من نزول عدد من آيات الحجاج والمجادلة.
(٤) حسب ترتيب المصحف، هو قول اللّـه تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة ٢٣].

وانتهاءً بالقرآن وما يحويه من « مزايا تعلو قدرة المخلوق، علما وحكمًا وبيانًا للعلم والحكمة »[١] مؤكدًا أنه ما فعل ذلك إلا لما « يُعلم من شدة حاجة المسلمين أنفسهم إلى بيان وإيضاح وجوه الإعجاز، دع عنك أمر دعوة غيرهم، أو الاحتجاج عليهم بها »[٢].

فكان أن جعل وجوه الإعجاز سبعة، حسب القضايا الكبرى التي عالجها القرآن:

- **الوجه الأول: إعجاز القرآن بأسلوبه ونظمه،** « باشتماله على النظم الغريب، والوزن العجيب، والأسلوب المخالف لما استنبطه البلغاء من كلام العرب في مطالعه وفواصله وقواطعه... وهذه مسألة على كثرة ما أبدى فيها المفسرون وأعادوا لم يوفوها حقها، حسب - « تفسير المنار » - فالقرآن ليس نظمًا واحدًا ولا أسلوبًا واحدًا.. فهو مائة وأربع عشرة سورة متفاوتة الطول والقصر... وكل سورة تقرأ بترتيل تختلف فواصله.. كما تتفاوت آياتها في الطول والقصر... وعلى ما فيها من متشابه وغير متشابه في النظم، متشابهة كلها في مزج المعاني العالية بعضها ببعض من صفات اللّـه تعالى وأسمائه الحسنى وآياته في الآفاق والأنفس والحكم والمواعظ والأمثال وبيان البعث والمآل... والاعتبار وأحكام العبادات والمعاملات والحلال والحرام »[٣].

- **الوجه الثاني: إعجاز القرآن « ببلاغته التي تقاصرت عنها بلاغة سائر البلغاء..** ومن الناس من لا يفقه سر هذه البلاغة، ويماري فيما كتبه علماء المعاني والبيان من قواعدها... بسبب ترك الناس لمدارسة الكلام البليغ، واستعماله واقتصار مدارس الأمصار على قراءة كتب النحو والبلاغة... من أن مكانة القرآن من البلاغة لا يحكمها من الجهة الفنية والذوقية، إلا من أوتي حظًّا عظيمًا من مختار كلام البلغاء المنظوم والمنثور... حتى صار ملكة له وذوقًا، واستعان على فهم فلسفته بمثل كتابي عبد القاهر[٤] والصناعتين[٥]

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٩٨).

(٢) نفسه.

(٣) تفسير المنار (١/ ١٩٨، ١٩٩).

(٤) هما: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لإمام العربية والبيان أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت. ٤٧١هـ)، ن. بغية الوعاة (٢/ ١٠٦).

(٥) لأبي هلال الحسن بن عبد اللّـه بن سهل من علماء اللغة الكبار، توفي بعد (٣٩٥هـ)، ن. بغية الوعاة (١/ ٥٠٦، ٥٠٧).

والخصائص(١) وأساس البلاغة(٢) ومغني اللبيب(٣)... »(٤).

– **الوجه الثالث: « إعجاز القرآن بما فيه من عالم الغيب، من ماضٍ؛** كقصص الرسل مع أقوامهم، ومن حاضر في عصر تنزيله... ومن أظهر هذه الأخبار، وعده تعالى بحفظ القرآن من النسيان والتغير والتبديل... ووعده لرسوله ﷺ والمؤمنين بالنصر والتمكين، ووعيده للكافرين بالخذلان والخسران...

فهذه الأخبار بالغيب دليل واضح على نبوة محمد ﷺ وعلى كون القرآن من عند اللّـه تعالى »(٥).

– **الوجه الرابع: إعجاز القرآن بسلامته من الاختلاف،** وكون هذا من وجوه الإعجاز يتجلى في « سلامة القرآن على طوله من التعارض والتناقض، خلافًا لجميع كلام البشر... وإننا لنجد كبار العلماء في كل عصر يصنفون الكتاب فيسودون ثم يصححون ويبيضون، ثم يطبعون وينشرون، ثم تظهر لهم ولغيرهم كثير من التعارض والاختلاف والأغلاط... ولا سيما إذا طال الزمان »(٦).

ولا ينقض هذا الوجه ما يمكن أن يقال: « إن غير المؤمنين بالقرآن قد استخرجوا منه بعض الاختلاف والتعارض... فإننا إذا عرضنا ذلك على المستدلين المستقلين، نرى أنه ليس في القرآن تعارض حقيقي يعد مطعنًا صحيحًا فيه... إنما الذي يلاحظ أن هذا النوع من الإعجاز يظهر في جملة القرآن في السور الطويلة منه »(٧) « وسلامة السور القصار من ذلك لا يعد أمرًا معجزًا »(٨) حسب تفسير المنار.

– **الوجه الخامس: إعجاز القرآن بالعلوم الدينية والتشريع،** ويقصد بالعلوم الدينية

---

(١) لابن جني عثمان الموصلي أحد أئمة الأدب والنحو (ت: ٣٩٢هـ)، ن. بغية الوعاة (٢/ ١٣٢) وشذرات الذهب (٢/ ١٤٠).

(٢) لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري المفسر المحدث اللغوي (ت: ٥٦٨هـ)، ن. بغية الوعاة (٢/ ٢٧٩)، وطبقات المفسرين للداودي (٢/ ٣١٤، ٣١٥).

(٣) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لإمام العربية أبي محمد عبد اللّـه بن يوسف بن أحمد بن هشام (ت: ٧٦١هـ)، ن. بغية الوعاة (٢/ ٦٧، ٦٨).

(٤) تفسير المنار (١/ ٢٠١، ٢٠٢)، وقال معلقًا: « كل هذا لا يعدو أن يكون مقدمات البلاغة ».

(٥) تفسير المنار (١/ ٢٠٤).

(٦) ن.م (١/ ٢٠٥).

(٧،٨) ن.م (١/ ٢٠٦).

« أصول العقائد وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب »[١] ويقصد بالتشريع « قواعد التشريع السياسي والمدني والاجتماعي الموافقة لكل زمان ومكان »[٢] وهذا الوجه من أظهر وجوه الإعجاز؛ لأن هذه العلوم هي أعلى العلوم وقلما ينبغ فيها من الذين ينقطعون لدراستها.. إلا القليلون، فكيف يستطيع رجل أمي لم يقرأ، ولم يكتب ولا نشأ في بلد علم وتشريع، أن يأتي بمثل ما في القرآن منها تحقيقًا وكمالًا...[٣].

– **الوجه السادس: إعجاز القرآن بعجز الزمان عن إبطال شيء منه**، وذلك بكونه « يشتمل على بيان كثير من آيات اللّـه تعالى في جميع أنواع المخلوقات.. كخلق السماوات وشموسها ونجومها... والأرض والماء... وفيه تفصيل لكثير من أخبار الأمم... وقد حفظ ذلك كله فيه بكلمه وحروفه منذ ثلاثة عشر قرنًا ونيف... وعجزت القرون رغم التقاء جميع العلوم والفنون فيها أن تنقض بناء آية، أو تبطل حكمًا أو تكذب خبرًا فيه[٤].

ولربما يلتبس على قارئ « تفسير المنار » هذا الوجه بالوجه الرابع فيظنهما وجهًا واحدًا، والأمر ليس كذلك؛ لأن « هذا الوجه غير ما تقدم من سلامته من التعارض والاختلاف، فتلك في الماضي وهذه في الحاضر والمستقبل... ذلك الاختلاف يقع للناس بقلة العرفان وبضعف البيان... وهذا بظهور ما يبطل المسلمات ونقض ما تبنى عليه النظريات »[٥] بحيث ترى القوانين والأعراف والنظريات البشرية تنقض بعضها بتوالي الزمن وتجدد الأحداث وتقدم التجارب، ولا ترى من تشريع القرآن وأخباره إلا ثباتًا يتحدى الإنسان والأحداث والنظريات، مهيمنًا وشاملًا.

– **الوجه السابع: إعجاز القرآن بتحقيق مسائل كانت مجهولة للبشر**، « كاشتماله على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله، ثم عرفت بعد ذلك، بما انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسنن اللّـه في الخلق »[٦] وحتى لا يشتبه هذا الوجه بالخامس أو السادس ضرب لنا مثلًا بقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢] لتوضيح الفرق وبيان الإعجاز، فقال: كانوا يقولون فيه أنه تشبيه لتأثير الرياح الباردة في السحاب بما يكون سببًا لنزول المطر،

(١،٢) ن.م (١/ ٢٠٦).
(٣) ن. تفسير المنار.
(٤) ن. تفسير المنار (١/ ٢٠٧).
(٥) ن.م (١/ ٢٠٨).
(٦) ن.م (١/ ٢١٠).

بتلقيح ذكور الحيوان لإناثه، في حين أن الريح تقوم بتلقيح الأشجار والثمار، وقد كان العرب يعرفون ذلك... ولكنهم لم يكونوا يعلمون أن الرياح تفعل ذلك...

إن وجوه الإعجاز هذه، وإن عدها « تفسير المنار » سبعًا، فهي راجعة بالأساس إلى نواحي الإعجاز الثلاثة التي تميزت بها المدرسة كما أنها تتجه وجهة واحدة، هي القضية الأساس: إثبات ربانية القرآن وصدق مبلغه ﷺ وهذه القضية شاهدها الأكبر هو القرآن نفسه، فمن ثم كان « حجة للنبوة وعين موضوعها... »[1].

« والآيات الكونية (الخوارق) كإطعام العدد الكثير من الطعام القليل، واستقاء العدد الكثير من الماء القليل.. - وإن كانت من اللـه، ككل شيء - تحصل بها يشبه الأسباب وفيها مجال لاشتباه المرتاب... »[2] فلا يعد إعجازًا « لأن ما يؤخذ من ذلك الطعام أو الماء، فإنما يؤخذ من شيء كان موجودًا.. ثم إن الناس ينقلون مثل هذا عن بعض الصالحين، وعن بعض السحرة المشعوذين... »[3] مما هو حيل أو صناعة تتلقى بالتعليم والتمرين؛ ولهذه الحكمة جعل اللـه تعالى الآية الكبرى لرسالة خاتم رسله ﷺ علمية، حتى لا يبقى مجال لارتياب أحد من طلاب الحق... وهي إتيان رجل أمي عاش بين الأميين إلى سن الكهولة بكتاب فيه أعلى العلوم الإلهية والأدبية والاجتماعية والشرعية وأخبار الأمم والأنبياء السابقين »[4].

فالقرآن في جملته آية علمية، وفي تفصيله آيات كثيرة، عقلية وكونية، وهي دائمة لا تزول كما زالت الآيات الكونية؛ كعصا موسى. وعامة لا تختص ببعض من كان في عصر الرسول، كما كانت آية موسى الكبرى خاصة بمن رآها في عصره. وهي أدل على الرسالة من الآيات الكونية؛ لأن موضوعها علمي، فهو علم موحى به، غير مكسوب... على لسان أمي...[5].

---

(١) تفسير المنار (١/ ٢١٠)، ن. تعليق الصادق عرجون في كتابه: « نحو منهج لتفسير القرآن » (٦٩، ٧٠).

(٢) تفسير المنار (١١/ ١٥٩) والفكرة سبقه إليها القدماء كالباقلاني في كتابه: « إعجاز القرآن » م: هامش الإتقان (١/ ٨).

(٣) تفسير المنار (٧/ ٢٥٤) ويضيف في مكان آخر: إن آيات اللـه الحقيقة التي نسميها معجزات هي فوق أعمال الدجالين والمحتالين.. فلا كسب لأحد من البشر، ولا صنع لهم فيها... ن. تفسير المنار (١١/ ٢٢٦).

(٤) تفسير المنار (٧/ ٢٥٥).

(٥) ن. تفسير المنار (٧/ ٣٨٨).

وعلى النهج السلفي يدلي لنا بحجحه على ما ذهب إليه، وإن لم يكن وحده في هذا الاتجاه، مؤيدًا هذه القاعدة بما رواه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة مرفوعًا: « ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه اللّـه إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة »[١].

بناءً على هذه القاعدة التي احتج لها ببينات عقلية ونقلية ربط « تفسير المنار » بين أوجه الإعجاز في القرآن، وبين بيان أوجه دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ ضاربًا صفحًا عن اختلاف علماء الكلام في وجه دلالة المعجزة على النبوة، هل هي دلالة عقلية أو دلالة وضعية؛ لأن الذين آمنوا بالرسل... وجدوا في أنفسهم اعتقادًا اضطراريًا بأن ظهور ما لا يقدر عليه غير اللّـه تعالى على أيدي الرسل... دليل على أنه هو الذي فعله، لأجل تصديقهم... وسمّ الدلالة بما شئت[٢].

ووجه هذه الدلالة « هذا الكتاب المعجز بما فيه من أنواع الإعجاز السبعة؛ إذ لا يتصور عاقل يؤمن برب العالمين، أن يصدر هذا الكتاب... في هذا الأسلوب البديع والنظم المنيع من المباني، من رجل أمي، ولا متعلم أيضًا، إلا أن يكون وحيًا اختصه به الرب ﷻ، ناهيك به، وقد جزم بعجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله، فهذا التحدي حجة مستقلة على النبوة... وكل نوع من الوجوه السبعة... حجة مستقلة في نفسها... »[٣].

والواقع أن إعجاز القرآن - باعتباره دليلًا على ألوهية المصدر وصدق رسالة من نزل عليه، قد احتل حيزًا كبيرًا في تفسير المنار، بحيث تجده في كل آية لها قرابة بالموضوع مهما بعدت، وذلك بأسلوب ملائم لعقلية ومعارف العصر الذي أنجز فيه هذا التفسير، وفق منهج يستمد أصالته من القرآن الكريم، في منهجه في الاحتجاج والتحدي، ومن استقصاء الآيات القرآنية على نهج أسلوب التفسير الموضوعي.

***

(١) البخاري عن أبي هريرة، كتاب فضائل القرآن، باب: كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، وانظر. في الموضوع: تفسير المنار (١١/ ٣٣٢، ٣٣٣ - ١٢/ ٥٠، ٥١).

(٢) تفسير المنار (١/ ٢١٧).

(٣) ن.م (١/ ٢١٨).

المَبْحَثُ الثَّالِثُ: في مقاصد القرآن:

إن الحديث عن مقاصد القرآن في تفسير المنار، لا بد أن ندخل إليه من البوابة التي تكون مدخلًا لكل أجزاء هذا التفسير؛ بوابة نقش على عارضتها: « هذا هو التفسير الوحيد الذي فسر به القرآن، من حيث هو هداية عامة للبشر ورحمة للعالمين، جامعة بين حقوق الأرواح والأجساد، وأمور الدنيا والدين، ومرشد لأصول العمران وسنن الاجتماع، ووسيلة لسعادة الناس في كل زمان ومكان... »[1] بوابة لخصت المقصد الأم لنزول القرآن الكريم، وما تفرع عنها، لا يعدو أن يكون أداة لخدمتها، أو لازمًا من لوازمها، وذلك كعلوم القرآن وعلوم الآلة... مما يكون أعمدة قواعد تفسير القرآن. ومن هنا يصير التفنن في رسم خط المصحف، والعناية الشديدة بمظهره الخارجي، وكتابته بماء الذهب... وبروزته والتبرك بتقبيله... أعمالًا شاغلة عن مقاصد القرآن، إن هي استحوذت على اهتمام المسلمين، وأنستهم الغاية الأولى: أن القرآن أنزل لإصلاح شؤون الحياة الخاصة والعامة.

ولما كان واقع الأمة قد اتخذ منحى ابتعد به عن المقصد الأعلى للقرآن فإنه أصبح من الضروري العمل على تفسير القرآن ببيان مقاصده العليا، وترسيخها في النفوس، إعادة لتربيتها اعتقادًا وسلوكًا وتعليمًا.

في هذا الاتجاه سار تفسير المنار، فكان بذلك تفسيرًا يمثل حاجة عصره. والحالة « أن أكثر ما كتب في التفسير في فترة الضعف قبله، تشغل قارئها عن المقاصد العالية، والهداية السامية للقرآن »[2]، ومن ثم كانت الحاجة شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة في وصفه، وما أنزل لأجله من الإنذار والتبشير والهداية والإصلاح »[3].

« ففهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة هو المقصد الأعلى منه »[4].

لتحقيق هذا الغرض، سبق مشروع تفسير المنار بوضع شروط في صورة قواعد

(١) ما يقرب من النص ويؤدي معناه، تجده في بوابة كل جزء من تفسير المنار، والنص المنقول من (١/ ٩).
(٢،٣) تفسير المنار (١/ ٧). (٤) ن.م (١/ ١٧).

للتفسير، غايتها « ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول وحكمة التشريع في العقائد والأحكام، على الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام، ليتحقق فيه معنى قوله: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ ونحوها من الأوصاف، فالمقصد الحقيقي وراء كل تلك الشروط والفنون هو الاهتداء بالقرآن »[١].

فإذا شددنا الرحال إلى ساحة التفسير وجدناها حافلة بمقاصد القرآن من خلال آيات مبينة للمقصد وأخرى مشيرة إليه. يفصح عنها تفسير المنار بأسلوب يجعلك شديد الاقتناع بأن القرآن الكريم هو حجة اللّـه البالغة على أن لا صلاح للإنسان إلا باتباع الدين الحق؛ « الإسلام ».

ولأهمية الدراسة المقاصدية في منهج المدرسة السلفية وأهمية ما تقصد إليه، من محو للانفصام الحاصل بين الأمة والمبدأ... أقام تفسير المنار مجمعًا علميًّا في افتتاحية سورة يونس[٢]، يضم إقامة الحجة على إثبات الوحي ونبوة الرسول ﷺ والرد على النصارى والقول في الآيات والخوارق، وأن آيات اللّـه الكبرى هي القرآن الكريم، بما فيه من حكمة وإعجاز، وما أحدثه من انقلاب في حياة البشر، وفي أنفس العرب خاصة، ثم توج هذا المجمع ببحث مستقل في بيان مقاصد القرآن في ترقية النوع الإنساني، نورد عناوينه البارزة، اكتفاءً به عن بقية معالجة الموضوع في التفسير مفرقًا.

المقصد الأول: الإصلاح الديني لأركان الدين الثلاثة:

- الركن الأول: الإيمان باللّـه تعالى وهو أعظم الأركان، وقد ضل فيه جميع الأقوام والأمم، حتى أقربهم عهدًا بالرسل، وهو ركن لا بد فيه من دحض الشبهات وتفصيل الحجج... بالعبارات المختلفة، وضرب من دحض الشبهات وتفصيل الحجج... بالعبارات المختلفة، وضرب الأمثال؛ لذلك كان أكثر المسائل تكرارًا في القرآن مسألة توحيد اللّـه في ألوهيته وربوبيته..[٣].

- الركن الثاني: عقيدة البعث والجزاء، ولا يكمل الإيمان الباعث على الالتزام إلا به...[٤].

---

(١) ن.م (١/ ٢٥).

(٢) ن.ن.م (١١/ ١٤٣) وما بعدها.

(٣) تفسير المنار (١١/ ٢٠٨).

(٤) ن.ن.م (١١/ ٢١٢).

- الركن الثالث: العمل الصالح، وهو من لوازم الإيمان باللّـه والإيمان بالجزاء على الأعمال[(١)].

والأركان الثلاثة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢].

المقصد الثاني: بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل[(٢)].

المقصد الثالث: بيان أن الإسلام دين الفطرة والعقل والفكر والعلم والحكمة والبرهان والحجة والضمير والوجدان والحرية والاستقلال، تصحيحًا لما كان سائدًا من أن الدين تعاليم خارجة عن محيط العقل، كلف البشر بها؛ مقاومة للفطرة، وتعذيبًا للنفس، ومكابرة للعقول والبصائر..[(٣)].

المقصد الرابع: الإصلاح الاجتماعي الإنساني والسياسي الذي يتحقق بالدرجات الثمان: وحدة الأمة - والجنس البشري - والدين - والتشريع - والإخوة الروحية - والجنسية السياسية الدولية - والقضاء - واللغة[(٤)].

المقصد الخامس: تقرير مزايا الإسلام العامة في التكاليف الشخصية أمرًا ونهيًا، وذلك بكونه وسطًا جامعًا لمصالح الدنيا والآخرة، وأن غايته الوصول إلى سعادتهما، بتزكية النفس بالعمل الصالح، لا بمجرد الاعتقاد والاتكال... وأن مدار العبادات كلها على اتباع ما جاء به النبي ﷺ في الظاهر، ومدارها في الباطن على الإخلاص وصحة النية[(٥)].

المقصد السادس: بيان حكم الإسلام السياسي الدولي، نوعه وأساسه وأصوله العامة في الولاية وأصول التشريع، المبنية على قاعدة مراعاة الفضائل في الأحكام والمعاملات...[(٦)].

المقصد السابع: الإرشاد إلى الإصلاح المالي، بدرء المفاسد الاجتماعية الكبرى[(٧)].

---

(١) ن. تفسير المنار (١١/ ٢١٥٠).

(٢) ن. تفسير المنار (١١/ ٢١٩) وذلك أن الغرض كانت تنكر الوحي والرسالة إلا أفرادًا.. واليهود تفكر أن يمن اللّـه على من يشاء من عباده بالنبوة وأوجبوها في شعب إسرائيل، ووافقهم الناصي على هذا الحصر وأثبتوا قداسة غير الأنبياء وعبدوهم.

(٣) ن. تفسير المنار (١١/ ٢٤٤).

(٤) ن. تفسير المنار (١١/ ٢٦١ - ٢٦٣).

(٥) ن.ن.م (١١/ ٢٦٤ - ٢٧١).

(٦) ن.ن.م.

(٧) ن. تفسير المنار (١١/ ٢٧١). مقررًا أن المال فتنة واختبار وأن البخل والطغيان والكبرياء، والرياء به=

المقصد الثامن: إصلاح نظام الحرب، ودفع مفسدتها، وقصرها على ما فيه الخير للبشر، في قواعد ضابطة لسياسة الإسلام في القتال والصلح والمعاهدات[١].

المقصد التاسع: إعطاء النساء حقوقهن الإنسانية والدينية والمدنية.. إذ كن مظلومات... حتى جاء الإسلام فأعطاهن بالكتاب والسنة جميع الحقوق، تبعًا لما تقتضيه طبيعتهن ووظيفتهن النسوية، مع مراعاة تكريمهن..[٢].

المقصد العاشر: تحرير الرقبة؛ فقد كانت شعوب الحضارة القديمة تتخذ الرقيق وتمتهن... فلما ظهر الإسلام كان مما أصلحه من فساد الأمم إبطال ظلم الرقيق.. ووضع الأحكام لإبطال الرق بالتدريج؛ إذ كان إبطاله دفعة واحدة متعذرًا في نظام الاجتماع البشري...[٣].

هذا، بإيجاز مفصل، مجمل مقاصد القرآن الكريم في تفسير المنار، جامعة لما يحتاج إليه الإنسان، وما يشبع طموحاته التي تتفق والمقصد الأسمى من وجوده.

***

المبحث الرابع: في التفسير الموضوعي:

سلف أن ذكرنا تعريف مؤلفات علوم القرآن لهذا النوع من التفسير بأنه: التفسير الذي يتناول موضوعًا واحدًا، من خلال آية في السورة أو السور... كشفًا واستيعابًا...[٤].

في ضوء ذلك، نقرر أن الحقبة الزمنية التي ظهر فيها تفسير المنار فكرة وتطبيقًا كانت حبلى بالموضوعات والقضايا الإنسانية الكبرى والشائكة ذات الطابع المستقل والمشترك في آن واحد:

- مستقل؛ من حيث كونها تأخذ اتجاهًا عقديًّا أو اجتماعيًّا أو ماليًّا أو سياسيًّا واحدًا، تصطرع فيه الأفكار، وتتمذهب فيه الاتجاهات والآراء والنظريات؛ كقضية الإيمان والإلحاد والوقوف بينهما، وقضية النظم الاقتصادية والسياسية...

= مذموم، وأنه نعمة تستحق الشكر بحمد المعطي، وحفظ المال من الضياع وتسخيره لصالح الأمة وعز الدولة، وأداء حقوقه المفروضة.

(١) ن. تفسير المنار (١١/ ٢٧٦ - ٢٨٢).

(٢) ن.ن.م (١١/ ٢٨٣).

(٣) ن. تفسير المنار (١١/ ٢٨٨).

(٤) انظر: (ص ٩١).

- ومشترك، من حيث كونها قضايا إنسانية، القول في جانب منها يستدعي القول في الجانب الآخر، والبث فيها لا بد أن ينطلق من نظرة شاملة لكل أبعاد الإنسان؛ وجوده ومصيره ومكوناته وعلاقته بالكون.

وليس معنى هذا أن هذه القضايا لم تكن من قبل، وإنما نقصد أن الصراع الفكري قد احتدم فيها بجانب الصراع السياسي والحربي، عقب فترة الضعف والضمور التي سادت الأمة الإسلامية.

هذه الحالة ألقت بثقلها على تفسير المنار، فلم ينوء بكلكلها، فجاء تفسيرًا فريدًا في عصره فيما يخص التفسير الموضوعي، طابعُهُ المميز إفرادُ القضايا ذات الموضوع الواحد، التي تتطلب البحث حسمًا، أو بيانًا أو إصلاحًا؛ على هيئة فصل أو باب أو مبحث، بعناوين كبرى تجمع شتات الموضوع من خلال الآيات والأحاديث والآثار، ولا عجب فتفسير المنار يقرر أن « فهم القرآن لا يكون صحيحًا، إلا بالجمع بين الآيات المتقابلة في الموضوع الواحد الذي يختلف التعبير فيه باختلاف الوجوه والاعتبارات... »[١]. بل تستطيع أن تنزع من التفسير موضوعات شتى، وتمنحها الاستقلال الذاتي، فتأخذ صبغة مؤلف لا ينقصه إلا فهارس مواضعه.

إن هذا النمط من التفسير، بالإضافة إلى أنه يعكس صورة عصره، من ناحية معالجة القضايا فإنه - من جهة أخرى - يعكس وجهة نظر الإسلام، ومنهج القرآن في علاج القضايا الإنسانية، تحت مظلة شاملة، موحدة منبثقة من: وحدة الكون، وتفرد الخالق.

وإثباتًا للتفسير الموضوعي في « تفسير المنار » بالشكل الذي وصفناه نسوق بعضه مرتبًا تبعًا لترتيب أجزاء التفسير.

- الجزء الأول: ومما تجد فيه:

أ - تفسير صفة الرحمة على مذهب السلف[٢].

ب - تحقيق القدر المتحدى به في القرآن: جمعًا بين النصوص الواردة في (سورة البقرة[٣] والتي في سورة يونس[٤] والتي في سورة هود[٥])[٦].

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ١٩٨).
(٢) ن.م (١/ ٧٦).
(٣) الآيتان (٢٢، ٢٣).
(٤) الآية (٣٨).
(٥) الآيتان (١٣، ١٤).
(٦) ن: تفسير المنار: (١/ ١٩٣، ١٩٤).

ج - عقد فصل لبيان أوجه إعجاز القرآن، وكونها دالة على نبوة محمد ﷺ[١].

د - مبحث في سحر هاروت وماروت، من خلاله رد على ما ينسب إلى سليمان عليه السلام، أن ملكه قام على أساس السحر[٢].

كما خصص للموضوع نفسه فصلًا مستقلًا لبيان حقيقته وأنواعه عند تفسيره لقول اللّـه تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٠٩][٣].

- الجزء الثاني: ومما فيه:

أ - تفسير آيات الصيام[٤] وتحقيق ما اختلف فيها منها، وإدراج في هذا مسألة تحديد مواقيت الصلاة والصيام والحج والعيدين ووقت الإفطار[٥].

ب - تحقيق معنى كلمة الأمة في القرآن، منطلقًا من جمع الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة؛ وأنها تأتي بمعنى الملة والجماعة والسنين، والإمام الذي يقتدى به، وإحدى الأمم المعروفة[٦].

ج - نسبة قصص القرآن إلى التاريخ... وبيان حال الأمم قبل القرآن وبعده؛ وأن الغرض من القصص القرآني الاعتبار والاتعاظ وبيان سنن الاجتماع[٧].

- الجزء الثالث: ومما جاء فيه:

أ - تحديد الربا وبيان حكمه، وحكمة تحريمه، ومدى ضرر فشوه في حياة الأمة[٨].

ب - المحكم والمتشابه في القرآن[٩] وبيان معنى التأويل بالرجوع إلى ابن تيمية،

---

(١) ن. تفسير المنار (١/ ١٩٨).

(٢) ن.تفسير المنار (١/ ٣٩٨).

(٣) ن.ن.م (٩/ ٤٥)، وقد عرَّف السحر بأنه أعمال غريبة من التلبيس والحيل تخفى حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم بأسبابها...

وفي بيان أنواعه قال: إنه ثلاثة أنواع:

- أحدها: ما يعمل بالأسباب الطبيعية من خواص المادة المعروفة عند الساحر والمجهولة عند من يسحرهم بها.

- الثاني: الشعوذة التي مدار البراعة فيها على خفة اليدين في الإخفاء والإظهار.

- الثالث: ما مداره على تأثير الأنفس القوية الإرادة في الأنفس الضعيفة القابلة للأوهام والانفعالات، ن. تفسير المنار (٩/ ٤٧).

(٤) الآيات (١٨٢ - ١٨٧) من سورة البقرة.

(٥) ن. تفسير المنار (٢/ ١٨٠).

(٦) ن.ن.م (٢/ ٢٧٦).

(٧) ن.ن. م (٢/ ٤٧٠، ٤٧١).

(٨) ن. ن. م (٣/ ٩٣، ١٠٦، ١١٣).

(٩) ن.ن. م (٣/ ١٦٣).

لأنه منتهى التحقيق والعرفان[١] - على حد تعبيره - أثبت فيه أنه ليس في القرآن كلام لا يفهم معناه، وأن المتشابه إضافي... وأن التأويل الذي لا يعلمه إلا اللّـه، هو ما تؤول إليه تلك الآيات...[٢].

ج - آيات وأحاديث الصفات، مع بيان مذهب السلف والخلف في الصفات[٣].

- الجزء الرابع: ونجد من ذلك: «غزوة أحد» وما ورد فيها من الآيات والأحادي[٤].

- الجزء الخامس: وفيه مباحث في معنى قوله تعالى: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩].

- ٱلْمَبْحَثُ ٱلْأَوَّلُ: في أولي الأمر من الصدر الأول[٥].

- ٱلْمَبْحَثُ ٱلثَّانِي: في أولي الأمر بعد الراشدين.

- ٱلْمَبْحَثُ ٱلثَّالِثُ: أولو الأمر في زماننا، وكيف يجتمعون، وقد حددهم في: كبار العلماء ورؤساء الجند والقضاة وكبار التجار والزراع، وأصحاب المصالح العامة، ومديري الجمعيات والشركات، ورؤساء الأحزاب، ونابغي الكتاب والأطباء والمحامين الذي تثق بهم الأمة في مصالحها وترجع إليهم في مشكلاتها[٦].

- ٱلْمَبْحَثُ ٱلرَّابِعُ: أولو الأمر هم أهل الإجماع[٧].

- ٱلْمَبْحَثُ ٱلْخَامِسُ: القياس الأصولي[٨].

- ٱلْمَبْحَثُ ٱلسَّادِسُ: بناء الاجتهاد على المصالح العامة...[٩] إلخ.

- الجزء السادس: وما فيه:

أ - فصل في مباحث تتعلق بمسائل الصلب، عقده لبيان عقيدة النصارى في المسيح

---

(١) ن. الرسالة التدمرية (٣٧ - ٣٩).
(٢) ن. تفسير المنار (٣/ ١٧٢).
(٣) ن.ن. م (٣/ ١٩٦).
(٤) ن.ن.م (٤/ ٩٦).
(٥) ن.ن.م (٥/ ١٩٥ - ١٩٨).
(٦) ن.ن.م (٥/ ١٩٨، ١٩٩).
(٧) ن. ن.م (٥/ ٢٠١)، وعرف أولو الأمر إجمالًا بأنهم في كل قوم وكل بلد وكل قبيلة... من يثق بهم الناس في أمور دينهم، ومصالح دنياهم، لاعتقادهم أنهم أوسع معرفة وأخلص في النصيحة، ن. تفسير المنار (٥/ ١٩٥).
(٨) ن. تفسير المنار (٥/ ٢١٠).
(٩) ن. ن.م (٥/ ٢١١). إلى مباحث أخرى في معنى الجماعة (٥/ ٢١٣).
وفي معنى توسيد الأمر إلى غير أهله (٥/ ٢١٤).

وصلبه، مستنتجًا أن الإيمان بالفداء يؤدي إلى الإباحية وهتك الشريعة، وذلك إثر تفسيره لقول اللّـه تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] حاشدًا جميع الآيات في الموضوع، ونصوصًا من الإنجيل مع نقدها..[١].

ب - فصل في عقيدة التثليث، وفيه بين أصلها الوثني عند البراهمة والبوذيين وقدماء المصريين... مصححًا هذا المفهوم بنصوص القرآن الكريم[٢].

ج - فصل في طعام الوثنيين ونكاح نسائهم، واستعان فيه - على منهج الفقهاء - بالسنة واستنباطات الفقهاء، وذكر مذاهب الفقهاء الأربعة[٣].

- الجزء السابع: وفيه:

١ - مباحث في الإيمان، إثر تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩][٤].

٢ - فصل في شهادة غير المسلمين على المسلمين، معللًا عنايته بالموضوع بأنه بحث شرعي يجب أن نعطيه حقه من الاستقلال في الاستدلال[٥].

٣ - تجلية موضوع مفاتيح الغيب[٦]، وموضوع مقادير الخلق[٧] على نمط التفسير الموضوعي[٨].

- الجزء الثامن، ومما فيه:

أ - فصل في الرد على الجبرية[٩] والقدرية[١٠] بسنن اللّـه وآياتـه، وذلك في تفسيره

---

(١) ن. تفسير المنار (٦/ ٢٣) وما بعدها.
(٢) ن.ن.م (٦/ ٨٨).
(٣) ن.ن.م (٦/ ١٨٥) وذهب إلى أن المشركات اللاتي حرم اللّـه نكاحهن في آية [البقرة: ٢٢١] هن مشركات العرب فقط، وهو ما اختاره ابن جرير، ن. (٦/ ١٩٣) كما ذهب إلى جواز مؤاكلة أهل الكتاب وأن طعام المشركين لم يحرمه القرآن، ن. (٦/ ١٨٥).
(٤) ن. تفسير المنار (٧/ ٣٣).
(٥) ن.ن.م (٧/ ٤١).
(٦) في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].
(٧) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].
(٨) ن. تفسير المنار (٧/ ٤٦٩) وما بعدها.
(٩) الجبر: نفي الفعل عن العبد حقيقة وإضافته إلى الرب، والجبرية أصناف، والخالصة: هي التي لا تثبت للعبد فعل ولا قدرة على الفعل... ومنها الجهمية أصحاب جهم بن صفوان قتل في آخر ملك بني أمية، ن. الملل والنحل (ص ٨٦).
(١٠) القدرية: الفرقة القائلة بأن اللّـه تعالى لم يخلق أفعال العباد وأخرجوها عن قدرته وخلقه، انظر: شرح =

لقول اللّـه تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥] في حديث طويل[١].

ب – فصل في أبدية النار وعذابها، عقده لتفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٨] مرجحًا عدم الأبدية، تغليبًا لجانب الرحمة على الغضب، مستأنسًا بكلام لابن القيم في الموضوع في كتابه: « حادي الأرواح.. »[٢].

– وفي الجزء التاسع: نجد من التفسير الموضوعي:

١ – قصة موسى عليه السلام كما عرضها القرآن في سورة الأعراف، وفي سور أخرى ولا سيما المكية منها...[٣].

٢ – فصل في اختلاف المسلمين في الرؤية وكلام الرب، وتحقيق الحق فيهما، ومما يلاحظ في هذا الجزء بالذات تعدد الفصول والمباحث فيه أكثر من غيره[٤].

– وفي الجزء العاشر نجد منه:

١ – فصل في بيان سننه تعالى في تغيير أحوال الأمم وذلك في سياق تفسيره لقول اللّـه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣] ليوضح أن سعادة الأمم ليست منوطة بقوتها أو سعة ثروتها، وأن القرآن أثبت أن نعم اللّـه على الأقوام والأمم منوطة ابتداءً ودوامًا بأخلاق وصفات وعقائد وعوائد وأعمال تقتضيها.. فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من هذه العقائد والأخلاق... وما يترتب عليها من أعمال غير اللّـه عندئذ بأنفسهم، وسلب نعمته منهم[٥]...

٢ – فصل في حقيقة الجزية والمراد منها ومما تؤخذ..[٦].

٣ – حقيقة معنى الجهاد وإصلاح الإسلام فيه...[٧].

– ومن الجزء الحادي عشر نجد:

١ – فصل في إثبات نبوة محمد ﷺ وعرض فيه إلى تعريف الوحي وإثباته وتعريف

= العقيدة الطحاوية (ص ٣٠٥).

(١) ن. تفسير المنار (٨/ ٤٦).

(٢) ن.ن.م (٨/ ٦٩ – ٩٩).

(٣) ن.ن.م (٩/ ٣٧).

(٤) ن.ن.م (٩/ ١٢٨ – ١٩٢).

(٥) ن. تفسير المنار (١٠/ ٣٧).

(٦) ن.ن.م (١٠/ ٢٩٠ – ٣٠٦).

(٧) ن.ن.م (١٠/ ٣٠٦ – ٣٢١).

النبوة والأنبياء وبيان الخوارق ودحض الشبهات في هذه المواضيع[1].

٢ - تصنيف مقاصد القرآن في عشرة مقاصد[2].

- الجزء الثاني عشر: ومما فيه:

١ - آيات التكوين وما فيها من إعجاز القرآن العلمي[3] مع بسط لآيات التحدي[4].

٢ - تحقيق مسألة طاعة الأئمة والأمراء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود: ١١٣].. إلى مواضيع أخرى حفل بها تفسير المنار.

ونختم بالتنبيه إلى أنه يضع كخواتيم موجزة على أسلوب التفسير الموضوعي عند نهاية تفسير السورة، ابتداءً من سورة النساء[5].

***

---

(١) ن.ن.م (١١/ ١٤٦ - ١٩٤).

(٢) ن.ن.م (١١/ ٢٠٦ - ٢٨٨).

(٣) ن.ن.م (١٢/ ١٨).

(٤) ن.ن.م (١٢/ ٣٤).

(٥) على سبيل المثال انظر: (٦/ ١١٢، ٧/ ٢٧٦، ٨/ ٢٧٠).
واتخذ هذا المنهج عند استدلال التلميذ رشيد رضا بالتفسير، بعد وفاة شيخه محمد عبده سنة (١٣٢٣هـ).

الفَصْلُ الثَّانِي

رد الشبهات ومواجهة الفرق الإسلامية والعقائد الضالة

ٱلْمَبْحَثُ ٱلْأَوَّلُ: رد الشبهات حول الرسول والرسالة:

الصراع بين الحق والباطل صراع قديم، قدم الوجود البشري الذي هدي إلى النجدين « الفجور والتقوى »[١] فكان من ثم سنة كونية، تصاحب السلوك البشري في الوجود ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ ﴾ [البقرة: ٢٦] لتتحقق سنة الابتلاء ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤١].

وللصراع وجوه شتى، أهمها صراع الأفكار؛ إذ عن هذا الصراع يتولد رد الفعل العملي، دفاعًا أو هجومًا، تثبيتًا للأفكار أو دحضًا لها، ثم إن للصراع أساليب متنوعة، تختلف أشكالها تبعًا لعقلية وثقافة العصر والوسائل المتاحة في الوقت الذي يبقى فيه موضوع الصراع متميزًا، هدفًا للمحق أو التجديد أو الانتشار.

ولما أحس معسكر الشرك والكفر - وقت ظهور الرسالة المحمدية - من الإسلام بوادر الانتشار، ومن ثم تهديد وجوده ومصالحه، أصبح همه زرع الشكوك والخبال، يبغون من أسلم الفتنة بتشكيكهم في الدين، وتثبيطهم عن نصرته، وهي الغاية نفسها التي تقصدها معسكرات الكفر والطغيان في العصر الحديث[٢]، فلما وجدت دعاوى سلفها في الرسول لم تثمر في اتهامه بالسحر، والكهانة، أو أن ما جاء به من أساطير

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧، ٨].

وقال: ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۝٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴾ [البلد: ٨ - ١٠].

(٢) يقرر القرآن هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ ﴾ [البقرة: ١١٨].

الأولين اكتتبها... سخروا تدليسًا، ما سموه التحليل العلمي، والبحث المنهجي، والموضوعية... فقالوا عن رسول اللّـه ﷺ بطلًا وعبقريًا وعظيمًا وزعيمًا، قصد محو صفة النبوة عنه، تمهيدًا لنفي الرسالة ومضمونها. أو على الأقل التشكيك في صلاحية مبادئها لتنظيم الحياة البشرية... مستغلة ضعف الأمة وغيابها عن ساحة الصراع...[(١)].

وإذا اشتدت الهجمة في الاتجاه الفكري موازاة مع الاكتساح العسكري استجابت ثلة من علماء الأمة لهذه التحديات، فانبرت تبين حقيقة الإسلام بإثبات ظاهرة الوحي علميًا، وصدق النبوة موضوعًا وتاريخًا، وتفنيد المبادئ والفلسفات البشرية بنفس أسلحة الخصم.

إن تفسير المنار ميدان خصب - باعتباره تفسيرًا يمثل حاجة عصره - لرد الشبهات وتصحيح المفاهيم المنحرفة، ودحض العقائد الضالة، دفاعًا عن الرسالة ومبلغها وموضوعها..[(٢)].

في هذا الاتجاه يفند الشبهات التي تلفظ بها أعداء الإسلام، انطلاقًا من إثبات ظاهرة الوحي في نفسها، اعتمادًا على العقل بإثبات حاجة البشر إلى الرسالة، وعلى تاريخ النبوات وتطابق أحوالها، وعلى أقوال علماء الغرب وعلى إعجاز القرآن[(٣)]؛ دحضًا لما ادعي من أن الوحي لا يعدو أن يكون إلهامًا يفيض من نفس محمد، لا من الخارج، أو أن ما ادعاه مأخوذ من الكتب السماوية التي سبقته...[(٤)].

ومن الشُّبه التي تصدى تفسير المنار لها:

- ادعاء أهل الكتاب - ولا سيما دعاة النصرانية - أن ما وافق القرآن به كتبهم أنه مأخوذ منها، بدليل موافقته لها وفيما خالف أنه غير صحيح بدليل أنه خالفها، وفيما لم يوافقها ولم يخالفها، أنه غير صحيح أيضًا؛ لأنه لا يوجد في كتبهم...؟!!

وقد رد على هذا محتجًا على ما جاء في القرآن هو الحق « بما قام من الأدلة على نبوة

---

(١) يقول تفسير المنار: قام منذ مائتي سنة إلى اليوم رجال... يسمون هذه المدينة القائمة: المدينة المسيحية، ويقولون بوجوب محق سائر الأديان ومحوها؛ لأنها لا تتفق مع العلم، وفي مقدمتها الدين الإسلامي، وحجتهم على ذلك، حال المسلمين... الذين أمسوا وراء الأمم كلها في العلم، حتى سقطوا في جاهلية أشد جهلًا من الجاهلية الأولى (١/ ٢٥٠).

(٢) تفسير المنار (٨/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٣) ن.ن.م (١١/ ١٤٦، ١٤٧).

(٤) ن.ن.م (٣/ ٣٠٢، ١١/ ١٦٣).

محمد ﷺ مع حفظ كتابه، ونقله بالتواتر الصحيح، ومن الدلائل التي يشتمل عليها القرآن، معرفة قصص الأنبياء، مع كونه (الرسول) أميًا... وما جاء مخالفًا لما في الكتب السابقة هو تصحيح لما وقع فيها من الغلط والنسيان، بانقطاع أسانيدها »[١].

ومن هذه الشبه أن يقرأ دعاة النصرانية في بعض الأحيان كتب علماء الإسلام وينقلون منها كل طعن في الإسلام ورسوله ويكتمون رد علماء المسلمين عليه، أو يذكرون منه ما يرونه ضعيفًا، ويوردونه مورد الهزء والسخرية لتنفير ضعفاء العلم والعقل من المسلمين منه...[٢] والرسل في واقع الأمر بشر رجال، تجري عليهم كل شؤون البشر الفطرية.. ولكن اللّـه اصطفاهم وأكرمهم بالرسالة وحباهم بالوحي. وأكرمهم بتبليغه[٣]، ومن هنا قالوا شبهة أخرى وهي:

- **كون الرسول بشرًا ليس أهلًا للتبليغ عن اللّـه ﷻ؛ لأنه مثل المرسل إليهم؟** قال: « وهذه شبهة المتقدمين والمتأخرين من الكفار، وحجتهم داحضة؛ لأن كون الرسول بشرًا ليس أهلًا للتبليغ، لم تدعم بحجة ولم تؤيد ببرهان، بل باطلة بالبداهة، لأنها تقييد لمشيئة المرسل وقدرته، وهو الفعال لما يريد. وكون الرسول بشرًا مثلهم، يفهمون أقواله ويتأسون به وبأفعاله، هو المعقول الذي تقتضيه الفطرة وطبيعة الاجتماع[٤]. ومنها قول اليهود: إن القرآن يشهد لهم بأن عندهم التوراة فيها حكم اللّـه[٥] حتى إن بعض المبشرين ألف كتابًا سماه « شهادة القرآن لكتب أنبياء الرحمان » تعمية وتضليلًا، فكان رد تفسير المنار: « إن أهل الكتاب بحجتهم علينا بها قالوا، إلزامية، لا حقيقية؛ لأنهم لا يؤمنون بالقرآن... وهم يكتفون من إغواء المسلمين بتشكيكهم في دينهم،... ولكن هذا الإلزام لا يتم إلا إذا أخذت شهادة القرآن على هذه الكتب، مع شهادته لها، وقبول حكمه فيها؛ لأنه نص على أنه مهيمن رقيب[٦] له السيطرة عليها وما حكم به على اليهود والنصارى جميعًا، أنهم نسوا حظًّا مما ذكروا به فيما أنزله اللّـه عليهم.. »[٧].

- **ومنها: دعوى وجود الغلط النحوي في القرآن**، « فقد تجرأ بعض أعداء الإسلام...

---

(١) ن.تفسير المنار (٣/ ٣٠٢).
(٢) ن.م (٣/ ٣٠٢).
(٣) ن.ن.م (٢/ ٢٢٥)، و ن: (١١/ ٩٨، ٩٩).
(٤) ن.ن.م (٨/ ٢٧٩).
(٥) الآية (٤٢، ٤٣) من سورة المائدة.
(٦) قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].
(٧) تفسير المنار (١٠/ ٣٤٢).

وعد رفع الصابئين في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائدة: ٦٩]. من هذا الغلط... وهذا جمع بين السخف والجهل.

إن النحو استنبط من اللغة، ولم تستنبط اللغة منه، وإن قواعده إذا قصرت عن الإحاطة ببعض ما كتب عن العرب فإنما ذلك لقصور فيها – أي في القواعد – وأن كل ما ثبت نقله عن العرب فهو عربي صحيح، ولا ينسب إلى العرب الغلط في الألفاظ... ولكن قد يغلطون في المعاني.. فلو لم يكن المعترض ضعيف العقل أو حاقدًا... لنهاه عن هذا الاعتراض رواية هذا اللفظ عن النبي ﷺ وإن لم يؤمن بأنه منزل عليه من اللّـه ﷻ، فكيف وقد تلقته العرب بالقبول والاستحسان فكان إجماعًا عليه أقوى من إقرار الأندية الأدبية (الأكاديميات) »[1]. ومنه أيضًا، إنكار بعض الماديين لوجود الجنة والشياطين، لشبهة أنهم لا يرونهم، أو لأن وجودهم بعيد عن النظريات والمألوفات عندهم[2]. أدرج تفسير المنار هذه الشبهة بمناسبة تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ثم رجع إلى الشبهة داحضًا: بقوله: « لو كان الاستدلال بعدم رؤية الشيء على عدم وجوده صحيحًا وأصلًا ينبغي للعقلاء الاعتماد عليه، لما بحث عاقل في الدنيا عما في الوجود من المواد والقوى المجهولة، ولما كشفت هذه المكروبات التي ارتقت بها علوم الطب والجراحة... ولما عرفت الكهرباء التي أحدث كشفها هذا التأثير العظيم في الحضارة »[3].

إننا نجد تفسير المنار قد وظف الإنتاج الحضاري أحسن توظيف ببناء منهج الرد على نتائج العلم التي كانت سببًا في إثارة الشبهة. وفي الموضوع الذي بين أيدينا يقول: « فعل

---

(١) ن. تفسير المنار (٦/ ٤٧٨)، وقد خرج كلمة (الصابئون) تخريجًا نحويًّا وبلاغيًّا لطيفًا.

– النحوي: قال فيه: إن رفع الصابئون على وجوه، أشهرها أنه مبتدأ خبره محذوف أو معطوف على محل اسم إن، وهذا على مذهب الكوفيين فصيح، إذا كان اسم إن مبنيًّا كما هو هنا.

– البلاغة: نكتبه أن مخالفة (الصابئون) نسق عطف المنصوب على المنصوب هي تنبيه الذهن إلى أن الصابئين كانوا أهل كتاب... فتعليق نفي الخوف والحزن عنهم يوم القيامة مشروط بالإيمان الصحيح والعمل الصالح. ولما كان هذا غير معروف عند المخاطبين حسن في شرع البلاغة التنبيه إليه بتغيير نسق الإعراب، ن. (٦/ ٤٧٧).

(٢) ن. تفسير المنار (٨/ ٣٦٦). (٣) تفسير المنار (٨/ ٣٦٦).

جنة الشياطين في أنفس البشر كفعل هذه الجنة التي يسميها الأطباء المكروبات في أجساد الأحياء، تؤثر فيها من حيث لا ترى فتتقى »[1]. كذلك فإن « مداخل جِنَّةِ الشياطين في الأنفس وتأثيرها في القلوب والخواطر كمدخول تلك في الأجساد وتأثيرها في الأعضاء... »[2] واتقاء تلك كاتقاء هذه « فإن تلك باتخاذ الأسباب التي تمنع طروءها من الخارج وهو ما يسمى بالحجر الصحي، وبتقوية الأبدان والتغذية والنظافة... وهذه تتقى بتقوية الأرواح بالإيمان باللّـه تعالى وبإخلاص العبادة له والتخلق بالأخلاق الفاضلة »[3].

إن رد الشبهات حول الرسول والرسالة - في تفسير المنار - لَـمِمَّـا يميز هذا التفسير خاصة في أجزائه: السابع والثامن، والحادي عشر؛ إذ بنى بها فصولًا ومباحث لهذا الغرض، يفصل فيها الشبهة كما وردت عند القدامى والمحدثين ثم يرد عليها بأسلوب القرآن ولغة العقل ونتائج التجربة العلمية في عصره[4].

ولئن كان مرد تولد الشبه في صدر الإسلام وجاهلية العرب، عنصرية أهل الكتاب إلى جانب العوامل النفسية؛ كالكبرياء والغطرسة والغلو، فإن تولدها في عصر - تفسير المنار - وحتى الآن « ما توجد عليه سيرة المسلمين الجغرافيين والخرافيين في هذا العصر... حيث يشوه الإسلام وتطمس أنواره بدعوى أن سوء حال المسلمين ما جاءتهم إلا من تعاليم دينهم، والحق أنها ما جاءتهم إلا من جهلهم له، وتركهم لهدايته...

زد على هذا فشو البدع والخرافات فيهم، وإقرار بعض الحكومات لها.. أضف إليه ضعف رجال الدين الإسلامي أنفسهم وعجزهم عن إظهار حقيقة الإسلام لنابتة المسلمين العصرية وغيرهـم، بالبيـان والحجج المناسبة لحال العصر، ومقاومـة بعضهـم للإصلاح العلمي والمدني ما استطاعوا »[5]. وكأن الزمن لم يبرح مكانه منذ ستين سنة[6].

(١-٣) ن.م (٨/ ٣٦٤).

(٤) ن.ن. م (٧/ ٣٠٩) وما بعدها، وانظره مفصلًا في (١١/ ١٦٩ - ١٩٤).

(٥) تفسير المنار (١٠/ ٣٥٧، ٣٥٨).

(٦) من هنا يمكن القول: « إن تناول الحركة السلفية وأقطابها بالدرس، يعني من ضمن ما يعنيه التساؤل عن عوامل الاستمرار والانقطاع في التاريخ الحديث والمعاصر، عن العلاقة مع الآخر عن التناقض الرئيسي والتناقضات الثانوية »، ن. دروس حول الحركة السلفية: الواجهة الثانية من الورقة الأولى، منشورات الجامعة السلسلة الفكرية: (ص ١).

المَبْحَثُ الثَّانِي: رد الشبهات حول التشريع الإسلامي:

من الظواهر البارزة في تفسير المنار، تحديد المصطلحات التي يحيط بها الغموض الدلالي من حيث سياق استعمالها بمفاهيم مختلفة، متكئًا في هذا التحديد على استعمال القرآن وأهل اللغة، وهو في ذلك موفٌّ بأحد أصول منهجه في فهم القرآن[1].

في هذا الصدد حدد مفهوم التشريع الإسلامي في سياق تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]، قال: الشرعة والشريعة في اللغة: الطريق إلى الماء أو مورد الماء من النهر ونحوه، وهذا هو المستعمل عند العرب حتى الآن، وهي من الشروع في الشيء... ومنه سميت شرائع الإسلام، شرائع، لشروع أهله فيه، جاء عن قتادة[2] في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، قال: سبلًا وسنة، والسنن مختلفة؛ للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يحل اللّـه فيها ما يشاء، ويحرم ما يشاء... وفي رواية عنه: الدين واحد والشريعة مختلفة.

وظاهر قول قتادة، أن الشريعة أخص من الدين... وأنها الأحكام العملية التي تختلف باختلاف الأنبياء... وهذا يوافق أو يقارب عرف الأمم حتى اليوم. لا يطلقون الشريعة إلا على الأحكام العملية، بل يخصونها بما يتعلق بالقضاء، وما يتخاصم فيه إلى الحكام، دون ما يدان اللّـه تعالى به من أحكام الحلال والحرام[3]....

وعلى مستوى الاستعمال نرى « علم الشرع وعلماء الشريعة وكتب الشريعة، ألصق

---

(١) ن. (ص ١٣٨).

(٢) قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي أبو الخطاب البصري، الحافظ المفسر (ت: ١١٨هـ)، ن. طبقات المفسرين للداودي (١/ ٤٧، ٤٨).

(٣) ن. تفسير المنار (٦/ ٤١٣)، والدين هو الأصول الثابتة التي لا تختلف باختلاف الأنبياء، وأن مادة: « شرع » لم تذكر إلا في:

أ - هذه الآية.

ب - في سورة الشورى (١٣، ٢١)، وتدلان على أن وضع اللّـه للدين يسمى شرعًا.

ج - في سورة الجاثية: (١٨)، وهي بمعنى الفرائض والحدود والأمر والنهي، ن. تفسير المنار (٦/ ٤١٤).

بالفقه وكتبه وعلمائه، منها بعلم العقائد والأخلاق وعلمائها وكتبها »[١] ومن هنا يخلص إلى: « أن الشريعة اسم للأحكام العملية، وأنها أخص من كلمة « الدين » وإنما تدخل في مسمى الدين، من حيث إن العامل بها يدين اللّه تعالى بعمله... ويتوجه إليه مبتغيًا مرضاته وثوابه بإذنه »[٢]. وعليه فإن التشريع الإسلامي هو ما يعرف حاليًا بالنظم الإسلامية.

إن هذا التحديد لكلمة شريعة، في تفسير المنار هو في حد ذاته نوع من الرد على الشبهات بالنسبة لأولئك الذين يدعون أن الإسلام دين ينظم العلاقة بالإله، ولا دخل له في تنظيم الحياة البشرية... وإن اعترفوا بوجود تشريع إسلامي اتهموا بعض نظمه بالقصور أو بالقسوة أو بعدم مسايرة ركب التطور وحل مشكلات الإنسان المتجددة. وهذه الشبهة يقويها سوء الفهم وسوء التطبيق في حياة المسلمين العملية، مما يثقل كاهل المصلحين المخلصين من أبناء هذه الأمة.

في هذا الإطار كان رد فعل تفسير المنار، البحث عن أسباب ورود هذه الشبهات ثم تحديدها في وقوف « المسلمين في دينهم وشريعتهم عند الكتب التي ألفها المقلدون في القرون الوسطى وما بعدها، ولكن الزمن ما وقف... وصار الناس ينسبون كل ما هم عليه من الضعف والوهن والجهل والفقر إلى دينهم وشريعتهم، وسرى هذا الاعتقاد إلى الذين يتعلمون علوم أوروبا وقوانينها »[٣].

فمنهم من مرق من الإسلام بتفضيل تلك القوانين على الشريعة... ومنهم من ترك العمل بهذا الفقه في السياسة وأحكام العقوبات والمعاملات، واستبدل بها القوانين الأوربية[٤] فأدت هذه الحالة إلى « أن قويت... حجة أهل القوانين الوضعية على أهل الشريعة الإلهية، فظنوا أنها حجة على الشريعة نفسها »[٥].

هكذا أصبح الواجب الإيماني والظرف الزمني يقضيان برفع هذه الشبه وبيان حقيقة التشريع الإسلامي، وقدرته على حل المشكلات الإنسانية... وسموّه على سائر التشريعات البشرية، فكان مما أبان تفسير المنار عنه:

١ - حد القتلى في باب الحدود: « إذ يوجد في الناس، لا سيما أهل القوانين في زماننا

(١) تفسير المنار (٦/ ٤١٤).
(٢) ن.م (٦/ ٤١٤).
(٣) تفسير المنار (٥/ ١٩٤).
(٤،٥) تفسير المنار (٥/ ١٩٤).

هذا[١] من ينكر المعاقبة بالقتل، ويقولون: إنه من القسوة، وحب الانتقام في البشر... ويشددون النكير على من يحكم بالقتل... ويرون أن الحكومة إذا علمت الناس التراحم في العقوبات فذلك أحسن تربية لهم »[٢].

ولرفع هذه الشبهة وما ماثلها يستعمل تفسيرُ المنار نفسَ الأسلوب الذي استعمله الخصم؛ منطق العقل والعاطفة، استنادًا إلى تصرفات البشر في الواقع، يقول: « فإذا دققنا النظر في أقوال هؤلاء وجدناهم يريدون أن يشرعوا أحكامًا خاصة بقوم تعلموا على الطريقة الحديثة، وسيسوا بالنظام والحكم حتى لا سبيل لأولياء المقتول أن يثأروا له من القاتل... وجدت عندهم جميع وسائل التربية والمعالجة.. ومع هذا ترى كثيرًا من الناس، حتى المنتسبين إلى الإسلام يغترون بآرائهم ويرونها شبهة على الإسلام »[٣] في حين نجد الناقد البصير والعارف بمصالح الأمم... يرى أن القصاص بالعدل والمساواة هو الأصل الذي يربي الأمم والشعوب والقبائل كلها، وإن تركه بالمرة يغري الأشقياء بالجراءة على سفك الدماء... فقتل القاتل هو الذي يربي الناس في كل زمان ومكان ويمنعهم من القتل... فإن ارتفعت عاطفة الرحمة في شعب أو قبيل.. إلى أن صار أولياء المقتول عاطفة الرحمة في شعب أو قبيل... إلى أن صار أولياء المقتول منهم يستنكرون القتل ويرون العفو أفضل وأنفع، فذلك إليهم، والشريعة لا تمنعهم منه بل ترغبهم فيه... وهذا الإصلاح الكامل في القصاص هو ما جاء به القرآن الكريم[٤].

وها هي ذي عقوبة القاتل في القوانين الوضعية في كل أرجاء المعمور لم تستقر لها على حال، ولم تمنع الإنسان من سفك دماء أخيه لأتفه الأسباب، إن لم يكن هدرًا وشهوة وإشباعًا للنفوس ذات النزعة العدوانية في غياب شرع اللّـه.

٢ - مشروعية القتال من باب سياسة الدولة الإسلامية: تقرير القرآن أن ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] قاعدة كبرى من قواعد هذا الدين وركن عظيم من أركان سياسته، « فهو لا يجيز إكراه أحد على الدخول فيه، ولا يبيح لأحد أن يكره أحدًا من

---

(١) المقصود زمن المفسر، وذلك في العقدين الأولين من القرن الرابع عشر الهجري غير أن الأمر ما زال حتى الآن؛ إذ يوجد حتى من أهل الشريعة من يقول ذلك.

(٢) تفسير المنار (٢/ ١٢٣).

(٣) ن. تفسير المنار (٢/ ١٢٤).

(٤) ن.ن.م (٢/ ١٢٥).

أهله على الخروج منه. وإنما نتمكن من إقامة هذا الركن... إذا كنا أصحاب قوة ومنعة، نحمي بها ديننا وأنفسنا ممن يحاول فتنتنا في ديننا، اعتداءً علينا »[١].

بناءً على ذلك، يؤكد تفسير المنار « أن الجهاد ليس من جوهر الدين، ولا من مقاصده وإنما هو سياج له وَجُنَّةٌ، فهو أمر سياسي لازم له للضرورة، ولا التفات لما يهذي به العوام؛ إذ يزعمون أن الدين قام بالسيف وأن الجهاد مطلوب لذاته »[٢].

بتعبير آخر: « شرع القتال لتأمين الدعوة، ولكف شر الكافرين على المؤمنين لكيلا يزعزعوا ضعيفهم قبل أن تتمكن الهداية من قلبه، ويقهروا قويهم بفتنته عن دينه... »[٣] فلولا دفاع الباطل بالحق حتى تضع الحرب أوزارها وتقوى شوكة الإيمان، لغطى سيل الطغيان وجيش الشيطان أرض المعمور.

٣ – **تحريم الربا في باب التشريع المالي في الإسلام**: بتعبير تفسير المنار « يقول كثير ممن تعلموا وتربوا تربية عصرية: إن المسلمين منوا بالفقر، وذهبت أموالهم إلى أيدي الأجانب، وفقدوا الثروة والقوة بسبب تحريم الربا، ويجعلون هذه المسألة أهم المسائل الاجتماعية والعمرانية عند المسلمين... »[٤].

هذه شبهة منتزعة من واقع، رد عليها بقوله: « وهذه أوهام لم تقل عن اختبار؟! إن المسلمين في هذه الأيام لا يحكمون الدين في شيء من أعمالهم ومكاسبهم... فإن سلمنا أنهم تركوا أكل الربا لأجل الدين، فهل يقول المشتبهون أنهم تركوا الصناعة والتجارة والزراعة لأجل الدين...؟! ».

« الحق أن المسلمين في الأغلب، قد نبذوا الدين ظهريًا، فلم يبق عندهم منه إلا تقاليد وعادات، أخذوها بالوراثة[٥] والحال أنه « من مقاصد الإسلام الإصلاحية في الاجتماع البشري هداية الناس إلى العدل والفضل في أمر المال »[٦]. وأهله نبذوا مبادئه واشتروا بها ثمنًا قليلًا من متاع الدنيا الزائل بتعاطي أغنيائهم للربويات واضطرار فقرائهم للتعامل بها، فبئس ما يشترون.

---

(١) تفسير المنار (٣/ ٣٩). (٢،٣) ن.م (٣/ ٣٩).

(٤) ن.م (٣/ ١٠٦، ١٠٧) وقد عقد فصلًا لبيان حكمة التحريم وحججه فيها.

(٥) تفسير المنار (٣/ ١٠٦، ١٠٧) وقد عقد فصلًا لبيان حكمة التحريم وحججه فيها.

(٦) ن.م (١١/ ٢٩).

٤ - **تعدد الزوجات في باب التشريع الاجتماعي**: ونأخذ منه ما رد به على شبهة « جماهير الإفرنج الذين يرون مسألة تعدد الأزواج أكبر قادح في الإسلام »[١] قال: وشبهتهم هذه متولدة عن:

- تأثرهم بتقليدهم عن حال كثير من المسلمين الذين يتزوجون عدة زوجات لمجرد التمتع الحيواني من غير تقييد بما قيد به القرآن جواز ذلك.

- وبما يعطيه النظر من فساد البيوت، التي تتكون من زوج وعدة زوجات لهن أولاد يتحاسدون ويتنازعون[٢].

إن مسألة اجتماعية كبرى كهذه، يرى تفسير المنار أنه لا بد قبل الحكم فيها من النظر في:

أ - « طبيعة الرجل وطبيعة المرأة وما بينهما من فروق من حيث معنى الزوجية والغرض منها؟

ب - مسألة المعيشة المنزلية، وكفالة الرجل للنساء أو العكس؟

ج - تاريخ النشوء البشري.

د - هل جعل القرآن مسألة التعدد أمرًا دينيًّا مطلوبًا؟ أو رخصة تباح للضرورة وبشروط؟ »[٣].

- جوابًا على النقطة الأولى يقرر؛ أن الرجل إجمالًا بطبيعته أكثر طلبًا للأنثى منها له... وأنها تكون مستعدة للنسل نصف العمر الطبيعي للإنسان، فإذا لم يبح للرجل التزوج بأكثر من واحدة عطل نصف العمر الطبيعي للرجل من النسل الذي هو مقصود الزواج[٤].

- وعلى الثانية قال: « إن عدد الرجال أقل، لعدد من العوارض، إضافة إلى عدم قيام النساء عامة بأعباء الزواج... فإذا لم يبح التعدد تعطل العديد من النساء من

---

(١) ن.م (٤/ ٣٥١). (٢،٣) ن. تفسير المنار (٤/ ٣٥١).

(٤) ضرب المثل منقولًا على بعض العلماء مؤداه « لو تركنا رجلًا واحدًا مع مائة امرأة سنة واحدة، لجاز أن يكون لنا من نسله مائة إنسان، ولو عكسنا؛ فأكثر ما يمكن أن يكون إنسان واحد فقط... »، ن. تفسير المنار (٤/ ٣٥٣، ٣٥٤).

النسل، واضطررن إلى مجاهدة داعية النسل في طبيعتهن، وهذا يُحدث أمراضًا بدنية وعقلية واجتماعية، ثم إن اكتناه حال المعيشة الزوجية يوجب أن يكون الرجل هو الكافل، وأن المرأة هي مديرة البيت ومربية الأولاد، فما العمل والنساء قد يكن أكثر عددًا، وإذا رجعت إلى البحث في تاريخ النشوء البشري... تجد أن الرجل لم يكن في أمة من الأمم يكتفي بامرأة واحدة، كما هو شأن أكثر الحيوانات لا سيما والمرأة لا تكون مستعدة في كل وقت لغشيان الرجل إياها »[١]... ومع كل هذا يجب « ألا تنسى أن غاية الترقي في نظام الاجتماع وسعادة البيوت أن يتكون البيت من زوجين فقط »[٢].

بناءً على هذه المقدمات يجلي ما يمكن أن يتبقى من الشبهة بالاستنتاج التالي:

- أن الأصل في السعادة الزوجية هو أن يكون للرجل زوجة واحدة، إلا أنه قد يعرض ما يحول دون هذا المبدأ... وعليه فإن إباحة التعدد ضرورة تقدر بقدرها[٣].

- أن التعدد في الإسلام رخصة لا واجب... وهو مقيد بالشروط التي نطقت به الآية... وأكدته تأكيدًا مكررًا... والإفرنج يظنون أنها مسألة من مهمات الدين في الإسلام[٤].

- أن القرآن أتى في هذه المسألة بالكمال الذي لا بد أن يعترف به جماهير الأوربيين ولو بعد حين[٥].

ومما يلاحظ - ونحن بصدد رد الشبهات - أن تفسير المنار، لا يكتفي ببيان الشبهة وذكر أسبابها، وتفنيدها، وإنما يضيف إلى كل ذلك استنهاض الهمم من أجل القيام بواجب الإيمان، مسهلًا الطريق بوضع مناهج الرد، ومن هذا:

١ - « أن الأمة لو عرفت نفسها لعرفت ماضيها كما تعرف حاضرها، ولكن جهلها بنفسها وعدم قراءة ماضيها هو الذي أوقعها فيما هي فيه من البلاء العظيم، فهي لا تدري من أين أخذت ولا كيف سقطت... »[٦].

٢ - « نحن أحوج للرد عليهم والعناية بإرجاعهم إلى الحق منا إلى إقناع غير المسلمين بفضل الإسلام، مع بقاء أهله على هذه المخازي والآثام »[٧].

(١، ٢) تفسير المنار (٤/ ٣٥٦).
(٣) ن.ن.م (٤/ ٣٥٧).
(٤) ن.ن.م (٤/ ٣٥٨).
(٥) ن.ن.م (٤/ ١٠٦).
(٦) ن.ن.م (٤/ ١٠٦).
(٧) ن.ن.م (٤/ ٣٦٠).

فالأمر دعوة صريحة إلى القيام بإصلاح شأن الأمة بإقامتها على صراط القرآن وهدي الرسول ﷺ قبل أن نمد عيوننا وأفكارنا إلى الآخرين.

***

المبحث الثالث: مواجهة الفرق الإسلامية:

تعددت مناهج المهتمين بأمر الفرق الإسلامية في تحديد مقالاتهم ومذاهبهم وتصنيفًا، ومن أهم المناهج ما صار عليه الشهرستاني[1] في مؤلفه: « الملل والنحل »؛ حيث بنى منهج التصنيف على أربع قواعد كبار:

١ - الصفات والتوحيد فيها.

٢ - القدر والعدل فيه.

٣ - الوعد والوعيد، والأسماء والأحكام.

٤ - السمع والعقل، والرسالة، والإمامة[2].

ولتداخل العديد من الفرق[3] في بعضها على مستوى الأصول بحيث ذكر مقالة، يستدعي ذكر مقابلها، ولأن الغرض من التفسير ليس هو الغرض من التأليف في الفرق، فإن تفسير المنار اكتفى في مواجهة هذه الفرق بتفنيد أصولها، وتقويم هذه الأصول إن احتاج الأمر إلى ذلك؛ بالوقوف عند كل آية لها تعلق بالقواعد الأربعة، من وجهة نظر المنهج السلفي وبأسلوب التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

والغاية - كما يبدو في تفسير المنار - ليست هي تتبع الفرق وإحصاء مقالاتها؛ لذلك فإن حضورها في التفسير يكثر ويقل، تبعًا لأهمية الفرقة، وتأثيرها في الواقع الإسلامي المعرفي والعملي والاعتقادي، ولا سيما في عصر إنجاز هذا التفسير.

وعليه نرتئي بيان هذه المواجهة من خلال:

١ - الرد على المعتزلة.. ومن خلالهم على القدرية والجبرية وعلى من اقتضاه منهج الرد.

---

(١) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني، نسبة إلى: شهرستان. كان فقيهًا متكلمًا أصوليًّا، إمامًا... (ت: ٥٤٨هـ)، ن.طبقات الشافعية (٤/ ٧٨)، ولسان الميزان (٥/ ٢٦٣).

(٢) ن. الملل والنحل (ص ١٢، ١٣).

(٣) كتداخل الجهمية والمعتزلة والقدرية.

٢ – الرد على الشيعة... باعتبارها تمثل فرقة كبرى حاضرة في (تاريخ الإسلام).

٣ – الرد على الصوفية... وذلك لنفس الاعتبار السابق.

أ – الرد على المعتزلة والقدرية والجبرية:

من الظواهر البارزة، في مقالات الفرق الإسلامية، أن الكثير منها إن لم تكن كلها، تذهب إلى الاحتجاج بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية فيما استقر عليه اعتقادها، وتميز به مذهبها، وهذا خطأ منهجي أولًا. يترتب عليه الخطأ في الفهم ثانيًا – إن حسن القصد.

أدرك تفسير المنار منشأ هذا الخطأ فأبان عن أسبابه؛ لأنه يؤدي إلى الفهم المخطئ للقرآن الكريم، ومن ثم الوقوع في الخلاف، فالتباعد والافتراق.

الأول: هذه الأسباب: « دخول الأعاجم، من أديان مختلفة في الإسلام، وتلقيهم اللغة العربية بالتلقين والاقتباس والتعليم التقني.

الثاني: اختلاط اللسان العربي نتيجة هذا الدخول، إلى حد احتياجه لما احتاج إليه الأعاجم في تعلم اللغة.

الثالث: حدوث اصطلاحات علمية وفنية، إثر وضع العلوم الشرعية... واللغوية وترجمة كتب الأوائل، وما زيد فيها من الرياضيات والعقليات والوجدانيات... حيث امتزجت هذه الاصطلاحات بلغة القرآن والحديث... وصارت آلات لفهمها وسببًا للخطأ في تعيين بعض المراد منها.

الرابع: حشر الإسرائيليات والروايات الموضوعة والواهية في تفسير القرآن وفي كتب السنة »[1].

الخامس: اتخاذ حذاق النظار مذاهبهم أصولًا مسلمة، حملوا عليها نصوص القرآن وأخبار الرسول ﷺ لتصحيح مذاهبهم وإبطال مذاهب الخصوم[2].

هذا، ولم يكن اعتناء تفسير المنار، بمواجهة الفرق، اتباعًا لسنة من قبله من المفسرين، وإلا إظهارًا لقوته العلمية، بل إيضاحًا للحق، وإصلاحًا للمجتمع، وعودًا بالأمة إلى مناهج الفهم السليم لمصادر الإسلام.

قال عقب تفسيره قول اللّه تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ [الأنعام: ١٤٩]:

---

(١) تفسير المنار (٩/ ١٢٨).

(٢) ن.ن.م (٨/ ٤٤).

« وقد تمارى المعتزلة والأشعرية في تطبيق هذه الآيات على مذاهبهما في إنكار تعلق المشيئة الإلهية بما هو قبيح؛ كالشرك والمعاصي، وفي نفي عقيدة الجبر عند المعتزلة وإثبات الأشعرية لها، وقد جمعنا فيما جرينا عليه... بين رد الشبهتين؛ لأن المفتونين بهما إلى اليوم كثيرون.. »[١].

ولما سجل رأي المعتزلة أخذًا عن مفسرهم الزمخشري القائل: « بأن اللّـه ركّب في العقول وأنزل في الكتب ما دل على غناه وبراءته من مشيئة القبائح وإرادتها »[٢]. لما سجل ذلك أردفه برد الأشعرية عليهم: « بأن الرسل أثبتت وقوع كل شيء بمشيئة اللّـه وتدبيره، وإن كان قبيحًا، ممن فعله، لما يترتب من عقابه عليه، لإتيانه إياه باختياره، كالكفر والمعصية »[٣]. ثم رد قائلًا: « وقد احتج السلف بالآية على منكري القدر، وقبل حدوث مذهبي المعتزلة والأشعرية، فقد روى أكثر مدوني التفسير المأثور... عن ابن عباس، أنه قيل له: إن أناسًا يقولون: إن الشر ليس بقدر، فقال ابن عباس: بيننا وبين أهل القدر هذه الآية: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨، ١٤٩]. أي إن الآية الأولى رد على المجبرة في دعواهم بأن العبد لا اختيار له ولا قدرة... والآية الثانية رد على المعتزلة القائلين بأن العبد مختار في أفعاله، ولا تعلق لها بمشية اللّـه البتة[٤].

وفي سياق الرد على الفرق يقوم بعملية التقريب بينها، وبعملية بيان المفهوم السلفي ومنهجه، في مثل هذه القضايا، باستعمال أسلوب العصر، والتعابير القرآنية في قوالب علم الاجتماع البشري. قال في تفسيره لقول اللّـه تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].: « إن من سنته تعالى في البشر، أن يتبع هواه في أعماله، ويستمر على ذلك، ويدمنه الزمن الطويل، فتضعف إرادته في هواه... فلا تعود تؤثر فيه المواعظ القولية ولا العبر المبصرة، ولا المعقولة، وهذه الحالة يعبر عنها بالختم والرين والطبع على القلب... وأمثال هذه الأمثال المضروبة لهذه الحالة

---

(١) تفسير المنار (٨/ ١٧٨، ١٧٩).
(٢) الكشاف (٢/ ٧٧).
(٣) تفسير المنار (٨/ ١٨١).
(٤) تفسير المنار (٨/ ١٨١).

قد ضل بها الجبرية، غافلين عن كونها عاقبة طبيعية لإدمان الأعمال الاختيارية »[١]، إذ « من سنن اللّـه تفاوت البشر في العقائد والأخلاق والأعمال، وقابلية التحول من حال إلى حال، وليست مشيئته تعالى في التوبة على من يتوب عليه، إكراهًا لهم على الإيمان كما تزعم الجبرية، ولا من الخلق الأنف الذي تزعمه القدرية، بل هو بحسب المقادير الإلهية الثابتة بآيات التنزيل ونظام الاجتماع »[٢].

في هذا الإطار يجعل من تفسيره لقول اللّـه تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥] مناسبة لبيان تضاد « وجهة المجبرة - ومنهم جمهور الأشعرية - التي استندت بالآية على الجبر ونفي الاختيار... ووجهة المعتزلة القائلة بأن اللّـه تعالى لم يخلق أفعال العباد، وإنما نسبها إلى نفسه على سبيل التوسع »[٣].

ولتداخل الفرق - كما أسلفنا في بداية البحث - فإن تفسير المنار يذكر أن « مثل الجبرية مع القدرية هنا، كمثل المرجئة مع الوعيدية من الخوارج، وغيرهم في إثبات الوعد والوعيد »[٤]. والحق في مسألة « أفعال العباد... أنه قد ثبت بالحس والوجدان، وبالمئات من آيات القرآن، أن للناس أفعالًا يأتونها بإرادتهم وقدرتهم واختيارهم، تسند إليهم ويشتق منها صفات لهم، ويستحقون الجزاء عليها في الدنيا والآخرة، وأن اللّـه هو الذي أعطاهم القدرة والإرادة، والاختيار، كما أعطاهم الأعضاء والحواس...وهو يسند إليهم هذه الأعمال ويصفهم بها في المقامات التي تقتضي هذا الإسناد أو الوصف، ويسند بعضها إلى ذاته تعالى وإلى مشيئته، ويصف نفسه بما يليق به وصفه منها في المقامات التي تقتضي ذلك ».

والسبب في هذا الفهم المخطئ؛ هو أن هذه الفرق جعلت القرآن عضين، ولم تأخذ المعنى من مجموع الآيات التي تحدثت في الموضوع، مما يعد سببًا سادسًا من أسباب

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٦٣٦). وانظر (٧/ ٦٦٨) منه.

(٢) ن.م (١٠/ ١٩٦)، ون (٥/ ٤١٤) منه.

(٣) ن.م (١٠/ ١٩٧)، قائلة: لو جاز القول بأنه تعالى يعذب الكافرين بأيدي المؤمنين لجاز القول بأنه يعذب المؤمنين بأيدي الكافرين؛ لأنه الخالق لذلك.

(٤) ن.م (١٠/ ١٩٨).

الاختلاف، الذي نحن بصدد الحديث عن فرسان حلبته، « فهم ينظرون في كل آية تتعلق بقواعد هذه المذاهب مفردة... ولا يعرضونها على سائر الآيات التي في موضوعها »[١].

إنه واقع تفسير المنار، في هذا المجال، يجعلنا نقول - دون مجازفة - إنه ما ترك آية فسرها ولها تعلق باختلاف الفرق إلا أورد فيها أقوال منظري الفرق ورد عليها من وجهة نظر سلفية، بل يذهب إلى تخصيص فصول مستقلة للموضوع[٢].

ومع هذا نكتفي خاتمين المبحث برده على متأولي صفة العلو؛ حيث « ذهبت المعتزلة والأشاعرة إلى أن قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٨] تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقهر، صرح بذلك الزمخشري[٣] وتبعه بعض الأشاعرة؛ كالبيضاوي[٤] والرازي[٥].. جاعلًا ذلك قولًا بتحيز الباري في جهة معينة[٦].

ردًّا على هذا قال: « لفظ الآية لا يأبى ما فسره به الزمخشري وأمثاله؛ لأن له نظيرًا ذكروه في تفسيرها، وهو قوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾[٧] وبديهي أنه يعني فوقية المكانة المعنوية، لا المكان، ولو اكتفوا بهذا لكان حسنًا؛ لأنه في معنى ما نقل عن مفسري السلف، كابن جرير[٨]، ولكن منهم من شنع على السلف الصالحين، وسماهم حشوية لعدم تأويلهم الآيات والأحاديث الصحيحة الناطقة بإثبات صفة العلو المطلق للّٰه تعالى... فاللوازم التي يبني عليها الجهمية وتلاميذهم تأويل صفة العلو، مبنية كلها على قياس الخالق على المخلوق، والقديم على المحدث، ومن المعلوم أن جميع ما أطلق على اللّٰه تعالى من الصفات... إنما وضع في أصل اللغة لصفات البشر، وهي مباينة لصفات اللّٰه تعالى؛ فلذا يخصون بعضها بالتأويل دون بعض.

فالحق الذي مضى عليه سلف الأمة: أن اللّٰه تعالى يوصف بكل ما وصف به نفسه

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٤)، ون. أيضًا (٧/ ٤٠٤) منه.

(٢) ن.ن.م (٧/ ٤٥٩ - ٤٦٩).

(٣) ن. الكشاف (٢/ ١٠).

(٤) أبو الخير عبد اللّٰه بن عمر بن علي قاضي القضاة، كان إمامًا عارفًا بالفقه والتفسير والأصلين والعربية والمنطق، صالحًا متعبدًا زاهدًا (ت: ٨٨٥هـ)، ن. طبقات المفسرين (١/ ٢٤٨، ٢٤٩).

(٥) محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن المفسر المتكلم (ت: ٦٠٦هـ)، ن. طبقات المفسرين للداودي (٢/ ٢١٥، ٢١٦).

(٦) ن. مفاتيح الغيب (٢/ ١٣ و ١٣/ ١٤، ١٥).

(٧) ن. تفسير ابن جرير (ص ١٦١، ٢٦).

(٨) الأعراف: (١٢٧).

ووصفه به رسوله... مع تنزيهه عن مشابهة من تطلق عليهم ألفاظها من الخلق[1].

« ومن استعرض عقله عند تحقيق كل عقيدة أو مسألة ومجموع ما ورد فيها، يتجلى له الحق وأنه لا مجال للاختلاف في كتاب اللّـه سبحانه...

ففي الكتاب: أن اللّـه تعالى خلق كل شيء بقدر لا أنفًا جديدًا غير مرتبط بنظام سابق.

وفيه: أن كل شيء بإرادته ومشيئته وأن مشيئته مقرونة بحكمته التي اقتضت النظام والتقدير، وتنزه بها عن الأنف والجزاف والتفاوت.

وفيه: أن إيمان العبد المكلف يقع بفعله واختياره، وأن اللّـه هو الذي خلقه فاعلًا بالإرادة والاختيار. وبهذا لا يكون فعله وكسبه منافيًا لخلق اللّـه ومشيئته، ولا جاعلًا له، ولا مستقلًّا دونه تعالى مستغنيًا عن توفيقه وإمداده[2].

ب - الرد على الشيعة:

من الفرق التي ظهرت في صدر الإسلام، وتميزت بأصولها السياسية والعقدية، فرقة الشيعة، التي صارت اسمها بالغلبة علمًا على من يتولى عليًّا وأهل بيته، حتى صار لهم اسمًا خاصًّا »[3]، ولذلك عرفتها كتب الفرق بأنها من « شايعوا عليًّا ﷺ على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته، نصًّا ووصية... واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عن أولاده »[4].

وأهم ما يميزهم عن باقي الفرق الإسلامية الأخرى؛ الاعتقاد بالإمامة وأنها « منصب إلهي، كالنبوة، فكما أن اللّـه سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة.. فكذلك يختار للإمامة من يشاء، ويأمر نبيه بالنص عليه... ويشترطون أن يكون معصومًا - كالنبي - عن الخطأ والخطيئة »[5]، وهذا ما يميز الشيعة الإمامية الإثني عشرية، ذات

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٣٣٧، ٧/ ٣٩٠).

(٢) ن.م (٨/ ٤٥).

(٣) لسان العرب، مادة: شيع، وفيه: أصل الشيعة الفرقة من الناس، ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ ومعنى واحد. والشيعة أتباع الرجل وأنصاره.

(٤) الملل والنحل (ص ١٤٦).

(٥) أصل الشريعة وأصولها (ص ٩٨)، وفيه الإمام في الكمالات دون النبي وفوق البشر. والكتاب لآل كاشف الغطا من الشيعة الإمامية.

الحضور المستمر في تاريخ الأمة السياسي والاجتماعي والمعرفي، في صورة سجال مع أهل السنة والجماعة، عن فرق أخرى « يجري عليها وصف الشيعة. بعضها يدخل في دائرة الإسلام وبعضها ملحد خارج عن حدوده »[١]؛ إذ منهم من يبالغ في تقديس علي ﷺ، ومنهم من يطعن في الصحابة، ومنهم من اتخذ أصولًا مجوسية، إلى جانب تحريف بعضهم لمعاني القرآن ونصوص السنة، احتجاجًا لمذهبهم، ومن هنا يأتي اهتمام تفسير المنار بالشيعة والتشيع، خاصة في القضايا ذات الأثر السلبي على وحدة الأمة وعقيدتها ومن هذا:

- مسألة الإمامة وحصرها في عليٍّ وآله، و « مما استدلت به الشيعة في هذا قول اللّـه تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦] فقالوا: إنها ثابتة بالنص، بناءً على ما روي من نزول الملائكة على علي، وجعلوا الولاية فيها بمعنى التصرف في أمور الأمة... وسياق الآية يقول: إن الولاية ها هنا ولاية النصر، لا ولاية التصرف والحكم،؛ إذ لا مناسبة له في هذا السياق »[٢]...

ثم يُعْرِضُ تفسير المنار عن الجدال في الموضوع، لأنه « صار غير نافع فهو الذي فرق الأمة وأضعفها، فلا نخوض فيه »[٣] مكتفيًا بأنه « لو كان في القرآن نص على الإمامة لما اختلف الصحابة فيها، أو لاحتج به بعضهم على بعض،... ولم ينقل ذلك »[٤].

وأغرب من هذا التأويل ما قالته الشيعة في معنى قول اللّـه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧] فقد روت الشيعة عن الإمام محمد الباقر[٥]: أن المراد بما أنزل إليه من ربه، النص على خلافة عليٍّ بعده، وأنه ﷺ كان يخاف أن يشق بذلك على بعض أصحابه، فشجعه اللّـه بهذه الآية... وقالوا: روي عن ابن عباس... أنه ﷺ تخوف أن يقولوا حابى ابن عمه،... فلما نزلت الآية عليه في غدير خم[٦] أخذ بيد علي وقال: « من كنت مولاه فعلي مولاه: اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه... ».

---

(١) ن.ن.م (ص ٩٩) ون. الملل والنحل (ص ١٤٧).

(٢،٣) تفسير المنار (٦/ ٤٤٣).

(٤) تفسير المنار (٦/ ٤٤٣).

(٥) أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الباقر (ت: ١٥ أو ١٦ أو ١٨ بعد المائة من الهجرة) انظر تهذيب التهذيب (٩/ ٣١٢).

(٦) مكان بين المدينة ومكة بينه وبين الجحفة ميلان، ن. معجم البلدان (٤/ ١٨٨).

قال رادًّا: « أما الحديث، فقد رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وحسنه، وصححه الذهبي بهذا اللفظ، ورواه غيرهم بأسانيد ضعيفة »[١] وعلى فرض صحته، فإن « أهل السنة يقولون: إن الحديث لا يدل على ولاية السلطة، التي هي الإمامة أو الخلافة، ولم يستعمل في القرآن بهذا المعنى... بل المراد ولاية النصرة والمودة... ولو دل على الإمامة عند الخطاب كان إمامًا مع وجود النبي ﷺ والشيعة لا تقول بذلك »[٢] وكعادته يحجم عن الإطالة ويكتفي بالقول « بأن مسألة الإمامة لو كان فيها نص من القرآن أو الحديث لتواتر واستفاض، ولم يقع خلاف، ولتصدى عليٌّ للقيام بأمر المسلمين يوم وفاة النبي ﷺ ولكنه لم يفعل، ولم يحتج بالآية ولا أحد من آل بيته وأنصاره... لا يوم السقيفة[٣] ولا يوم الشورى بعد عمر[٤]... وهو الذي كانت لا تأخذه في اللّه لومة لائم ولم يعرف التقية[٥] في قول ولا عمل... »[٦].

هذا وقد أورد أيضًا ادعاء الشيعة بأحقية علي بالخلافة « احتجاجًا بها في الصحاح والسنن وكتب التفسير بالمأثور من جعل أبي بكر أميرًا على الحج سنة تسع... ثم أردفه بعلي، ليبلغهم عنه نبذ العهود وإعطاءهم مهلة أربعة أشهر، ويتلو عليهم الآيات المتضمنة لذلك »[٧].

قال في الرد معنونًا المقول بـ « شبهة الشيعة في المسألة »: « إن بعض الشيعة يكبرون هذه المنزلة لعلي كعادتهم فيستدلون بها على تفضيله على أبي بكر... وكونه أحق بالخلافة منه، ويزعمون أن النبي ﷺ عزل أبا بكر من تبليغ سورة براءة؛ لأن جبريل أمره بذلك... بل زعم بعضهم أنه عزل من إمارة الحج ليتولاها علي... وهذا بهتان صريح مخالف لجميع الروايات في مسألة يعرفها الخاص والعام.

(١،٢) تفسير المنار (٦/ ٤٦٦).

(٣) سقيفة بني ساعدة؛ حيث اجتمع الأنصار لمبايعة سعد بن عبادة، فحضر إليهم نفر من المهاجرين وقام فيهم أبو بكر خطيبًا مبينًا أن الأمر في قريش فسارع عمر إلى مبايعة أبي بكر فتتابع الناس.

(٤) ن. تاريخ ابن خلدون (٤/ ٩٩٤).

(٥) التقية: ما يقال أو يفعل مخالفًا للحق لأجل توقي الضرر، وينقل عن الشيعة أن التقية عندهم أصل من أصول الدين جرى عليه الأنبياء والأئمة... وينقل عنهم في ذلك أمور متناقضة... ولا يسلم نقل المخالف من الظنة... ن. تفسير المنار (٣/ ٢٨٠)، وقد نقلناه قصدًا.

(٦) ن. تفسير المنار: (٦/ ٤٦٦).

(٧) تفسير المنار (١٠/ ١٦١).

والحق أن عليًّا... كان مكلفًا بتبليغ أمر خاص وتابعًا في الإمارة لأبي بكر... حتى كان أبو بكر يعين له الوقت الذي يبلغ فيه... في حين عد جمهور الصحابة تأمير النبي ﷺ لأبي بكر على أول حجة للمسلمين... وتقديمه للصلاة قبيل وفاته تقديمًا للصديق على جميع الصحابة وترشيحًا له لتولي الإمامة العامة بعده[1].

واحتجاجًا لمشروعية المواجهة لرفع شبه الشيعة في عصر تفسير المنار، بيّـن في ختام هذا الرد، « بأن الشيعة قد نشطوا في هذه الأيام لدعاية الرفض والبدع، والصد عن السنة، والطعن في أئمتها مما جعله يبين الشبه ويذكرها في التفسير... فقد رأى في مصنف جديد لبعض الشيعة المعاصرين... أنه جعل تنويه القرآن بصحبة الصديق للرسول ﷺ في الهجرة، وإثبات معية اللّـه لهما في الغار، مما لا مزية له أمام عزل أبي بكر من إمارة الحج وتوليتها عليًّا »[2].

وتفضيل الشيعة لعلي يصل بهم إلى الطعـن في الصحابة، وخاصة الرافضة منهـم. وهذا ما نبه عليه تفسير المنار من خـلال تفسيره للآيات التي تتحـدث عن غزوة حنين في سورة التوبة[3]، بل ساق ذلك في عنوان مستقل سماه: (افتراء الروافض في غزوة حنين والطعن في جميع الصحابة وحفاظ السنة)[4] ادعى الروافض فيها « أن جميع الصحابة فروا جبنًا وعصيانًا... واستحقوا غضب اللّـه... إلا نفرًا قليلًا لا يتجاوزون العشرة ثبتوا بالتبع لعلي، وأنه لولا علي لقتل النبي وزال الإسلام من الأرض.. وأن عمر كـان من بين الفارين، بناءً على رواية البخاري عن أبي قتـادة، قال: « فإذا عمر بن الخطاب في الناس – فقلت – أي أبو قتادة -: ما شأن الناس، قال: أمر اللّـه ».

من هنا وجب الرد والبيان لهذا الجهل والافتراء، قال:

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ١٦١).

(٢) ن. م (١٠/ ١٦٢)، وفي البخاري كتاب التفسير، بـاب: ﴿ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة: ٢] عن أبي هريرة قال: « بعثني أبو بكر في تلك » الحجة « في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، قال حميد بن عبد الرحمن: ثم أردف رسول اللّـه ﷺ بعلي وأمره يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذن معنا علي يوم النحر في أهل منى ببراءة ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ».

(٣) الآيات (٢٥ – ٢٧).

(٤) ن. تفسير المنار (١٠/ ١٦٢).

١ - رواية البخاري معلقة[١] وليست مسندة كما جاء في الادعاء.

٢ - العبارة: « فإذا عمر في الناس » - محتملة؛ لذلك فسرها القسطلاني[٢] بأنه كان فيمن لم ينهزموا.

٣ - ثم متى كان عمر جبانًا يفر من القتال؟!!.

٤ - أن اللّـه تعالى لم يذكر في القرآن أن عليًّا ﷺ هو الذي نصر المؤمنين في حنين، لا بمنطوق ولا بمفهوم[٣].

وبحماسة المصلح، وحنكة الخبير، يفضح هذه الفرقة من الشيعة « لأنها شر مبتدعة هذه الملة، وأشدها بلاءً... ولو كانوا يقفون عند التضليل وأحقية الخلافة وإعادتها لآل البيت وتجديدها لإقامة الدين وإعادة مجد الإسلام، لأمكن الاتحاد مع أهل السنة... ولكن أنى هذا؟[٤].

وفي إطار الرَّدِّ يُبيّن تفسير المنار، أصل هذه الفرقة - الروافض - والفرق الشيعية الضالة بقوله: « فالذي سن لهم هذا الطعن في جمهور الصحابة الأعظم، عبد اللّـه بن سبأ اليهودي الذي أظهر الإسلام لأجل إيقاع الشقاق بين المسلمين... ثم عظم الدعوة زنادقة المجوس، بعد فتح المسلمين لبلادهم... ثم جعل الرفض[٥] مذهبًا له فرق ذات عقائد، منها ما هو كفر صريح، ومنها ما هو ابتداع قبيح »[٦] ولو فكروا لعرفوا « أن أصل الروافض من دسائس المجوس، أصحاب الجمعيات السرية العاملة للانتقام للمجوسية من الإسلام، الذي أطفأ نارها... على يد أبي بكر وعمر[٧]، جمعيات سرية أسست لإفساد الدين الإسلامي وإزالة ملك دعاته العرب، راجت دسائسها على شيعة آل البيت، وعلى العديد من المسلمين... لكنها لم تستطع أن تقضي على الإسلام »؛

---

(١) الحديث المعلق ما حذف من مبتدأ إسناده واحد أو أكثر، على التوالي وهو في البخاري كثير جدًّا... والكثير منه موصول في موضع آخر منه، ن. تدريب الراوي (١/ ٩٠).

(٢) أحمد بن محمد بن أبي بكر، من علماء الحديث، صاحب إرشاد الساري شرح صحيح البخاري (ت: ٩٢٣هـ)، ن. البدر الطالع (١/ ١٠٢، ١٠٣).

(٣) ن. تفسير المنار (١٠/ ٢٦٨). (٤) ن.ن.م (١٠/ ٤٥٩).

(٥) سموا رافضة لاشتراطهم على الإمام زيد وأتباعه من المصلحين البراءة من أبي بكر وعمر فرفضوا إمامته، ن. الملل والنحل (ص ١٥٥).

(٦) تفسير المنار (١١/ ١٦). (٧) ن.م (١٠/ ٢٢٥).

« لأنها لما كان لها ظاهر هو الإسلام على مذهب الشيعة الذي كان مذهبًا سياسيًّا، فصار مذهبًا دينيًّا، ولها باطن سري لا يعرفه إلا الرؤساء... غلبت عليهم الصبغة الدينية على السياسة، فكان العاقبة أن مرق بعض الشيعة من الإسلام في الباطن، واتخذوا الباطنية دينًا يدينون به، فيقولون بألوهية بعض آل البيت ويتأولون آيات القرآن... وقد تجدد للباطنية دين جديد في هذا العصر - عصر تفسير المنار - مبني على القول بألوهية رجل آل البيت هو البهاء الإيراني »[1].

هذا ولقد كانت المواجهة على مستويات أخرى في الفروع الفقهية؛ كقضية زواج المتعة[2] والمسح على الرجلين في الوضوء[3] والإرث من الرسول ﷺ[4].

ج - الرد على الصوفية:

من أهم خصوصيات الفكر السلفي، التي صاحبت نشأته وتصاحب استمراريته - تقويمُ أيِّ انحراف عقدي أو سلوكي، يطرأ على فهم الإسلام أو تطبيقه، من هنا كان تميز موقفه النضالي ضد الفرق والآراء والأهواء التي انحرفت، أو حاولت النيل من الإسلام.

والصوفية إن لم تصنف مع الفرق الإسلامية: « الثلاث والسبعين عند البعض، فإن هذا يعد إغفالًا »[5] إن لم يكن عدم إدراك لمبادئها، أو عملًا مقصودًا اتباعًا للهوى، بغير هدى من اللّـه أوقع صاحبه في عدم موضوعية البحث والتصنيف. ولنخل بينها وبين تفسير المنار، يتفرغ إلى حيثياتها؛ لأنه من جهة هو المسؤول في منهج بحثنا، ومن جهة ثانية قد أعطى الموضوع من التعريف والتصنيف والنقد والتقويم، ما وفى به مقصده الذي بينه بقوله: « وإنما نذكر الغرض منه بالإجمال، وما كان له بعد ذلك من آثار... دون ذكر تاريخ التصوف وبيان أحكامه وطرقه »[6].

كل ذلك في إطار إصلاحي ومنهج سلفي، ينشد بها ضالة كانت ولا زالت الشغل الشاغل لكل مسلم صادق: إعادة بناء المجتمع الإسلامي.

---

(١) سنرجع إلى هذا في عنصر خاص قادم بحول اللّـه.

(٢) تفسير المنار (٥/ ١٠) وما بعدها.

(٣) ن.ن، م (٦/ ٢٣١) وما بعدها.

(٤) ن.ن.م (٤/ ٤٠٨).

(٥) تفسير المنار (٩/ ١٦٦).

(٦) ن.م (٢/ ٧٢).

في تعريفهم يقول: « الصوفية فرقة من فرق المسلمين المختلفين في الأصول[١]، وهم لا يقلدون إمامًا واحدًا في الفروع، بل منهم المجتهدون فيها، ومنهم المقلدون لأهل المذاهب المشهورة... »[٢].

وعن موقفهم من الصحابة وعلماء الأمة يقول: « وجمهورهم يجلون الصحابة، ولا سيما الخلفاء الراشدون، وعلماء السلف، ولا سيما العباد منهم، ومنهم المعتدلون وأهل الحديث... ومنهم الغلاة الذين مرق بعضهم من الإسلام بنزعات الباطنية »[٣].

أما عن تاريخ ظهور التصوف وأسباب هذا الظهور فيقول: « إنه ظهر... في القرون الأولى للإسلام، فكان له شأن كبير، وكان الغرض منه أول الأمر تهذيب الأخلاق وترويض النفس بأعمال الدين... »[٤] ولكن فقدان التوازن في التربية الذي أدى إلى ظهوره؛ هو أيضًا الذي أدى إلى انحرافه، « فلقد ذر قرنه في أواخر القرن الثاني، وظهر الشذوذ في المنتحلين له في القرن الثالث »[٥]؛ ذلك أن التصوف في أصله كان « فهم الكتاب والسنة مع التحقق بمعارفهما، وأخذ النفوس بالعمل بهما، دون ما تقليد لأهل الظاهر، ولا جمود على الظواهر »[٦]... « إذ تواتر عن شيوخ الصوفية المتقدمين أن أصل طريقتهم اتباع الكتاب والسنة، وموافقة السلف »[٧].

« ولا شك أن خير صوفية هذه الأمة، السابقون الذين كانوا لا يتصوفون إلا بعد تحصيل علم الكتاب والسنة والفقه والاعتصام بالعمل على طريقة السلف، كالإمام الجنيد وطبقته[٨]. ثم ظهر فيهم الغلاة، ومن يسمون صوفية الحقائق، فابتدعوا ما أنكره عليهم الأئمة[٩]. وصوفية الحقائق « أقرب إلى الفلاسفة الروحيين الإشراقيين

---

(١) المقصود بالأصول هنا ما يعرف في علم العقائد بأصول الدين، والمقصود بالفروع الأحكام العملية من صلاة وصيام وزكاة وما تعلق بها.

(٢،٣) تفسير المنار (٩/ ١٦٦).

(٤) تفسير المنار (٢/ ٧٢).

(٥) ن.م (١١/ ٤٤٩).

(٦) ن.م (٢/ ٧٤).

(٧) ن.م (١١/ ٤٥٠).

(٨) أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي: هو أول من تكلم في علم التوحيد في بغداد، وإمام الدنيا في زمانه، وشيخ المذهب الصوفي ضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة، سالمًا من كل ما يوجب اعتراض الشرع (ت: ٢٩٧هـ)، طبقات الصوفية (ص ١٥٥)، ن. طبقات الشافعية (٢/ ٢٨)، والفهرست (ص ٢٦٤).

(٩) تفسير المنار (١٠/ ٣٧٨).

وإلى قدماء الشيعة منهم إلى أهل السنة والأثر »[١]. ويقابل هؤلاء « صوفية الأخلاق، وأهل السنة منهم »[٢]. فالذين حادوا عن الطريق « خلطوا البدع بالسنن وزعموا أنهم يأخذون علومهم عن الحي الذي لا يموت مباشرة، وأن علماء التفسير والحديث، يأخذون علومهم عن الميتين؛ كالفقهاء والمتكلمين، وهذا أساس الابتداع، بل المروق من الدين »[٣]؛ لأن هذا رد للشريعة وهدم لأصول الدين، « فمن أين نعلم أو يعلمون أن خواطرهم التي يسمونها الواردات من الإلهام الإلهي لا من الوسواس الشيطاني. وكيف نسلم لهم ما لا نعلم... ثم كيف لا ننكر عليهم ما نراه مخالفًا للكتاب والسنة وآثار السلف... وموافقًا لإلحاد الباطنية... أو بدع الخلف »[٤].

إذن كيف تحول بعض الصوفية عن أصل الطريق؛ الاستمداد من الكتاب والسنة، وسلوك السلف؟ نجد السبب الأكبر لهذا الزيغ « أن من اشتغل بكثرة ذكر الله – التي هي أقرب الطرق إلى معرفته وحبه – يحصل له في أثناء ذلك من كشف[٥] أسرار الكون والمشاهدات، والأذواق الروحية ما يفتنه بنفسه وخواطره وذوقه، فيتوهم أن كل ما يشعر به ويتخيله، حقيقة أثبتها الكشف، كما يفتتن المشتغلون بالفلسفة النظرية، بما يظهر لهم من النظريات... فيظنون أنها حقائق أثبتها العقل... وكل من الفريقين يظن أن ما عنده هو الحقيقة، وإن خالف نصوص الشريعة »[٦].

ومن هنا سموا صوفية الحقائق، اعتقادًا منهم أن الذوق الفردي لا الشرع ولا العقل – هو وحده سبيل المعرفة ومصدرها... وهو الذي يُقوّم حقائق الأشياء، ويحكم عليها بأنها حق أو باطل[٧] وعلى هذا قرروا « أن الشريعة شيء والحقيقة شيء آخر، فإذا اقترف أحدهم ذنبًا فأنكر عليه منكر قالوا في المجرم: إنه من أهل الحقيقة،

(١، ٢) ن.م (٩/ ١٦٦). (٣) ن.م (١١/ ٤٥٠).

(٤) تفسير المنار (١١/ ٤٥١).

(٥) قال صاحب التعريفات، باب الكاف: « الكشف في الاصطلاح هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجودًا وشهودًا »، عند رشيد رضا: « ضرب من الإدراك النسفي غير ثابت ولا مطرد، فهو ليس دليلًا شرعيًا ولا عقليًا وإنما هو إدراكات ناقصة.. تقع للبر والفاجر ويعترف به الصوفية المسلمون لصوفية الهندوس وغيرهم. كما يعترفون بتلبيس الشياطين عليهم فيه. ن. تفسير المنار: (١١/ ٤٤٧).

(٦) تفسير المنار (١٠/ ٢٤٠، ٢/ ٢٣٩، ٧/ ٤٣٧).

(٧) ن. هذه الصوفية (ص ٢١).

فلا اعتراض عليه، وفي المنكر: إنه من أهل الشريعة فلا التفات إليه »[١]. ومن آتاه اللّـه نصيبًا من علم الحقيقة، في زعم الصوفية، كان أتقى للّـه من سواه، فلقد « اشتهر على ألسنة المدعين للتصوف في معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] أن التقوى تكون سببًا للعلم، وبنوا على ذلك أن سلوك طريقهم، وما يأتونه فيها من الرياضة وتلاوة الأوراد والأحزاب تثمر لهم العلوم الإلهية وعلم النفس... بدون تعلم. وهذا الزعم فتح للجاهليين الذين يلبسون لباس الصلاح، دعوى العلم باللّـه، وفهم القرآن والحديث، ومعرفة أسرار الشريعة، من غير أن يكونوا قد تعلموا من ذلك شيئًا... ويسمون هذا بالعلم اللدني »[٢].

على أن هناك عاملًا آخر من عوامل انحراف التصوف وفساده، تبعًا لتفسير المنار، ذلك أن « الصوفية ابتلوا في أول أمرهم بالفقهاء الذين جمدوا على ظواهر الأحكام المتعلقة بالجوارح والتعامل. فكان هؤلاء لا ينكرون عليهم معرفة أسرار الدين، ويرمونهم بالكفر، وكانت الدولة والسلطة للفقهاء، لحاجة الأمراء والسلاطين إليهم، فاضطر الصوفية إلى إخفاء أمرهم، ووضعوا الرموز والاصطلاحات الخاصة بهم »[٣].

بل أحدثوا طرقًا للتربية، خاصة بهم تكيفًا مع وضعيتهم هذه؛ حيث « جعلوا للشيخ سلطة خاصة على مريديه، حتى قالوا: يجب أن يكون المريد مع الشيخ كالميت بين يدي الغاسل؛ لأن الشيخ يعرف أمراضه الروحية وعلاجها، فإذا أبيح له مناقشته تتعذر معالجته، فلا بد من التسليم، ولو أمره بمعصية... فكان من قواعدهم التسليم المحض والطاعة العمياء »[٤] ثم أحدثوا إظهار قبور من يموت من شيوخهم والعناية بزيارتها، لأجل تذكير سلوكهم، ومجاهدتهم؛ لأن التذكير من أسباب القدوة والتأسي. « والتأسي هو طريق التربية والتقويم »[٥].

إن هذا الخطأ الذي نشأ من تعيينهم لطرق المعرفة في غياب الشرع، وسلوكهم في طرق التربية مسلك سلب الإرادة أفسد عليهم مقاصدهم « فلم يبق من رسومهم الظاهرة

---

(١) تفسير المنار (٢/ ٧٣). (٢) تفسير المنار (٣/ ١٢٨، ١٢٩).

(٣) ن.م (٢/ ٧٢) ويذكر أن العلماء اتفقوا على أن من خاض في كلام صوفية الحقائق غير عالم برموزهم، ضل، وربما كفر، ن. (١٠/ ٣٨٠) منه.

(٤،٥) ن.م (٢/ ٧٣).

إلا أصوات وحركات يسمونها ذكرًا.. وإلا تعظيم قبور المشايخ... مع الاعتقاد بأن لهم سلطة غيبية تعلو الأسباب التي ارتبطت بها المسببات... بها يديرون الكون ويتصرفون فيه كما يشاؤون... وهذا الاعتقاد هو عين اتخاذ الأنداد، وهو مخالف لكتاب اللّـه وسنة رسوله، وسيرة السلف الصالح... »(١)، ومن هنا قرر المهتمون بالبحث عن أسباب سقوط المسلمين « أن التصوف من أعظم أسباب هذا السقوط »(٢) وينضاف إليه سببٌ آخر، هو انحطاط الفقه وضعفه؛ إذ لما « فسد التصوف... وضعف الفقه، فصار مناقشة لفظية... اتفقت المتفقهة الجامدون، والمتصوفة الجاهلون، وأذعن أولئك إلى هؤلاء... وسلموا لهم ما يخالف الشرع والعقل، على أنه الحقيقة، فصرت ترى العالم الذي قرأ الكتاب والسنة والفقه يأخذ العهد من رجل جاهل أمي »(٣).

وهذا حال لم تخل منها أكثر بلاد المسلمين حتى الآن؛ إذ تجد مثل هؤلاء الجهال « يضعون للناس الأوراد والأحزاب... ويجعلونها لهم كشعائر الدين المنصوصة... وتوقيتها لهم؛ كالصلوات »(٤) فإذا بحث « العالم البصير عن سبب عناية كثير من العوام بهذه الأحزاب والأوراد... وإيثارها على التعبد بالقرآن والسنة، مع إيمانهم بأن ما ورد في الكتاب والسنة أفضل... لا يجد إلا ما أرشدت إليه الآية(٥) من شرك أهل الكتاب باتخاذ رؤسائهم أربابًا من دون اللّـه بإعطائهم حق التشريع... »(٦).

ومما جعله الصوفية من قبيل الشعائر، بدع المعازف والطبول والرقص، التي ابتدعوها في ذكرهم، وهذا يعد من الظواهر الكبرى التي « شوهت سيرة مدعي التصوف في هذا الزمان... وصارت رسومهم أشبه بالمعاصي والأهواء؛ من رسوم الذين أفسدوا التصوف من قبلهم. وأظهرها ما في الاحتفالات التي يسمونها الموالد »(٧).

بل « إن متصوفة هذا الزمان ممن يستحوذ عليهم الجهل والنفاق قد اتخذهم الأجانب جواسيس ودعاة للاستعمار، محتجين بشبهة الرضا بالأقدار، ومن شيوخهم

(١-٣) تفسير المنار (٢/ ٧٣). (٤) ن.م (٢/ ٣٧٤).

(٥) هي قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [التوبة: ٣١].

(٦) تفسير المنار (١٠/ ٣٧٤). (٧) ن.م (٢/ ٧٤).

من يأخذ الرواتب المالية، ومن نال بعض الأوسمة الشرفية »[١] فالقبورية والطرقية، وكل مظاهر الشعوذة ومذاهب الباطنية التي أدخلت في الإسلام وكذا دخول الاستعمار إلى البلدان الإسلامية، كان من منافذها الرئيسية؛ التصوف »[٢].

قد يقال: « إن في بعض كتب الصوفية كثيرًا من المعارف والفوائد.. » (هذا صحيح) « ولكن أكثرها قد أفسد في دين هذه الأمة ما لم تبلغ إلى مثله شبهات الفلاسفة وآراء مبتدعة المتكلمين... »[٣] ولا ينبئك مثل خبير، فإن تفسير المنار، نتاج من جرَّب الصوفية وخبر أعماقها، ومما يستشهد به « أن أبا زرعة[٤] سئل عن الحارث المحاسبي[٥] وعن كتبه. فقال للسائل: إياك وهذه الكتب... عليك بالأثر فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب، قيل له: في ذلك عبرة.. قال: من لم يكن له في كتاب اللّـه عبرة، فليس له في هذه عبرة »[٦].

فإن كنت ولا بد فاعلًا فعليك بمؤلفات صوفية الشريعة[٧] فإن « من أحب أن يستفيد من كلام الصوفية في الحقائق، مع التزام السنة وسيرة السلف... فعليه بكتاب « مدارج السالكين » فإن فيه خلاصة معارف صوفية الشريعة، مع الرد على ما خالفها، وكذلك كتاب « الآداب الشرعية والمنح المرعية » فهو مستمد من نصوص الكتاب والسنة »[٨].

***

---

(١) ن. تفسير المنار (١٠/ ٣٨١).

(٢) ن.ن.م (٨/ ٤٢٨، ١١/ ٥٣، ١١/ ٤٢٠ - ٤٢٦).

(٣) ن.ن.م (١٠/ ٣٧٨).

(٤) عبيد اللّـه بن عبد الكريم المخزومي الرازي أحد الأئمة الحفاظ، شيخ مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه، قال عبد اللّـه بن أحمد بن حنبل: نزل أبو زرعة عند أبي فسمعت أبي يقول: ما صليت إلا الفرض استأثرت بمذاكرة أبي زرعة (ت: ٢٦٤هـ)، ن. تهذيب التهذيب (٧/ ٣٠ - ٣٣).

(٥) أبو عبد اللّـه الحارث بن أسد المحاسبي من علماء المشايخ الصوفية، فقيه مصنف (ت: ٢٤٣هـ)، ن: طبقات الصوفية (ص ٥٦)، وتقريب التهذيب: (٥٩).

(٦) ن. تفسير المنار (١٠/ ٣٧٨، ٣٧٩).

(٧) قسم الصوفية إلى: صوفية الفلسفة (صوفية الحقائق) وصوفية التقليد: أهل الطرق والزوايا، وصوفية الأخلاق، وهم من خيار أولياء هذه الأمة، ن. تفسير المنار (١١/ ٤٣٣، ٤٣٤).

(٨) الكتاب لابن مفلح الفقيه الحنبلي (ت: ٧٦٣هـ).

المَبْحَثُ الرَّابِعُ: مواجهة العقائد الضالة:

١ - الرد على اليهود وبيان خطرهم:

من أشد الناس عداوة للإسلام وأهله، اليهود هذا ما صرح به القرآن الكريم[١] ولعله لهذا بسط القول في بيان عقيدتهم وتحريفهم للتوراة ومشاكستهم للأنبياء، بل وقتلهم كما وضح تمرد نفوسهم على الخداع والمكر؛ فقد وقف اليهود من الإسلام موقف العداء وإعلان الحرب الباردة عليه، منذ ظهوره، لمجرد أن كان المرسل من بني عمومتهم! بني إسماعيل، وليس من بني إسرائيل[٢].

ومع كل هذا فقد شهد القرآن الكريم للبعض من أهل الكتاب - ومنهم اليهود - بالاستقامة على الهدى في قول اللّـه تعالى: ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣]. اتفاقًا مع هذا الميزان الرباني الكريم، وضع الرسول ﷺ قاعدة علمية، فاصلة في أخبار بني إسرائيل الواردة على طريقهم، في قوله ﷺ: « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا باللّـه وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم »[٣].

هذه الأخبار التي لم تلتزم فيها بعض الجهات العلمية، هذه القاعدة النبوية، كانت الباب الواسع الذي دخلت منه دسائس بني إسرائيل ومكرهم، ولا سيما في مأثور التفسير.

والمدرسة السلفية منذ نشأتها قد ألحت على بيان وفضح دسائس اليهود، في ما يعرف في ميدان المعرفة الإسلامية: بعلم الجرح والتعديل وعلم الرجال وعلم النقد.

وسيرًا على المنهج السلفي تولى تفسير المنار، في إطار ظرفه التاريخي الذي تميز بانهيار الخلافة الإسلامية، واشتداد مخاض قضية الأرض المقدسة بسبب بحث اليهود عن وطن قومي يؤسسون فيه دولة.

تولى هذا التفسير كشف الكيد اليهودي الصهيوني من خلال الحقائق التاريخية والاجتماعية

---

(١) وذلك قوله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ [المائدة: ٨٢].

(٢) ن. سيرة ابن هشام (١/ ٥١٣).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء عن أبي هريرة.

والنفسية التي تحدثت عنها آيات القرآن الكريم، مواجهة للفكر اليهودي عامة، والحركة الصهيونية خاصة.

فاليهود في كيدهم للإسلام غالبًا ما توجههم تعاليم التوراة المحرفة؛ لذا كانت المواجهة في تفسير المنار، تنطلق غالبًا من هذه التوراة لبيان التحريف فيها أولًا، ولتحذير المسلمين من سلوك اليهود المتولد عن تحريف الكلم عن مواضعه، وعن نسيانهم لحظ كبير مما ذكروا به، « فالتحقيق الذي عليه المطلعون على تاريخ القوم وتوراتهم هو أن التحريف اللفظي والمعنوي... كلاهما واقع.

فالتوراة التي كتبها موسى... وأخذ العهد والميثاق على بني إسرائيل بحفظها قد فقدت قطعًا، باتفاق مؤرخي اليهود والنصارى... وهذه الأسفار التي ينسبونها إلى موسى... بها نصوص قاطعة على كون الكاتب كان بعد موسى بزمن يظهر أنه طويل، وما كتب ليس من التوراة في شيء »[1].

والمشهور عند اليهود أنفسهم « أن التوراة فقدت عند سبي البابليين لهم، فلما عادت إليهم الحرية في الجملة، حملوا ما كانوا قد حفظوه من التوراة... ونسوا الباقي »[2].

والتعبير بالنصيب في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾[النساء: ٤] يدل على أنهم لم يحفظوا كتابهم كله، وذلك أنهم لم يحفظوه في زمن إنزاله عن ظهر قلب، كما حفظ القرآن، ولم يكتبوا منه نسخًا متعددة في العصر الأول... بل كان عند اليهود نسخة واحدة من التوراة، هي التي كتبها موسى »[3]. على حد زعمهم.

إن تفسير المنار، يقيم الدليل على عدم ثبوت التوراة من التوراة نفسها. يذكر أنه « ورد في الإصحاح الحادي والثلاثين »:... عندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها، أمر موسى اللاويين... قائلًا: « خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم، ليكون شاهدًا عليكم؛ لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة »[4] ومع هذا « فخبر موت موسى، وكونه لم يقم في بني إسرائيل نبي مثله إلى وقت الكتابة... معدودان من التوراة »[5] فكيف حدث هذا؟ ثم إن علماء

---

(١) تفسير المنار (٦/ ٢٨٣).
(٢) النساء: (٥١).
(٣) تفسير المنار (٥/ ١٣٧).
(٤) تفسير المنار (٣/ ١٥٦).
(٥) تفسير المنار (٣/ ١٥٧).

اللاهوت من النصارى قد اعترفوا بفقدان توراة موسى »[١]. ويضيف تفسير المنار أن « علماءهم ورؤساءهم زادوا لهم كثيرًا من الأحكام والرسوم والتقاليد الدينية[٢] وأن « ملك الفرس قد أمر بأن تقام شريعتهم وشريعته كما في سفر عزرا »[٣].

وفي وصف القرآن بني إسرائيل بقوله: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[البقرة: ٧٨]. قال في تفسيرها: « ما عندهم من الدين أماني يتمنونها وتجول صورها في خيالاتهم، وهذه الصور، هي كل ما عندهم من العلم بدينهم، وما هم على بينة، وإنما هي ظُنونٌ يلهون بها، وهذا محل الذم، لا كونهم أميين »[٤].

إن مظاهر التحريف والتأويل جلاها القرآن الكريم في آيات بليغة وعديدة، قرب مفاهيمَهَا تفسيرُ المنار بلغة العصر وثقافته، مجابهةً ومواجهةً للزحف اليهودي الذي بدأت نذره تظهر في مطلع القرن العشرين الميلادي.

ونورد من هذا التفسير في هذا الإطار الحالات التالية:

أ - اتخاذ الدين جنسية سياسية وقومية، في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[المائدة: ٢١] قال: « ما استنبطه اليهود من ذلك الوعد، أنه لا بد أن يعود لهم الملك في البلاد المقدسة غير صحيح؛ لأن هذا مخالف للواقع وللتاريخ »[٥].

١ - لأن هناك بعض الآيات تدل على أن الملك لا يعود إليهم[٦].

٢ - أن قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ [الإسراء: ٨][٧] أرجى الآيات لهم، لأنها تدل على أن الأمر يدور مع العلة وجودًا وعدمًا وأنهم إن عادوا إلى الإيمان الصحيح والإصلاح، يعود إليهم ما فقد منهم، وهذا لا يتحقق إلا بإسلامهم[٨] وهل

(١-٣) تفسير المنار (٣/ ١٥٧).

(٤) تفسير المنار (١/ ٣٥٩)، وفيه أن هذه الأماني توجد في كل الأمم في حال الضعف والانحطاط، يفتخرون بما بين أيديهم من الشريعة، ويسلفهم الذين كانوا مهتدين بها، وتسول لهم الأماني أن ذلك كافٍ في نجاتهم وسعادتهم.

(٥،٦) تفسير المنار (٦/ ٣٢٦).

(٧) منها قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾[الإسراء: ٤ - ٦].

(٨) كما ورد ذلك في سورة الإسراء، الآية (٨).

من أمل في هذا والحال « أن الرجاء في ذلك بعيد في هذا العصر[١]، لأن الإسرائيليين شديدو التقليد والجمود في جنسيتهم النسبية والدينية، وهذا العصر عصر العصبية الجنسية للأقوام »[٢]. وأن هذا الأمر متجدر فيهم؛ لذلك قال فيهم القرآن، وفي إخوانهم النصارى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

قال في تفسير الآية « كبر على رسول اللَّه ﷺ إعراض اليهود والنصارى عن الإجابة، والإسراف في المجاحدة؛ لأنه لم يكن يتوقع منهم هذا... مع موافقته لأهل الكتاب في أصل الدين ومقصده: التوحيد والإخلاص... لذلك سلى نبيه ﷺ بآيات كثيرة، عرفه فيها بحقيقة حالهم، منها هذه الآية الناطقة، بأن كلًّا من اليهود والنصارى على اتحادهم في أصل الدين، قد تعصبوا لتقاليده، واتخذوا الدين جنسية سياسية، لا يرضيه من أحد إلا الدخول فيها وقبول لقبها »[٣].

ب – من وسائلهم لتحقيق هذا الهدف: شدة حرصهم على المال وفتح باب الربا؛ ففي تفسير المنار لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤] قال: « واليهود أساتذة المرابين في العالم كله، وأحبارهم يفتونهم بأكل الربا من غير إخوتهم الإسرائيليين ويأكلونه معهم مستحلين له، بنص توراتهم المحرفة... والأحبار يفتون بهذا... ليستغني شعب إسرائيل »[٤].

« ففي سفر تثنية الاشتراع... لا تقرض أخاك بربا فضة أو طعام أو بأي شيء مما يقرض بالربا، للأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرض بربا، لكي يباركك الرب إلهك »[٥].

إن حرص اليهود ليس خاصًّا بالمال وإنما بكل أشكال الحياة؛ لذا قال اللَّه تعالى فيهم: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ [البقرة: ٩٦].

قال في بيانها: « كذلك كانوا وكذلك هم الآن، والظاهر من سيرتهم ونظام معيشتهم

---

(١) يقصد عصره، أي فجر القرن الرابع عشر الهجري.
(٢) تفسير المنار (٦/ ٣٢٨).
(٣) ن.م (١/ ٤٤٤، ٢/ ٢٤٤).
(٤) ن.م (١/ ٣٦١).
(٥) تفسير المنار (١٠/ ٣٩٩).

أنهم كذلك يكونون إلى ما شاء اللّـه... »[١].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ٥٣]، قال: « إن اليهود أصحاب أثرة شديدة، وشح مطاع، يشق عليهم أن ينتفع منهم أحد، من غير أنفسهم، فإذا صار لهم ملك، حرصوا على منع الناس أدنى النفع... »[٢]. وربطًا بالواقع وتنبيهًا للأمة، يذكر « أن هذه الصفة لا تزال غالبة على اليهود. ظاهرة فيهم، فإن تم لهم ما يسعون إليه من إعادة ملكهم إلى بيت المقدس وما حوله، فإنهم يطردون المسلمين والنصارى من تلك الأرض المقدسة... وهم يحاولون الآن »[٣].

ج – **تمسكهم بالعودة إلى الأرض المقدسة معطى اعتقادي:** إن اليهود « يعتقدون اعتقادًا دينيًّا أنهم سيقيمون الملك في البلاد المقدسة... ولهذا الأمر ادخروا مالًا كثيرًا »[٤].

ولنتأمل ما قاله تفسير المنار مبينًا البعد السياسي للحركة اليهودية في عصره، ومعمقًا روح الوعي بها في أهل عصره من الأمة؛ وذلك إثر بيانه ارتباط اليهود بالأرض المقدسة، قال: « يجب على العثمانيين ألا يمكنوا لهم في فلسطين، ولا يسهلوا لهم طرق امتلاك أرضها، وكثرة المهاجرة إليها »[٥].

ثلاث حـالات كانت المنافذ الرئيسية لاحتلال الأرض المقدسة، لم يكتـفِ التفسير بالتنبيه إليها، وإنما قرر مبدأ التنازع محذرًا، عند تفسيره لقـول اللّـه تعالى: ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧] قائلًا: « إنه تجدد عندنا في هذا الزمان أمر عظيم يتعلق بهذه الأرض المباركة... وهو محاولة اليهود انتزاعها من أيدي أهلها العرب وتنازع الفريقين... في وعد اللّـه لكلٍّ منهما بهذه الأرض... ومن المستحق لها، في هذا العصر؟... فليتأمل المعتبر في وعد اللّـه بها بني إسرائيل، ثم وعده بها وبغيرها للعرب... ولعنته وخزيه على الفاسدين المفسدين... »[٦].

في سياق هذا التحذير، نتتبع معه في إيجاز، تصرفات اليهود وتخطيطهم عبر تاريخ التنازع بينهم وبين المسلمين؛ فقد « كان اليهود في الحجاز أشد الناس عداوة للمسلمين... ثم كان من مصلحتهم فوز المسلمين في فتح سوريا وفلسطين وبلاد الأندلس، ليسلموا بعدلهـم من ظلم النصـارى... ثم كان من كيدهـم وسعيهـم... هدم صـروح استبداد

---

(١) ن.م (١/ ٣٩٠).
(٢) ن.م (٥/ ١٥٩).
(٣-٥) ن.م (٥/ ١٦٠).
(٦) تفسير المنار (٩/ ١٠٢).

البابوات والملوك المستعبدين لهم... ولا يزالون يكيدون باسم الحرية والمدنية، ونفوذ الجمعية الماسونية[١]... فهم يقاومون كل سلطة دينية تقف في وجوههم، لأجل تكوين سلطة دينية »[٢].

إن مكر اليهود أمر تمكن من نفوسهم وصاحب تاريخهم وها هم في العصر الحديث « يدبرون الانقلاب العثماني... لا لشيء، وإنما يريدون أن يملكوا بيت المقدس وما حوله ليقيموا فيه ملك إسرائيل، وكانت الحكومة العثمانية تعارضهم في امتلاك الأرض هناك »[٣]، وما ذلك إلا لشعورها بخطرهم على البلاد المقدسة، « وها هم الآن يظهرون المساعدة للحكومة العثمانية الجديدة لتساعدهم على ما يبتغون، فإذا لم تنتبه الأمة لكيدهم وتوقف حكومتها عند حدود المصلحة العامة في مساعدتهم، فإن الخطر من نفوذهم عظيم وقريب »[٤] فيا ليت قومي يعلمون حقائق التاريخ ويستفيدون من أحادثه، ليتم لهم الوعي السليم.

لننظر إلى مكائد اليهود في العصر الحديث، ينبئنا بها تفسير المنار: « فبكيدهم وأموالهم استولوا على حكومة فرنسا وحملوها على الظلم في الجزائر.. أفلا يقدرون على ما هو أكثر في الحكومة العثمانية، وهي في حالة ضعف وحاجة إلى المال، وطمعهم فيها أشد وخطره أعظم.

فإن بيت المقدس له شأن عظيم، فإذا تغلب اليهود فيه، ليقيموا فيه ملك إسرائيل، ويجعلوا المسجد الأقصى (هيكل سليمان) معبدًا خالصًا لهم، يوشك أن تشتعل نيران الفتن، ويقع ما نتوقع من الخطر »[٥].

إنه الإدراك الكامل للواقع، وتحسس المستقبل من خلال الحس الإيماني المتشبع بمفاهيم القرآن، وما جاء إليه من الهداية.

إن تفسير المنار – وهو تفسير – لا يلبث أن يذكرنا بالسبب المباشر في تحديد التنازع على الأرض المقدسة، وأنه كان « بإغراء الإنجليز الذين استولوا عليها – بلاد فلسطين –

---

(١) الماسونية أو الفرمسون أو مسون: جمعية سرية تحوي حشدًا من الناس ينتمون إلى مذاهب وديانات ونحل وجنسيات وأوطان مختلفة واختلف في تعريفها بالنسبة إلى اسمها، ن. الماسونية لعبد الغفور عطار (ص ٩).
(٢-٤) تفسير المنار (٥/ ١٣٨، ١٣٩).
(٥) تفسير المنار (٥/ ١٣٩).

وأوقعوا الشقاق بين الفريقين فيها... ولا منجاة لعرب فلسطين من هذا الخطر العظيم... إلا باتحادهم مع سائر الشعوب والقبائل العربية... ومع سائر الشعوب الإسلامية »[١] فمتى نعي الدرس، ونمسك بأول الخيط في الاتجاه الصحيح.

إن مسألة الأرض المقدسة ومستقبلها من خلال واقع الأمة الممزق، يزيدنا به تفسير المنار إدراكًا، إن لم تكن أدوات الإدراك فينا معطلة وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٠]. إذ يقول: « ولا يزال طوائف من بني إسرائيل يقدمون على ضروب من ظلم الناس، يقصدون بها نفع أنفسهم وقومهم، وهي تنذر بخطر كبير؛ كالفتنة التي أثاروها في بلاد الروسية بتعاليم الاشتراكية... ومحاولة انتزاع فلسطين من الأئمة العربية »[٢] « فهم يزعمون أن أنبياءهم وعدوهم بأن هذه البلاد... ستعود إليهم كما وعد الرب بذلك »[٣]. وها هم فيها يصولون ويجولون وفي أهلها يقتلون، والعالم بأسره واقف يتفرج، يعتمدون مبادئ توارتهم المحرفة، ونحن عن شرعنا غافلون.

٣ - الرد على النصارى:

النصارى: أمة المسيح عيسى ابن مريم رسول اللّٰه وكلمته عليه السلام[٤]. قيل: نسبة إلى نصرى أو ناصرة أو نصورية... إحدى قرى الشام[٥] ولقد سماهم القرآن بهذا النسب في غير ما آية، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ [المائدة: ١٤].

كما يطلق عليهم اسم: المسيحين، نسبة إلى المسيح عيسى عليه السلام[٦] اعتبارًا لأتباعه، وهذه التسمية، لم تطلق عليهم في القرآن ولا في السنة، وإنما سماهم القرآن النصارى[٧]

---

(١) ن.م (٩/ ١٠٣، ١٠/ ٤٠٠).

(٢) ن.م (٩/ ٣٧٠).

(٣) ن.م (١٠/ ٣٩٩).

(٤) الملل والنحل (ص ٢٢١).

(٥) ن. اللسان: مادة: نصر.

(٦) قال في اللسان: (المسيح: الصديق، وبه سمي عيسى عليه السلام، قيل: لصدقه... وقيل: لأنه كان سائحًا في الأرض لا يستقر، وقيل: لأنه كان يمسح بيده على العليل فيبرأ بإذن اللّٰـه). اللسان: مادة: مسح.

(٧) مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ [البقرة: ٦٢].

وأهل الإنجيل[١] وأهل الكتاب[٢]، جمعًا بينهم وبين اليهود؛ لذلك قيل: لا ينبغي إطلاق اسم المسيحيين على النصارى؛ لأنهم لا يتبعون المسيح في الواقع[٣] ولا سماهم القرآن بذلك.

وفي إطار القاعدة القرآنية الواصفة للصراع العقدي بقول اللّه تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وفي إطار ممارسة النصارى لتعاليم الإنجيل المحرف، وفي إطار الهجمة الشرسة التي قامت بها الصليبية، على الإسلام والمسلمين في العصر الحديث... اعتنى تفسير المنار أيما اعتناء بمواجهة النصرانية في بيانه لكل آية تتحدث عن العقيدة النصرانية نقدًا أو وصفًا أو تصحيحًا، أو تنبيهًا إلى الأخطار التي تهدد أهل عصره، راسمًا مناهج الرد وسبل المواجهة. ولأن السلوك ينبني على الاعتقاد، فإنا نورد رد تفسير المنار ومواجهته للعقيدة النصرانية، وفضحها، ثم نعقب هذا بالممارسات العملية كما كشفها.

إن الأساس الأهم في الدعوة النصرانية « عقيدة صلب المسيح، فداءً عن البشر ويليها التثليث »[٤]. وتقرير هذه القاعدة عندهم « أن آدم لما عصى اللّه تعالى بالأكل من الشجرة، صار هو وجميع أفراد ذريته خطأة مستحقين العقاب في الآخرة بالهلاك الأبدي... ثم إن جميع ذريته جاؤوا خطأة بذنوبهم، وبذنب أبيهم الذي هو الأصل لذنوبهم »[٥].

ولأن اللّه عادل رحيم؛ « طرأ عليه ألا يعاقب آدم وذريته... فأحل ابنه الذي هو نفسه في بطن امرأة من ذرية آدم ليكون ولدها إنسانًا إلهًا... ثم سخر أعداءه لقتله صلبًا.. فيحتمل اللعن والصلب لأجل فداء البشر وخلاصهم من خطايا كل العالم »[٦].

من هنا أقاموا عقيدتهم على التثليث: الإله والابن وروح القدس « وهذا التثليث معروف عند قدماء المصريين والهندوس وغيرهم من الوثنيين »[٧] يعني قبل ظهور

---

(١) مثل قوله تعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ [المائدة: ٤٧].

(٢) مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [المائدة: ٦٥، ٦٦].

(٣) انظر: الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة (ص ٣٠).

(٤،٥) تفسير المنار (٦/ ٢٤)، ويقول: إنه سمع هذه العقيدة من أحد دعاة النصارى.

(٦) ن.م (٦/ ٢٦).

(٧) ن.م (٩/ ٣٠٩)، ون. محاضرات في النصرانية (ص ١٢٠) وما بعدها.

اليهودية والنصرانية « فأهل الكتاب قد دخلت على أكثرهم الوثنية القديمة بجميع أصولها وفروعها »[١] هذا رد تفسير المنار المجمل، ثم يفصل:

١ - أن هذه الحكاية غير مقبولة عقلًا؛ لأن الخالق لا بد وأن يكون بكل شيء عليمًا، وهذه الحكاية تستلزم الجهل والبداءة على اللّـه تعالى، بل نجد في سفر التكوين « فندم الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه »[٢].

٢ - يستلزم هذا أن خالق الكـون حل في رحم امرأة، ثم صـار بشرًا يجري عليه ما يجري على البشر، ثم يصلب من أعدائه[٣].

٣ - « يلزم منها عجز الخالق » تعالى وتقدس « عن إتمام مراده بالجمع بين عدله ورحمته،... فصلب المسيح من حيث هو بشر ليس عدلًا ولا رحمة... لأنه لم يذنب قط »[٤].

٤ - « إذا كان كل من يعتمد الصلب ينجو من عذاب الآخرة، كيف ما كانت أخلاقه وأعماله، لزم من ذلك أن يكون أهل هذا الاعتقاد إباحيين، فلا حلال ولا حرام، وله أن يفعل ما يشاء، ولا عقاب في الآخرة »[٥].

إن مسألة الصلب من المسائل التاريخية التي لها نظائر وأشباه كثيرة، فقد كان الملوك والحكام يقتلون ويصلبون... وقد قتل اليهود غير واحد من أنبيائهم، أشهرهم زكريا ويحيى - عليهما السلام -... والفائدة في إثبات التاريخ لمثل هذه الوقائع، لا تعدو « العبرة بأخلاق الأمة ودرجة ضلالها وهدايتها، وسيرة الحكام فيها »[٦]، لكن أن تتحول إلى تضليل الإنسان، فهذا مما يجب كشفه والتحذير منه.

ومما يعتبر به في هذا المجال؛ ردًّا على هذا الاعتقاد الفاسد: « أن المنصفين من العلماء الأحرار، قد بينوا أن تصور الفداء قديم جدًّا، جاء عند الهندوس والوثنيين وغيرهم:

فعند الهنود أن (كرشنا) المولود البكر، الذي هو نفس الإله (فشنو)... خلص الإنسان بتقديم نفسه ذبيحة، وقد صور كريشنا في كتب الهنود مصلوبًا، وعلى رأسه إكليل من الذهـب. والنصـارى تقول: إن يسوع صلـب، وعلى رأسه إكليـل من

(١) ن.م (٩/ ٣٠٩)، ون. محاضرات في النصرانية (ص ١٢٠) وما بعدها.
(٢-٤) ن.م (٦/ ٢٧).
(٥) ن. تفسير المنار (٦/ ٢٧).
(٦) ن.م (٦/ ٢٣).

الشـوك... إلى غير ذلك مما نقلـه علماء الاجتماع من نقـاط الالتقاء بين الوثنيـة والنصارى[١].

والنصارى أنفسهم يعترفون « بأن عقيدة الصلب والفداء والتثليث لا تعقل، ولكن العمدة في إثباتها النقل عن كتبهم المقدسة... وهي عندهم ثابتة، فوجب قبول ما جاء فيها، مُدّعين بأن كل دين إلا وفيه ما يجزم العقل باستحالته، ولكنه يؤخذ بالتسليم »[٢]. وهذا تعميم لا برهان عليه، إلا الادعاء؛ لذلك جاء في رد تفسير المنار:

١ - « نحن نقول: ليس في الإسلام شيء يحكم العقل باستحالته، وإنما فيه أخبار عن عالم الغيب، لا يستقل العقل بمعرفتها، لعدم اطلاعه على ذلك العالم، لكنها ممكنة، وأخبر بها الوحي الصادق فصدقناه »[٣].

٢ - « إن النقـل عندهـم هـو الإنجيـل، وهو أولًا متعـدد، ولسنـا ندري من هو الصحيح، ثم هي متناقضة ومتعارضة، حتى إخبارها بقصة الصلب »[٤]، وهم يخالفون المسيح الذي ينتسبون إليه في كل عقائدهم، بما في ذلك التثليث[٥].

« فالإنجيل الذي جاء به عيسى قد ادعاه كثيرون، وظهر في العصر الأول بعده، زهاء سبعين إنجيلًا، اختار منها الملك المتنصر قسطنطين أربعة، وفيها كثير من الخلاف والتعارض... ومنذ ذلك العهد، فشا فيهم عبادة السيدة مريم وغيرها من الصالحين، حتى صارت كنائسهم مملوءة بالصور والتماثيل المعبودة »[٦].

ولئن كان القرآن الكريم قد أخبر بحادثة الصلب من أجل بيان حقيقتها، « فإنه ذكرها من جهة أخرى لبيان أهميتها في إثبات قتل اليهود النبيين بغير حق، لولا أن النصارى جعلوها أساس العقائد وأصل الدين... فالمؤمن بها هو الناجي مع المسيح والرسل والقديسين لهذا كبر عليهم نفي القرآن لقتل المسيح وصلبه، وهم يوردون في ذلك الشبهات على القرآن الكريم والإسلام[٧].

ومن أوهام دعاة النصرانيـة، قياسًا على مذهبهـم في الفداء، واتكالًا على الخرافـات

---

(١) ن.م (٦/ ٣٢، ٣٣)، ون. مناظرة بين الإسلام والنصرانية (ص ٨٤) وما بعدها.

(٢،٣) ن.م (٦/ ٣١).

(٤) تفسير المنار (٦/ ٣٣).

(٥) ن:ن.م (٩/ ٢٣٠).

(٦) ن.ن.م (٩/ ٣٠٩، ١٠/ ٤٠٠).

(٧) ن.م (٦/ ٢٣).

التي سرت إلى بعض عامة المسلمين، « أن الإسلام مبني على النجاة في الآخرة، وهذا إنما يكون بمثل ما يسمونه الفداء... والفرق إنما هو الفادي؛ ولذلك يشككون عوام المسلمين في دينهم، بما يكتبونه، من سفسطة في صحفهم وكتبهم ومجامعهم. ولا نرد عليهم إلا ببيان عقيدة الإسلام.

هكذا صرح تفسير المنار ثم قال: « إن مدار النجاة في الآخرة إنما هو على تزكية النفس وتطهيرها من العقائد الباطلة، والأخلاق الفاسدة، ومدار الهلاك على ضد ذلك »[1] وقاعدة الإسلام في هذا من القرآن؛ وهو قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣].

إن أصول الاعتقاد عند النصارى، رغم تقدم علم النقد وبيانه لحقيقة الأناجيل، وبيان زيفها، فإنها ما زالت على حالها. تضاف إليها طقوس وتقاليد، وتحذف منها أخرى تبعا لأهواء القسيسين، قال مبينًا ذلك أثناء تفسيره لقول اللّـه تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧]...: والنصارى يغيرون دينهم ما شاءوا في كل عصر، وكان أكبر تغيير حدث... هو مذهب البروتستانت أي إصلاح النصرانية، وهو السائد في أعظم الأمم مدنية وارتقاء، وقد نسف هذا المذهب أكثر التقاليد والخرافات النصرانية... ثم استبدل بها تقاليد أخرى، فصار عدة مذاهب... ولم يستطيعوا أن يرجعوا النصرانية إلى التوحيد الصحيح... فهم لا يزالون يقولون بألوهية المسيح وبالتثليث، ويعدون الموحد غير مسيحي... فجميع فرق نصارى العصر تقول: إن اللّـه هو المسيح ابن مريم، وأن المسيح ابن مريم هو اللّـه، تعالى اللّـه عن ذلك[2].

ويبرز هدف التفسير الإصلاحي ومنهجه السلفي المتميز، بالفهم المتجدد والثابت للخطاب القرآني، في إطار قواعد التفسير الثابتة، وأحداث العصر، يبرز هذا أكثر في تفسيره لقول اللّـه تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [المائدة: ٦٨]. قال: « هذا بيان للحال الحاضرة، والحجة عليهم قائمة فهم لم يكونوا مقيمين لتلك الكتب قبل هذا الخطاب، ولا في وقته... كما

---

(١) ن.م (٦/ ٢٩) مع شرح مفصل للموضوع.

(٢) تفسير المنار (٦/ ٣٠٨) من إيراد إبطال ألوهية المسيح بأقوال علماء الاجتماع والمؤرخين والفلاسفة الغربيين.

أنهم لا يستطيعون أن يقيموها الآن، فهذا تفنيد لدعواهم الاستغناء عن اتباع خاتم النبيين، باتباعهم لأنبيائهم السابقين...

ومثله أن نقول الآن لدعاة النصرانية: نحن لا نعتد بكم، ولا نرى أنكم على إيمان وثقة بدينكم... حتى تقيموا أنتم وأهل ملتكم التوراة والإنجيل اللذين في أيديكم... فتحبوا أعداءكم، وتباركوا لاعنيكم... واتركوا التنافس في إعداد آلات الفتك الجهنمية، ليكون للناس السلام في الأرض... ونحن نراكم على نقيض ما جاء في هذه الكتب.. تجردون سيوف دولتكم، وتصبون مدافعها... حتى تنتقموا لأنفسكم بأضعاف ما اعتدي به عليكم، ولا هم لأممكم إلا امتلاك ثروة العالم ونعيمه، وتسخير الأمم لخدمتكم بالقوة والقهر »[(١)].

ومن مظاهر تغييرهم للأناجيل، واستمرار نار الحقد في قلوبهم « وضع أحكام الربا والقروض فيما يسمونه باللاهوت الأدبي، وإحداث جمعيات معظم ثرواتها من الربا بمساعدة الدول النصرانية في مستعمراتها، لترويج سياستها »[(٢)] وللصد عن سبيل اللّـه بطرق مختلفة، كما بينته المؤلفات التي تتبعت خطواتهم في التبشير.. وطرق الصد هذه، تحدث عنها تفسير المنار في بيان قول اللّـه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤] قال: « وطرق صدهم عن الإسلام تختلف باختلاف الزمان والمكان والإمكان، وقد انفرد النصارى بالعناية بهذا الصد، عن طريق السياسة والدعوة... وهم لا يقنعون بصد أهل مللهم عن الإسلام، بل يصدون أهله عنه... »[(٣)]. ولهم مناهج وطرق « أشدها فظاعة وقبحًا الطعن في النبي ﷺ والقرآن، وأشر منه وأضر، تعليم المدارس، التي يفسدون فيها عقائد النشء الذي يتربى ويتعلم فيها... »[(٤)].

وقد أعطت هذه المدارس ثمارها التي رجوها بعد خروج الاستعمار العسكري من البلدان الإسلامية؛ حيث سار التلاميذ وفق تعليمات المربين الغربيين. ويخبرك تفسير المنار: « أن ضراوتهم اشتدت بعد الحرب العامة[(٥)]. بسلب البلاد الإسلامية استقلالها... وعقدوا للتنصير عدة مؤتمرات دولية... وسخروا بعض أمراء المسلمين...

---

(١) تفسير المنار (٦/ ٤٧٤، ٤٧٥).
(٢) ن.م (١٠/ ٤٠٠).
(٣، ٤) ن.م (١٠/ ٤٠٢).
(٥) يقصد الحرب العالمية الأولى.

وشيوخ الطرق... لشد أزرهم »[١].

تيقظ كامل لمخططات النصارى، يبرق في صفحات تفسير المنار، وتتبع واعٍ لخطوات التنفيذ، وتحميس لأهل الملة للذوذ عن الحياض: « ولكن أكثر المسلمين لا يعقلون كنه مفاسد النصرانية، وسوء عاقبتها في الدين وسياسة الأمة واستقلالها... »[٢]. وعلينا أن نعتبر بهذا « ونعجب كيف لا يخجلون من بث الدعاة في البلاد الإسلامية لدعوة المسلمين إلى دينهم، وقد أتقنت رهباناتهم جمع المال والانتفاع به في الدعوة إلى دينها... وماذا فعل المسلمون في أوقافهم وخدمة دينهم »[٣].

من هذا الفهم الواعي لقضايا الأمة ومشكلاتها في إطار الواقع السياسي والاجتماعي، يثبت تفسير المنار: « أن من أكبر أسباب ضعف المسلمين في عصره، وتمكين أعدائها من سلب ملكهم ومحاولة تحويلهم عن دينهم هو بخل أغنيائهم، وجبن ملوكهم وقوادهم وزعمائهم؛ الذي جعلهم أعوانًا لسالبي ملكهم على أنفسهم »[٤].

٣ - الرد على البابية والبهائية والقاديانية:

إن الفرق الثلاثة من الفرق الباطنية الخارجة عن الإسلام، التي عانى منها العالم الإسلامي في العصر الحديث.

وثلاثتها كانت وليدة الاستعمار الأوروبي للعالم الإسلامي من أصول يهودية باطنية، لتداخل مبادئها واتحاد منشئها[٥].

لذا تحدث عنها تفسير المنار في أغلب الأحيان في سياق واحد، وهو يبين عقائد الباطنية، المبنية على التأويل المخالف لمدلول اللغة وأصول الشرع؛ إذ « بحمل التأويل في القرآن على المعنى الاصطلاحي[٦] تمسكت الباطنية في دعواهم إذ قالوا: إن أحدًا لم يفهم القرآن في زمن التنزيل ولا بعده، وأن اللّه وعد بتأويله، فلا بد من انتظار

(١) ن.م (١٠/ ٤٠٢).

(٢) تفسير المنار (١٠/ ٤٠٢).

(٣) ن.م (١٠/ ٤٠١).

(٤) ن.م (١٠/ ٤١٠).

(٥) انظر: القاديانية دراسات وتحليل (ص ١٩ - ٣٣) والموسوعة الحركية (٢/ ١١١). ون. أيضًا الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة (ص ٨٦، ٨٧ - ٩٥).

(٦) قال في تفسير المنار: « لفظ التأويل لم يرد في القرآن إلا بمعنى الأمر العملي الذي يقع في المآل تصديقًا لخبر أو رؤيا... وقدماء المفسرين اصطلحوا عليه بمعنى التفسير وأهل الأصول عندهم التأويل: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يدل عليه »، ن. تفسير المنار (٣/ ١٧٤).

من يبعثه اللّـه تعالى بهذا التأويل.

والبابية، وهم آخر فرقة ظهرت من الباطنية[١]، تدعي أن الباب هو ذلك الموعود به، والبهائية منهم يقولون هو البهاء[٢].

يقول رشيد رضا: « وقد سمعت من دعاتهم، من يحتج بقوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ﴾ [الأعراف: ٥٣]. فقلت له تأويله ما وعد به، كقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ [محمد: ١٨] وقوله: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ [يس: ٤٩] فهذا وأمثاله هو تأويله »[٣].

والتأويل خارج إطار اللغة واصطلاح المفسرين والأصوليين[٤] هو القاسم المشترك بين أهل البدع والضلالات؛ إذ « يتأولون النصوص بتأويلات تخالف مراد اللّـه ورسوله، ويدعون أن هذا هو التأويل الذي يعلمه الراسخون، وهم مبطلون في ذلك، لا سيما تأويلات القرامطة[٥] والباطنية[٦] والملاحدة[٧].

وكشأن تفسير المنار في استقصاء البحث في القضايا ذات الصلة ببرنامجه الإصلاحي، فإنه خص الدعاوى الثلاث بمقال مشترك في الجزء السادس تحت عنوان: « بهاء اللّـه البابي ومسيح الهند القادياني » مقدمًا للموضوع ببيان الجانب العقدي الذي تسربت منه مثل هذه الدعوات الهدامة[٨]، فذكر أنه « من ضرر انتظار المسلمين لتحقيق خبر المهدي ونزول عيسى[٩]. ويأسهم من إعادة عدل الإسلام، ومجده بدونهما؛ أن كانت هذه

---

(١) بالنسبة إلى عصر تفسير المنار.
(٢) تفسير المنار (٣/ ١٧٥).
(٣) بالنسبة إلى عصر تفسير المنار.
(٤) وهذا ما يسمى بالتأويل الفاسد، ن. مذكرة أصول الفقه للأمين الشنقيطي (ص ١٧٦).
(٥) فرقة باطنية، نسبتها إلى حمدان قرمط زعيم الفرقة، ن. تلبيس إبليس (ص ١٠٤).
(٦) من فرق الأهواء الخارجة عن الإسلام لعدم تمسكها بشيء من أحكام الإسلام، ن. الفرقة بين الفرق (ص ٢١٣).
(٧) تفسير المنار (٣/ ١٧٥).
(٨) ن.ن.م (٦/ ٥٧).
(٩) قال في موضوع: المهدي: أحاديث المهدي لا يصح منها شيء يحتج به، وأنها مع ذلك متعارضة متدافعة وأن مصدرها نزعة سياسية شيعية معروفة، ن. (٩/ ٤٩٩ – ٥٠٧، ١٠/ ٣٩٣، ٤٩٤) من تفسير المنار، وقال في نزول عيسى: بعض أحاديث النزول أسانيدها صحيحة، وهي على تعارضها واردة في أمر غيبي متعلق بأحاديث الدجال المتعارضة بمثلها ثم علق قائلًا: فينبغي أن يفوض أمرها إلى اللّـه تعالى وألا تكون سببًا للتقصير في إقامة الدين والدنيا بما شرعه اللّـه تعالى فيهما، ن. تفسير المنار (٩/ ٤٨٩ – ٤٩٩)، ون. (١٠/ ٣٩٤).

المسألة مثار فتن عظيمة، كانت آخرها فتنة مهدي السودان[١]، وكان قبلها فتنة الباب، الذي ظهر في بلاد إيران، وقد بنى بعض أتباعه على أساس دعوته، بناءً على أنقاضها كان هو البهائية[٢]. « وظهر في الهند رجل آخر... ادعى أنه هو المسيح الموعود به، وهو غلام أحمد القادياني »[٣].

وقد انفرد تفسير المنار دون علماء مصر بالرد على البابية والبهائية والقاديانية والتيجانية[٤] وسائر مبتدعة عصره[٥].

أما البابية « فإنها انحصرت في البهائية، وهؤلاء كان لهم رجل من أكبر الدهاة[٦] يسوسهم فمات، فانحط شأنهم... وظهر للمسلمين تلبيسهم الباطني، وزعيمهم الوارث له هو: مرزا حسين الملقب ببهاء اللّـه، الذي ادعى الربوبية، وبث دعاته في المسلمين والنصارى وغيرهما بناءً على أن البهاء، هو المسيح الموعود به، وزعيمهم هذا قد تربى تربية إنجليزية مفضوحة »[٧].

وأما القاديانية فإنها أيضًا من الدعاوى الباطنية « ويلقب أهلها بالأحمدية، فإن رئيس نحلتهم، ميرزا غلام أحمد القادياني يقول عن نفيه: إنه المسيح المبشر بعودته إلى الدنيا في بعض الأحاديث وأنه كان يوحى إليه، وأن فريضة الجهاد نسخت على لسانه فصار من الواجب على المسلمين في القاديانية أن يستسلموا للأجانب المستعبدين لهم... فلا يجوز لشعب إسلامي عندهم أن يدافع بالقتال عن ملته ووطنه.

---

(١) صاحبها محمد أحمد بن عبد اللّـه المهدي السوداني كان لحركته أثر كبير في حياة السودان السياسية انقطع في جزيرة أبا مدة (١٥) سنة فكثر مريدوه فأعلن محاربة الفساد في البلاد... وتلقب سنة (١٢٩٨هـ) بالمهدي المنتظر حارب الجيش المصري وانتصر عليه وانقاد السودان كله للمهدي. مات بالجدري عام (١٣٠٢هـ)، الأعلام (٦/ ٢٠)، ن. الموسوعة الحركية (٢/ ١٤٩).

(٢) تفسير المنار (٦/ ٥٧). (٣) ن.م (٦/ ٥٨).

(٤) ن. الرد على التيجانية في (١١/ ٤٢٦، ١١/ ٤٥٢) من تفسير المنار.

(٥) ن. تفسير المنار (٦/ ٥٨).

(٦) جاء في المعجم الفلسفي: البابية نحلة ظهرت بإيران في القرن (١٩م) ترجع إلى ميرزا محمد علي الشيرازي، تقوم على أساس فكرة المهدي المنتظر وتقول بضرورة ظهور المصلح كل خمسمائة سنة. ادعى الشيرازي أنه المهدي وأنه باب العلم ومنه لفظ البابية وتعتمد فلسفتها على جذور من آراء الإسماعيلية وبعض غلاة الصوفية (ت: ١٩٥٠م)، المعجم الفلسفي، مادة: بوب.

(٧) تفسير المنار (٦/ ٥٨، ١١/ ٤٣٣) وهنا يترجم للبهاء الإيراني ذاكرًا علاقته بالإنجليز.

وإنما جعل القادياني هذا من أصول دينه، خدمة للإنجليز، ولا يزال الباب مفتوحًا عند أتباعه لمثل هذا بزعمهم أن وحي النبوة متصل في خلفائه وأتباعه »[١]. ومما ذكره لإثبات دعوته بأنه المسيح المنتظر في كتابه: « الهدى والتبصرة لمن يرى » أنه يوجد في كشمير بالهند من زهاء ألف وتسعمائة سنة، مقبرة فيها مقام عظيم يقال: إنه لنبي، وإن اسمه الأصلي عيسى صاحب، وأنه نبي بني إسرائيل... مفسرًا الإيواء في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٠]. بالهجرة إلى الهند واللجوء إلى كشمير... والربوة المكان المرتفع وبلاد كشمير من أعلى بلاد الدنيا...[٢].

إن زعيم القاديانية غلام أحمد كان معاصرًا لرشيد رضا، وكان لكل منهما علم بالآخر، بل جرت بينهما مراسلات، فقد ذكر في التفسير، أن « القادياني قبل موته أرسل إليه الكتاب الذي نقل عنه ما ذكر، وغيره من الكتب التي يدعو بها إلى نفسه، فرد عليه في مجلة المنار فهجاه في كتاب آخر، وتوعده بقوله: « سيهزم فلا يرى وزعم أن هذا وحي جاء به من اللّـه » .

وقد جرى على طريقة أدعياء المهدوية... في استنباط الدلائل الوهمية على دعوته من القرآن ويستدل بموت المسيح ورفع روحه إلى السماء... على أنه هو المسيح الموعود به، ولا يزال أتباعه يستدلون بذلك...[٣]. ولقد لخص الرد على القاديانية تفسير المنار قائلًا: « والحق أنه ليس في القرآن نص يثبت أن عيسى ينزل من السماء ويحكم في الأرض ».

وأما الأحاديث الواردة في ذلك فهي تخالف دعـوى القادياني، فإن منها أنه ينزل في دمشق لا في الهند، ومنها أنه يقتل الدجال الذي يظهر قبله، ومنها أنه يحكم ويملأ الأرض عدلًا. ولا يزال الظلم والجور... مالئي الأرض... وما كان القادياني إلا خاضعًا لدولة من دول الصليب، ولكن من شؤون البشر أنه لا يدعوهم أحد إلى شيء مهما كان بعيدًا عن المعقول، إلا ويجد فيهم من يصدقه[٤].

إن معاصرة تفسير المنار لفترة نشوء القاديانية وتحولها إلى حركة تحاول غزو العالم الإسلامي، أملت عليه في إحساس إيماني تتبع نشاط هذه الدعوة وعد خطواتها وتحذير المسلمين منها، وبيان خطرها، في مجلة المنار الواسعة الانتشار آنذاك، كما أملت عليه

---

(١) تفسير المنار (٩/ ١٣٥).
(٢) ن.م (٦/ ٤٢، ٤٣).
(٣) ن.م (٦/ ٥٨).
(٤) تفسير المنار (٦/ ٥٩).

تخصيص حيز كبير للرد في التفسير، وفيه يصرح « أن القاديانيين قد نشطوا للدعاية، وهم يؤملون أن يوجد في بقية المسلمين، ما أوجدت المسيحية في اليهود، أعني إحداث ملة جديدة تسمى المسيحية الأحمدية »[1] إلا أن هذه الخرافة قد باءت بالافتضاح والانهزام، لسببين رئيسيين حددهما تفسير المنار:

الأول: « أن زعيمهم أحمد القادياني رجل مجنون.

الثاني: أن العصر يطلب تجديدًا للإسلام، لا تقديس فيه إلا للّـه، وجميع كتب غلام أحمد تدور على تقديس نفسه »[2].

وإن التفسير لم يكتفِ بالرد الواصف والمبين لهشاشة مثل هذه الدعاوى، وإنما أبان عن أصل الداء في فتح مثل هذه الجبهات لمحاربة الإسلام.

قال تحت عنوان: « تقليد الباب والبهاء والقادياني لغلاة الصوفية » متوسعًا في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢].

لم يفسد الإسلام على أهله بدعة ولا فلسفة ولا رواية ولا رأي كما أفسد أدعياء الولاية والكشف؛ فقد جرأ هؤلاء الغلاة من الصوفية إخوانهم في الابتداع على دعوى الوحي والتلقي عن اللّـه تعالى كالأنبياء، حتى ادعى بعضهم النبوة نفسها، بل ادعى بعضهم الألوهية.

وإنك لتجد من كلام الباب مؤسس فرق البابية والبهاء مؤسس البهائية وغلام أحمد القادياني مسيح الهند الدجال، أنهم كلهم ادعوا الوحي من اللّـه لهم، وتجد كلامهم ممزوجًا باصطلاحات الصوفية »[3].

وكان المدخل الذي تسربت منه دعاوى الكشف هذه، هو التأويل المحرف لآيات القرآن الكريم، الذي لا يستند على معنى لغوي ولا معنى شرعي، فكان من ثم اعتناء تفسير المنار في الرد على هذه الفرق، بمسألة التأويل في إطار الاستطراد المميز لتفسير المنار في مثل هذه الحالات.

فقد بنى فصلًا آخر في تفسيره لآية الولاية،[4] سماه:

(١،٢) ن.م (١١/ ٤٣٣).
(٣) تفسير المنار (١١/ ٤٣٣،٦/ ٥٨).
(٤) يونس: (٦٢).

« فصل في أصل الإسلام وما طرأ عليه من الفساد من طريق السياسة والفلسفة والتصوف »[١].

أبطل في هذا الفصل تأويل النصوص بالنظريات العقلية والعلمية والباطنية[٢].

واستنتج في نهايته، أنه « إذا بطل تأويل علماء الكلام المتقدمين، المبني على قواعد النظر العقلي، ومراعاة مدلولات اللغة، واشتراط عدم المخالفة لأصل من قواعد الشرع. وبطل تأويل المعاصرين بما يخالف العلوم العصرية، فأجدر بتأويلات الباطنية أن تكون أشد بطلانًا؛ لأنها تحكم في اللغة... بما لا تدل عليه مفرداتها، ولا قواعد نحوها وبيانها، وناقضة لأصول الشرع وقواعده القطعية.. كتأويل الإسماعلية[٣]، القرامطة السابقين، والبهائية والقاديانية اللاحقين »[٤].

وبعد: فهذا غيض من فيض مواجهة تفسير المنار لكل من رام النيل من الإسلام وأصليه، القرآن والسنة أو من رسوله ﷺ وظف فيها النقل والعقل، وأحداث التاريخ، وقوانين الاجتماع، ومسلمات الخصم، للرد والتفنيد، وإثبات الشرعية الحقة، مساهمة في إسهام إحداث وعي سليم تتم به عملية العودة إلى الدين.

***

(١) تفسير المنار (١١/ ٤٤١). (٢) ن.ن.م (١١/ ٤٤٦).

(٣) إحدى فرق الشيعة التي تميزت عن الإثنى عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر (ت: ١٤٣هـ). وأشهر ألقابهم الباطنية لقولهم بأن لكل قول ظاهرًا، وباطنًا، ولكل تنزيل تأويلًا... كما يسمون القرامطة والمزدكية والتعليمية، والملحدة، ن. مقالاتهم في الملل والنحل (٩١ - ٩٨).

(٤) تفسير المنار (١١/ ٤٤٦).

الفَصْلُ الثَّالِثُ

قضايا المجتمع الإسلامي في تفسير المنار

مَدْخَل:

من القضايا التي تحدث عنها القرآن الكريم، واقع المجتمعات والأمم قبل وأثناء ظهور الإسلام يرصد أحداثها ووقائعها وممارساتها، مبينًا من خلال ذلك شروط انحطاط الأمم وشروط نهضتها وصائغًا منها السنن الكونية والقواعد الاجتماعية، قصد الاعتبار بها في الحياة الإسلامية الجديدة والمتجددة.

من هذا قوله تعالى في سياق خبر موسى وقومه مع فرعون وملئه: ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ [طه: ٨١] ومنه قوله سبحانه في سياق تحريضه على الطاعة والوحدة: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٤٦، ٤٧]؛ لأن البطر والرياء من أسباب تغيير النعم بحلول النقم. وبمثل هذا التعقيب ختمت العديد من الآيات القرآنية في القصص القرآني.

وإن قضايا المجتمع الإسلامي في عصر تفسير المنار، كانت الغرض المقصود في منهج هذا التفسير الإصلاحي، حتى صنف هذا التفسير في أوائل التفاسير - إن لم يكن أولها - التي تمثل الاتجاه الاجتماعي في التفسير في العصر الحديث[1] وذلك لكشفه عن سلوك المجتمعات، وخاصة المجتمع الإسلامي من خلال الآيات القرآنية في الموضوع، واهتمامه ببيان سنن اللّه في الكون، مع إثارة الانتباه إلى ما هو إسلامي وما هو غير

(١) ن. التفسير ورجاله (ص ١٦٧)، والتفسير والمفسرون (٣/ ١٤٥، ١٦٢)، ودراسات في أصول تفسير القرآن (ص ١٧)، ولمحات في علوم القرآن (ص ٢٢١، ٢٢٤).

إسلامي في حياة الأمة، ومحاولة الإصلاح بكل ذلك قال في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٩]، إنه « يجب على المسلم ألا ينظم الآية في سمط أخبار التاريخ ولا سلك الملل والنحل، أو علم المناظرة والجدل، بل يتلوها متذكرًا أنها ما أنزلت إلا هداية وعبرة لمن يؤمنون بالقرآن ليتقوا الخلاف في الدين والتفرق فيه إلى شيع ومذاهب، اتباعًا لسنن من قبلهم »[١]. مقدمًا بهذا إلى الحديث عن دواخل المسلمين وتصوراتهم الاعتقادية في عصره؛ إذ يذهبون في تفسير الآية إلى أن « دين المسيح عليه السلام، هو الإسلام، وأن الرؤساء الروحيين، هم الذين جعلوا ذلك الدين الواحد مذاهب... ونعيب ذلك عليهم... ولكن يجب ألا ننسى أنفسنا، ولا يغيب عنا ما أصبنا به من الخلاف والتفرق عسى أن يسعى أهل الإيمان الصادق... في نبذ الخلاف والشقاق »[٢].

إذ مما يتأسف له نسيان المسلمين لإسلامهم الذي يقرره القرآن والسنة وإصابتهم بمرض التمزق، حتى على مستوى علماء الأمة القائمين على أمرها « واعتبر بحال أهل الأزهر منهم ترى بعينك - كما رأينا -... وتفهم سر ما قصه اللّـه علينا من أنباء أهل الكتاب »[٣] في قول اللّـه تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [آل عمران: ١٨٧]...: حتى إن كثيرًا من حملة العمائم الدينية يجهلون حقيقة التوحيد، وربما عد بعضهم الداعي إليه كافرًا ومتبدعًا، ويعتمدون في هذا على قوة أنصارهم من العوام، الذين أضلوهم، فصاروا فتنة للناس وحجة على الإسلام »[٤]. يظهر هذا جليًّا من واقع الأمة؛ حيث « أمسى المسلمون من أجهل الشعوب وأفقرهم وأضعفهم وأقلهم خدمة لدينهم... »[٥]. نخر كيانهم الجهل والتمزق والاختلاف، فأكثرهم قد اتخذوا كتاب اللّـه مهجورًا[٦]. « ومن وقف على تاريخ الدول الإسلامية التي سقطت وبادت، والتي ضعفت بعد قوة يرى أن السبب الأعظم لفساد أمرها ترك ولاية النصرة والتعاون، واستبدال غيرها بها »[٧].

هكذا جاء تفسير المنار حافلًا بالقضايا التي تهم المجتمع الإسلامي في الصميم كمسألة

(١،٢) تفسير المنار (٣/ ٢٥٩).
(٣) ن.م (٤/ ٢٨٣، ٢/ ٧٥).
(٤) ن.م (٨/ ٢٥١).
(٥) ن.م (٨/ ٣٩٤).
(٦) ن.م (٩/ ٤٣٠).
(٧) ن.تفسير المنار (١٠/ ١١٢).

الخلافة والإمامة، وسياسة الدولة العامة وشكل الحكومة الإسلامية وأولي الأمر في الأمة[١].

وقضية دار الحرب ودار الإسلام، وحقوق الإنسان[٢] في الإسلام إلى جانب القضايا الأسرية والأحوال الشخصية والعلاقات العامة التربوية منها والاقتصادية والأخلاقية. كل ذلك في إطار سلفي المنهج، يطبعه التجديد على ضوء الكتاب والسنة.

ولعل أهم الأحداث التي أثرت على تفسير المنار، لتجعل منه تفسيرًا جامعًا هي: انهيار الخلافة الإسلامية[٣]. وبداية بروز قضية الأرض المقدسة (فلسطين)، حيث كانت الثانية من مظاهر انهيار الأولى.

الحالتان معًا مثلتا الحضيض الذي وصل إليه المجتمع الإسلامي في العصر الحديث، وهي قضايا ما زالت من أهم قضايا الفكر الإسلامي المعاصر، وسنكتفي بعد هذا العرض الموجز لواقع الأمة بثلاث قضايا جامعة من التفسير هي: القضايا الاجتماعية والقضايا الاقتصادية والقضايا التربوية.

***

المَبْحَثُ الأَوَّلُ: القضايا الاجتماعية:

مما أثبتناه ميزة بارزة في تفسير المنار على مستوى المنهج « إخضاع حوادث الحياة والمجتمع القائمة في عصره، لنصوص القرآن إما بالتوسع في المعنى أو بحمل الشبيه على الشبيه، واعتبار القرآن جميعه وحدة متماسكة، لا يصح الإيمان ببعضه وترك البعض الآخر[٤] وإذا ما تأملنا مقاصد القرآن الكريم وجدنا أنها تنحصر في مقصدين رئيسيين:

الأول: كيف يعبد الإنسان خالقه بعد أن يعرفه بأصح طريق وأقومها وأقصرها.

---

(١) ن.م (١/ ٤٩١، ٥/ ١٦٨، ١٨٩، ١٠/ ٣١٤).

(٢) ن.ن.م (١٠/ ٣١٣، ٣١٥، ٨/ ٣٠٨).

(٣) ن.ن.م (٤/ ٨٤، ٦/ ٥)؛ حيث يقول رشيد رضا عن سبب هجرته إلى مصر: « إنني لم أكن أستطيع وأنا في وطني الأول أن أقول الحق، ولا أن أكتبه ولا أن أخدم الملة والأمة بما خدمتها في مصر، وهي يومئذ مستقلة عن تركيا ».

(٤) تنظر (ص ١٣٨، ١٣٩).

الثاني: تنظيم العلاقات البشرية، وفق نظام إلهي كفيل بإسعاد البشرية في الدنيا وفي الآخرة، يرتبط فيه الاعتقاد بالسلوك، والعبادات بالمعاملات، من حيث التكليف ومن حيث التأثير في النظام الاجتماعي للإنسان.

واهتمام تفسير المنار بقضايا المجتمع - بالإضافة إلى كونها أثرًا من آثار الاجتهاد وإعمال النظر، الذي يكون أحد قواعد التفسير في المنهج السلفي - جاء نتيجة الانسلاخ الصارخ عن مبادئ الإسلام في النفس والمجتمع، ونتيجة ظهور ما اصطلح على تسميته بعلم الاجتماع[1]، وهو علم يعتني بدراسة الجماعات لاستكشاف الطريقة التي بواسطتها تعمل تلك الجماعات، وطبيعة العلاقات بين الأفراد، ومدى تأثيرها في حياتهم، ودراسة التنظيمات الاجتماعية لمعرفة طرق تطورها وأسباب ضعفها... ودورها في التغيير الاجتماعي...[2].

مما يدلنا على عناية هذا التفسير بعلم الاجتماع قوله عنه في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣١]: إن هذه الآية وما في معناها من قواعد علم الاجتماع البشري الذي لا يزال في طور الوضع والتدوين، وهو العلم بسنن اللّـه تعالى في قوة الأمم والشعوب وضعفها وعزها وذلها... وبداوتها وحضارتها وأعمالها، وفائدة هذا العلم في الأمم كفائدة علم النحو والبيان في حفظ اللغة[3]. وهذا يدل من جهة أخرى على اطلاعه وإدراكه لأهمية هذا العلم ودوره في التداول الحضاري.

على ضوء هذا الإدراك يحلل الآيات القرآنية، ذات العلاقة المباشرة بالجوانب الاجتماعية في الحياة الإسلامية، من هذا ما جاء في تفسيره لقول اللّـه تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] الواردة في سياق تشريع الطلاق وقواعد إجرائه؛ حيث قال: « والظلم آفة العمران ومهلك الأمم، وإن ظلم الأزواج لأزواجهن أعرق في الفساد، وأعمل في الهلاك من ظلم الأمير للرعية؛ لأن رابطة الزوجية أمتن الروابط وأحكمها فتلًا في الفطرة »، وهذا تحذير موجه بالدرجة الأولى

---

(١) فقد ظهر هذا العلم خلال القرن الثامن عشر وتحول إلى مادة مقررة للدرس في القرن التاسع عشر، ن. علم الاجتماع (ص ١١).

(٢) ن. علم الاجتماع (ص ١٣).

(٣) تفسير المنار (٨/ ١١١) وقال فيها: « وفي القرآن أهم قواعده وأصوله ».

لجيل مجتمعه الذي قال عنه: « إنه بلغ من التراخي والانفصام في الرابطة الزوجية لعهده، مبلغًا لم يعهد في عصر من العصور الإسلامية، فأسرف الرجال في الطلاق وكثر نشوز النساء، وافتداؤهن من الرجال بالخلع، لفساد الفطرة في الزوجين »[١].

والعلة في هذا المرض الاجتماعي « غرور الرجال بالقوة وطغيانهم بالغنى، وكفران النساء نعمة الرجال وحفظ سيئاتهم، وتماديهن في الذم لها، وما مضت به عادات الجاهلية في بعض المتقدمين، وعادات التفرنج في المعاصرات والمعاصرين »[٢]، واتباعًا لمنهج القرآن الكريم في ختم الآيات بما يناسب موضوعها قال في قول اللّـه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٧] الخاتمة لدعوة القرآن إلى العفو في حالة الفراق بين الزوجين؛ لأنه أقرب للتقوى، وأنسب للفضل، قال: « إن الآية ختمت بذلك للتذكير باطلاع اللّـه تعالى وإحاطة بصره بما يعامل به الأزواج بعضهم بعضًا، ترغيبًا في المحاسنة، والفضل، وترهيبًا لأهل المخاشنة والجهل ».

ومن تدبر هذه الآيات وفهم هذه الأحكام، يتجلى له نسبة مسلمي هذا العصر إلى القرآن.. فإن من تتبع أحوال المسلمين، وتبين ما يجري بين الأزواج... يخيل إليه أنهم ليسوا من أهل القرآن[٣]. ثم استطرد في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] استطرادًا عمق به مسألة حقوق المرأة في الإسلام معالجًا بذلك الوضعية المزرية التي كانت عليها المرأة في المجتمع على عصره، ولا سيما « وهذه الأمم الأوروبية التي كان من آثار تقدمها في الحضارة والمدنية، أن بالغت في تكريم النساء واحترامهن، وعنيت بتربيتهن وتعليمهن »[٤].

قال: « فإذا كان اللّـه قد جعل للنساء على الرجال مثل ما لهم عليهن، إلا ما ميزهم به من الرئاسة، فالواجب على الرجال بمقتضى كفالة الرئاسة أن يعلموهن ما يمكنهن من القيام بما يجب عليهن، ويجعل لهن في النفوس احترامًا يعين على القيام بحقوقهن.. فإن الإنسان بحكم الطبع يحترم من يراه مؤدبًا عالمًا بما يجب عليه... ولا يسهل عليه أن يمتهنه أو يهينه »[٥].

(١، ٢) تفسير المنار (٢/ ٣٩٠).

(٣) ن.م (٢/ ٤٣٥). لمزيد من التفصيل، ن. (٢/ ٣٩١، ٤/ ٤٦٢)، منه.

(٤) تفسير المنار (٢/ ٣٧٥). (٥) ن.م (٢/ ٣٧٧).

وقياسًا على الحكم التكليفي في الإسلام يؤكد هذه الحقوق أخذًا من آيات قرآنية أخرى؛ حيث يقول: « قد خاطب اللّـه تعالى النساء بالإيمان والمعرفة والأعمال الصالحة كما خاطب الرجال... أفيجوز بعد هذا كله، أن يحرمن من العلم بما عليهن من الواجبات والحقوق. فكيف يمكن للنساء أن يؤدين تلك الواجبات والحقوق مع الجهل بها...

وكيف تسعد أمة نصفها كالبهائم، لا يؤدي ما يجب عليه لربه ولا لنفسه ولا لأهله، ولا للناس »[1].

ويذهب إلى السلف ليعزز هذا التعميق لقضية المرأة، فينقل عن علي ﷺ أنه قال في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ [التحريم: ٦] علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم[2]، ثم يعلق قائلًا: « إذا كان الرجل يقي نفسه وأهله نار الآخرة، بتعليمهم وتأديبهم، فهو كذلك يقيهم بذلك نار الدنيا، وهو المعيشة المنغصة بالشقاء وعدم النظام »[3].

نترك هـذا الجانب ونفتح بابًا آخر نطلـع منه على قضية أخرى لها صلة وثيقة بموضـوع المرأة هذا، وذات صلة أوثق بالنظام الاجتماعي العام، تلك هي آفة الزنا، التي عالجها تفسير المنار من خلال آيات متعددة نذكر منها قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖ ﴾ [النساء: ٢٥].

بدأ حديثه ببيان جذور هذه المعضلة الاجتماعية، وتجذرها في المجتمع الجاهلي قبل الإسلام، لتستبين صورة التطابق بين جاهلية الأمس وجاهلية عصره، وليتبين فضل الإسلام على المرأة وعلى المجتمع.

فقد ذكر أن « الزنا في الجاهلية يطلق على نوعين: سري وعلني، وروي عن ابن عباس أن أهل الجاهلية كانوا يحرمون ما ظهر منه... ويستحلون ما خفي » ثم قال: « وهذان النوعان من الزنا معروفان الآن وفاشيان في بلاد الإفرنج والبلاد التي تقلد الإفرنج في شرور مدينتهم.. ومن هؤلاء المنفرنجين، من هم كأهل الجاهلية يستحسنون الزنا السري ويبيحونه، ويستقبحون الجهري ويمنعونه... ولكن المنسوبين إلى الإسلام منهم يستبيحونها بالعمل دون القول، ومن هؤلاء من تخدعه جاهليته، فتوهمه أنه

---

(١) ن.م (٢/ ٣٧٧).
(٢) ن. فتح القدير (٥/ ٢٥٤).
(٣) ن.م (٢/ ٣٧٨).

يكون على بقية من الدين، إذا هو استباح الفواحش بالعمل... بشرط ألا يقول هي حلال. ويجهل هؤلاء الضالون أن غير المسلمين يقولون أيضًا: إن الإسلام حرم هذه المحرمات... فهل صلحت بذلك نفوسهم وأحوالهم الاجتماعية »[١].

« فالفساق لا يبالون أين يضعون نطفهم... فمنهم من يزني بذات الفراش... ومنهم من يزني لمن لا فراش لها، فتختلط الأنساب وتزهق الأرواح، ويكثر الأشقياء... ومن الزانيات من تستعمل الأدوية المانعة من الحمل فتضر نفسها، وربما أفسدت رحمها »[٢].

ومن الآفات الاجتماعية التي توازي الزنا في الفتك بالأمة - وقد أولاها تفسير المنار من الاهتمام ما تستحق - آفة الخمر والميسر، وذلك في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢١٩]. وفي تحريمها الباتّ في سورة المائدة، نكتفي بموجز من تعداده لمضارها اجتماعيًّا، بما قاله في تفسير آية البقرة؛ قال: « والضرر يكون في البدن والنفس والمال، ويكون في التعامل وارتباط الناس بعضهم ببعض، ولا يوجد إثم من الآثام يدخل ضرره في كل شيء كالخمر...

وأنواع هذا الضرر كثيرة؛ منها الصحية والعقلية، ومنها النزاع والخصام، ومنها إفشاء السر، وأضره ما تعلق بالحكومة وسياسة الدولة ومصالحها، ومنها أن جريمة السكر تغري بجميع الجرائم، ولا سيما الزنا والقتل، ومن مضارها المالية أنها تستهلك المال وتفني الثروة وهذا في زمننا أشد... »[٣].

وما قرن اللّـه ﷻ بين الخمر والميسر في النهي والتحريم إلا لتقارب ضررهما الاجتماعي، إن لم يكن متطابقًا... لذلك قال تفسير المنار في الميسر: وأما كون إثم الميسر كبيرًا أو كثيرًا[٤]، فإن فيه ما في الخمر من الأضرار، وهذا ظاهر في ميسر العرب، وفي جميع أنواع القمار المعروفة في عصرنا، كاليناصيب، وإن لم تظهر مفاسده في بعض

---

(١) تفسير المنار (٥/ ٢٣).　　(٢) ن.م (٤/ ٤٦٧).

(٣) تفسير المنار (٢/ ٣٢٥ - ٣٢٧).

(٤) إذ في « إثم كبير »: قراءتان:

- إثم كثير: بالثاء المثلثة، حملًا على المعنى، وهي قراءة حمزة والكسائي.

- إثم كبير: قراءة الباقين من الكبر، أي فيهما إثم عظيم.

ن. الكشف عن وجوه القراءات (١/ ٢٩١).

أنواعه، بما يلهي عن ذكر اللَّـه، وما يورثه من تباغض، وما يفتحه من طريق لأكل أموال الناس بالباطل، من غير عوض حقيقي[١]. ومن مضاره أيضًا إفساد التربية، بتعويد النفس الكسل، وانتظار الرزق، من الأسباب الوهمية، وإضعاف القوة العقلية بترك الأعمال المفيدة في طرق الكسب التي هي أركان العمران؛ ومنها تخريب البيوت فجأة، بالانتقال من الغنى إلى الفقر في ساعة واحدة[٢].

إن الأمراض الثلاثة: الزنا - الخمر - الميسر - أشد الأمراض الاجتماعية ضررًا لما تحدثه من معضلات في المجتمع، متنوعة ظواهرها، انتزع تفسير المنار بعضًا من هذه الأضرار، من واقع الأمة المصرية فقال: « كنت أقول: إن المصريين لا يفنون في جنس آخر، وإن استولى عليهم قرونًا طويلة؛ لأنهم لا يرضون بكل سلطة، فلا يؤثر فيهم الذل والفقر كما يؤثر في غيرهم.. ولذلك تقلبت الأمم على المصريين، ثم زالت أو زال سلطانهم عنهم، وبقي المصريون مصريين... ولكني رجعت عن هذا القول بعدما رأيت من انتشار الخمر والزنا في البلاد... فإذا استمر السكر والفحش على سريانهما هذا، فلا يبعد أن تنقرض الأمة المصرية بعد جيلين أو ثلاثة كما انقرض هنود أمريكا، فلا يبقى منهم إلا بقية من الخدم والأجراء... فإن السكر والزنا كالمقراضين يقرضان الأمم قرضًا »[٣].

إن ما حدثنا عنه تفسير المنار في باب الاجتماعيات جانب واحد، جانب الأمراض الفتاكة بالفعل، ومثلها كثير. وهناك جوانب أخرى هي من الأمراض الفتاكة بالترك، وهو ما يسمى بالتكافل الاجتماعي نأخذ منه بعضًا مما قاله في تفسير قوله اللَّـه تعالى: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

فبعد أن قرر أن هذا الإيتاء غير إيتاء الزكاة التي تعد ركنًا ركينًا في الاعتقاد وفي التكافل الاجتماعي في الإسلام قال: وقد أغفل كثير من الناس هذه الحقوق العامة

---

(١) تفسير المنار (٢/ ٣٢٩).
(٢) ن.م (٢/ ٣٣٠).
(٣) ن. تفسير المنار (٢/ ٣٣٤) والكلام للشيخ محمد عبده، وقد علق عليه تلميذه في الهامش بقوله: وقد فشا بعده... في الشعب ما هو شر من الخمر وأفعل في قتل الأمم وهو استعمال بعض السموم حقنًا تحت الجلد أو شمًّا بالأنف كالمورفين والكوكايين والهروين.
ون. في الموضوع (٧/ ٧٣، ٨/ ٣١٣) من التفسير أيضًا.

التي حث عليها الكتاب العزيز لما فيها من الحياة الاشتراكية المعتدلة[١]... فلا يكادون يبذلون شيئًا لهؤلاء المحتاجين، إلا القليل النادر لبعض السائلين، وهم في هذا الزمان أقل الناس استحقاقًا؛ لأنهم اتخذوا السؤال حرفة[٢]... ولو أقاموها لكان حال المسلمين في معاشهم خيرًا من سائر الأمم، ولكان هذا من أسباب الدخول في الإسلام، وتفضيله على جميع ما يتصوره الباحثون من مذاهب الاشتراكيين والماليين »[٣].

أما جانب الخرافة والتدجيل وتعاطي السحر، وكل ما له صلة بهذا الميدان، ويُعدّ مرضًا اجتماعيًا فتاكًا، فقد أخذ من العناية في تفسير المنار ما يوجب جمعه وتصنيفه وإخراجه لمسلمي هذا العصر، للإسهام في تطبيبهم من هذا الداء العضال المستفحل.

والمسؤولية الأولى في الاستشفاء من الأمراض الاجتماعية والإصابة بها يلقيها على أهلها من العلماء، وذلك عند تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

وذلك عندما بين أن عددًا من العلماء « يتبعون أهواء الحكام والناس في الدين، فيفسرون لهم عملهم المحظور شرعًا بحيلة شرعية، فيحمدون لهم ذلك ويطرونهم عليه »، قال: « وقد علمنا من الثقات أن الحكام منذ كانوا، يتواطؤون مع كبار شيوخ العلم وشيوخ الطرق... فيظهر العلماء وشيوخ الطرق للعامة احترام الحكام، ويشهدون بقوة دينهم... ويتفق الرؤساء من الفريقين على إضاعة حقوق الأمة وإذلالها ليتمتعوا بلذة الرياسة... فيفرحون بما أتوا من ضروب المكايد السياسية والاجتماعية والتأويلات الدينية، ولو أنهم أقاموا الكتاب... لما عم الفسق والفجور وصارت الشعوب الإسلامية دون سائر الشعوب، حتى ذهبت سلطتها وتقلص ظلها... »[٤].

وعلى هذا يستنتج في استطراد بيانه لقول اللّـه تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ﴾ [المائدة: ٩٣]

---

(١) يقصد أن ينال الفرد ما يعيش به عزيزًا مكرمًا... ويبقى المجال مفتوحًا للزيادة عن الحاجة وليس الاشتراكية المذهبية، بدليل ما جاء في ختام النص، وفي مواضع أخرى من التفسير.

(٢) والمرض زاد استفحالًا في عصرنا حتى أصبحت الشحاذة حرفة.

(٣) تفسير المنار (٢/ ١١٧). وانظر: (٢/ ٤٦٧، ٤/ ٦٠) منه.

(٤) تفسير المنار (٤/ ٢٨٩).

« أن الجناح العظيم والخطر الكبير من ارتكاب المعصية ليس فيما عساه يصيب مرتكبها، بل الجناح والخطر في الإقدام على مخالفة أمر اللّـه تعالى وترجيح هوى النفس على مقتضى الإيمان والاعتقاد »[(١)]؛ لأن الضرر سيكون اجتماعيًّا، والعقاب سيكون جماعيًّا وفق سنن اللّـه في الاجتماع « حيث مضت سنته تعالى بجعل عقاب الذنوب أثرًا لازمًا للأمم في الدنيا ولو بعد حين »[(٢)]؛ لأن « الأجل المقدر لحياة الأمم... منوط بهذه السنن في الاجتماع البشري والعمران، وأسبابه محصورة في مخالفة هدي الآيات... بالإسراف في الزينة والتمتع بالطيبات، وبافتراق الفواحش والآثام، والبغي على الناس وبخرافات الشرك والوثنية... »[(٣)].

***

المَبْحَثُ الثَّانِي: القضايا الاقتصادية:

إن أي تصور للحياة، لكي يكون إسلاميًّا، لا بد أن ينطلق من مصدري الإسلام: القرآن والسنة، وإلا فليس من الإسلام في شيء، سواء تعلق الأمر بالاجتماع أو بالسياسة أو بالاقتصاد أو بالتصور الاعتقادي القلبي أو بالعقل والوجدان، أو أي تصور ينشأ عنه سلوك فردي وجماعي، يوجه نظم الحياة... فإذا هي حياة إسلامية تسعد المخلوق، وترضي الخالق.

وإذ تخلت الأمة - فيما تخلت - عن التصور الإسلامي للحياة المالية: كسبًا وتصرفًا وإنفاقًا، في وقت كان فيه عدوها قد أحدث لهذه الحياة علمًا قائمًا بذاته له قواعده ومناهجه؛ سمي بـ « علم الاقتصاد »، ذي مقومات عقدية بشرية. توجه بها الحياة الإنسانية نحو تحقيق الاستعمار والتوسع. واستجابة لعدد من المثيرات، استيقظ التفكير الإسلامي في العصر الحديث، ليثبت من خلال أصوله الأساسية « أن الإسلام قادر على إمدادنا بموقف إيجابي غني بالمعالم التشريعية والخطوط العامة، والأحكام التفصيلية، التي يمكن أن نصوغ منها اقتصادًا كاملًا، يمتاز عن سائر المذاهب الاقتصادية، بإطاره الإسلامي ونسبه السماوي وانسجامه مع الإنسانية وأبعادها ».

---

(١) ن.م (٧/ ٧٣).　　(٢) ن.م (٨/ ٣١٢).

(٣) تفسير المنار (٨/ ٤٠٢، ٤٠٣).

هذا ما حاولته المدرسة السلفية الحديثة؛ وهي تعمل جادة من أجل رفع التحديات، ونجده في تفسير المنار، في صورة إشارات ومبادئ عامة تتلاءم وطبيعة وجودها في التفسير، وليس في مؤلف متخصص. وكشأن أي علم في بدء تكونه لم تنضبط قواعده ومناهجه، ليصبح فنًّا من الفنون العلمية.

ولقد أشار تفسير المنار إلى بداية تكون هذا الخلق الجديد علمًا مستقلًّا، وأثار انتباه الأمة إلى أهميته تخطيطًا، ونأسف لِمَ لم تكن الأمة الإسلامية هي منجبته؟ في الوقت الذي استفاد منه عدوها في سيره الحضاري والاستعماري كالحال في علم الاجتماع.

ولقد لخص التصور القرآني للمال، باعتباره محور الاقتصاد، « بأنه فتنة؛ أي اختبار وامتحان للبشر في حياتهم الدنيوية من معايش ومصالح؛ إذ هو الوسيلة إلى الإصلاح والإفساد... وهو مثار التنازع والتنافس في كسبه وإنفاقه، وكنزه واحتكاره، وجعله دولة بين الأغنياء، وتداوله في المصالح والمنافع بين الناس ».

ومن الآيات التي اعتمدها أساسًا في الموضوع قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾ [النساء: ٥].

قال في تفسير كلمة « قيامًا »: « تقوم بها أمور معايشكم فتحول دون وقوعكم في الفقر »[١] من حيث كونها أساس المنافع وعماد المرافق، ولا يمكن أن يوجد في الكلام ما يقوم مقام هذه الكلمة ويبلغ ما تصل إليه من البلاغة؛ من الحث على الاقتصاد وبيان فائدته ومنفعته. والتنفير من الإسراف والتبذير... وبيان غائلته، فكأنه قال: إن منافعكم ومرافقكم الخاصة ومصالحكم العامة، لا تزال قائمة ثابتة، ما دامت أموالكم في أيدي الراشدين المقتصدين منكم، الذين يحسنون تثميرها وتوفيرها[٢].

فمعرفة طرق استثمار المال وحسن التصرف فيه، ركنا علم الاقتصاد، « وهذا الدين هو دين الاقتصاد والاعتدال في الأموال كالأمور كلها »[٣]... ولأن الزكاة تمثل أحد الأركان الخمسة للإسلام، وهو ركن اقتصادي اجتماعي صميم، فإن التفسير اعتنى بها في اتجاه إعادة هيكلة الأمة لتقوم على أسس إسلامية متميزة.

---

(١) تفسير المنار (١١/ ٢٧٢).
(٢) ن.م (٤/ ٣٧٨).
(٣) ن.م (٤/ ٣٨١).

فلقد أبان عن الجانب الإصلاحي للمال في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ [التوبة: ٦٠] بالإشارة إلى أن « أكثر المسلمين لم يبق لهم في هذا العصر حكومات إسلامية تقيم الإسلام »[1] وأن التزام أداء الزكاة، كافٍ لإعادة مجد الإسلام، موطئًا لإثبات هذه الدعوى « بأن المال قوام الحياة الاجتماعية والمليّة وملاكها، وقيام نظامها.. وأن الإسلام يمتاز على جميع الأديان والشرائع بفرض الزكاة فيه... ولو أقام المسلمون هذا الركن من دينهم لما وجد فيهم فقير مدقع، ولا ذو غرم مفجع »[2].

ويدخل في هذا مسألة تقسيم الخمس في قول اللّـه تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الأنفال: ٤١].

ففي تفسيرها بين « حكمة تقسيم الخمس على هذا النحو، بأن الدولة التي تدير سياسة الأمة، لا بد لها من مال تستعين به على ذلك، وهو أقسام:

- أولها: ما كان للمصلحة كشعائر الدين وحماية الحوزة، وهو ما جعل للّـه في الآية.
- ثانيها: ما كان لنفقة إمامها ورئيس حكومتها، وهو سهم الرسول ﷺ فيها..
- ثالثها: ما كان الأقوى عصبة وأخلصهم له... وهو سهم أولي القربى.
- رابعها: ما يكون لذوي الحاجة من ضعفاء الأمة، وهم الباقون... »[3].

هذا، ولقد جعل تفسير المنار « المال والاقتصاد » أحد المقاصد العشرة من مقاصد القرآن[4] وعدد تحت هذا المقصد أمهات المقاصد في مصارف الدولة الإسلامية في أمور؛ منها:

- اغتناء ناس لا يقدرون على شيء لزمانة، أو الاجتياح ما لهم أو بعدهم عنه.
- حفظ الأمة من شر الكفار بسد الثغور ونفقات المقاتلة والسلاح.
- تدبير الدولة وسياستها، من الحراسة والقضاء، وإقامة الحدود والحسبة.
- حفظ الملة بنصب الخطباء والأئمة والوعاظ والمدرسين.

---

(١) ن.م (١٠/ ٥١٢).
(٢) تفسير المنار (١٠/ ٥١٤).
(٣) ن.م (١٠/ ٨).
(٤) ن.م (١١/ ٢٧١)، المقصد السابع بعنوان: الإرشاد إلى الإصلاح المالي.

- منافع أخرى مشتركة؛ كبناء القناطر والسدود وشق الترع[١]... وختم مقررًا: « إن المال قوام الحياة وقطب الرحا للمعاش والمرافق، والناس متفاوتون في الاستعداد للكسب والتثمير والقصد والتدبير »[٢].

ومع ما بيناه من عناية تفسير المنار بالاقتصاد في حدود طبيعة التصنيف، فإنه فكر في (أصول هذا الأمر وفروعه، فتبين له أنه لا يمكن تفصيل القول فيها، إلا بتأليف مستقل[٣] ولكن هذا لم يمنعه - على عادته في كل مسألة لها علاقة بإصلاح شأن الأمة في عصره - من الإشارة إلى: عظم شأن المسألة الاقتصادية وإصلاح الإسلام فيها، فقال: « إن اتساع دوائر العلوم والفنون والمصالح العامة في هذا العصر قد اضطر الباحثين إلى انفراد بعض الأفراد والجماعات للإحصاء في كل فرع من فروعها لتمحيص مسائلها... حتى إن الرجال الماليين لا يستحقون هذا اللقب فيه إلا بعد إتقان عدة علوم منها... وإننا نرى بعض الاجتماعيين منهم يزعمون أن جميع الثورات والحروب السياسية الحديثة... كان المال سببها الصحيح... »[٤].

وللعلاقة الحميمة بين الاقتصاد؛ العلم والمذهب، والاقتصاد العملي المقابل للتبذير، يجعل تفسير المنار من حديث القرآن عن الاقتصاد بالمفهوم الثاني مناسبة لبيان هذه العلاقة قال: « إن نصوص الكتاب والسنة تنافي إنفاق كل ما يملك المرء، وتأمر بالقصد والاعتدال، ومن الآيات قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧] ومن الأحاديث نهي الرسول ﷺ لسعد بن أبي وقاص عن التصدق بجميع ماله »[٥].

ثم علق قاصدًا: « وقد قل في المسلمين الزهاد والمقتصدون، وكثر فيهم البخلاء والمسرفون الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون »[٦] مع العلم أن « الاقتصاد في المعيشة، قد وضعت له أصول وقواعد، فرعت منها مسائل وفروع، فيحسن الاستنارة بها، وبعلم تدبير المنزل، على اجتناب ما حظره الشرع من الإسراف والتبذير... واتباع

---

(١) ن.م (١٠/ ١٣).
(٢) ن. تفسير المنار (١١/ ٢٧، ١/ ١١٠).
(٣،٤) ن.ن.م (١١/ ٢٩).
(٥) ن. صحيح مسلم، كتاب الوصايا والصدقة، باب الوصية بالثلث.
(٦) تفسير المنار (١٠/ ٤٠٨).

ما حث عليه الشرع... من القصد والاعتدال في النفقات والصدقات »[١]. إنها العناية التامة بقضايا الأمة الاقتصادية، ومن ثم العناية بالأمة بدعوتها إلى معرفة علم الاقتصاد الإسلامي للخروج من مغبة التفريط.

ومن الإسهامات العملية لتفسير المنار، تحديد معنى الإسراف، وإبراز جانب المرض فيه، بعد تعريفه، بأنه تجاوز الحد في كل شيء بحسبه، قال: « وأما الحدود، فمنها طبيعي؛ كالرجوع والشبع والظمأ والري، فمن اكتفى بما يزيل الجوع والعطش دون استزادة للالتذاذ، لم يكن مسرفًا.

ومنها اقتصادي وهو أن تكون نفقة الثلاثة على نسبة معينة، من دخل الإنسان لا تستغرق كسبه... فمن جاوز طاقته مباراة لمن هم في الثروة مثله مسرفين، أو لمن هم أغنى منه وأقدر، كان مسرفًا »[٢].

فقوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٣] « يدل على أن النفقة المشروعة تكون ببعض ما يملك الإنسان، لا كل ما يملك، فهذا ركن من أركان الاقتصاد »[٣] الإسلامي الذي يجعل « من مقاصده الإصلاحية في الاجتماع البشري هداية الناس إلى العدل والفضل في أمر المال ليكتفي الناس شر طغيان الأغنياء وذلة الفقراء »[٤].

ولا يلبث تفسير المنار أن ينبه إلى خطر المذاهب الاقتصادية الأخرى المتربصة للانقضاض على الأمة، فيقول: « وقد غلا عباد المال من اليهود والإفرنج في جمع المال واستغلاله، واستعباد الألوف من العمال الفقراء به، وغلا خصومهم من الاشتراكيين، فجعلوه حقًا شائعًا، فانتهى هذا الغلو بالشيوعية في عصرنا أن استعبدت أكثر من مائة ألف في تنفيذ مذهبها.. ويخشى العقلاء من عاقبة هذا الإسراف والغلو، ولا منقذ للأمم من هذه الفتن وعواقبها إلا الإسلام »[٥].

ولماذا الإسلام؟ لأنه قرر من خلال قول اللّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [النساء: ٢٩] قاعدة عامة للتعامل المالي؛ حيث جعل مال كل فرد من أفراد المتبعين له، مالًا للأمة كلها، مع احترام الحيازة الملكية، وحفظ حقوقها.

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٨٧).
(٢) ن.م (٨/ ٣٨٥).
(٣) ن.م (١/ ١٣٠).
(٤،٥) ن.م (١١/ ٢٩).

فهو يوجب على كل ذي مال كثير حقوقًا معينة للمصالح العامة، كما يوجب عليه وعلى صاحب المال القليل، حقوقًا أخرى لذوي الاضطرار من جميع البشر[1].

ثم فصل هذا بأن الإسلام قد جعل « المال المعين المفروض في أموال الأغنياء، تحت سيطرة الجماعة من الأمة لئلا يمنعه بعض من يمرض الإيمان في قلوبهم... وترك إلى أريحية الأفراد سائر ما أوجبه الشرع إليهم أو ندبهم إليه... »[2].

لقد حاول التفسير بيان أهم أصول الإصلاح المالي في الإسلام وإن كان ليس في اختصاصه، ومن ذلك:

« ١ - إقرار الملكية الشخصية وتحريم أكل أموال الناس بالباطل، وتحريم الربا والقمار...

٢ - منعه أن يكون المال دولة بين الأغنياء، والحجر على السفهاء، حتى لا ضيعونها فيما يضر...

٣ - فرض الزكاة المطلقة في أول الإسلام ثم المعينة في كل ما يعد مالًا.

٤ - إيجاب كفالة المضطر من كل جنس ودين... وبذل المال كفارة وندبًا.

٥ - تحريم الإسراف والتبذير والبخل والشح، وإباحة الزينة والطيبات من الرزق.

٦ - تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر، بجعل اليد العليا خير من اليد السفلى »[3،4].

هذه المبادئ بمجموعها تكون نظرية متكاملة للاقتصاد في الإسلام، تنمية وكسبًا وتصريفًا، ساقها إلينا تفسير المنار، وهو يحاول إقامة ما يمكن أن يقيم، من أمر المسلمين... أخذًا مما هم به مسلمون « فماذا جرى لنا... حتى صرنا أشد الأمم إسرافًا وتبذيرًا وإضاعة للأموال، وجهلًا بطرق الاقتصاد فيها وتثميرها، وإقامة مصالح الأمة بها في هذا الزمن الذي لم يبق له نظير... من حيث توقف قيام مصالح الأمم ومرافقها وعظم

---

(١) تفسير المنار (١١/ ٢٩).
(٢) ن.ن.م (٥/ ٤٠).
(٣) أخرجه البخاري عن حكيم بن حزام عن النبي ﷺ قال: « اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول وخير الصدقة عن ظهر غنى... » كتاب الصدقة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى.
(٤) تفسير المنار (١١/ ٣١، ٣٢).

شأنها على المال، حتى إن الأمم الجاهلية بطرق الاقتصاد... قد صارت مستعبدة للأمم الغنية بالبراعة في الكسب والإحسان في الاقتصاد... وكيف جاز أن نسمي ما نحن فيه مدنية إسلامية مع مخالفتنا للقرآن في هذا الأمر »[١]. « وقد كان السلف من أشد الناس محافظة على ما في أيديهم، وأعرف الناس بتحصيل المال من وجوه الحلال »[٢]. إنه الجهل الفاضح والفهم المخطئ.

***

ٱلْمَبْحَثُ ٱلثَّالِثُ: القضايا التربوية:

في معرض تنبيه القرآن الكريم على المنة الكبرى التي تفضل بها الرب الكريم على العرب، قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجمعة: ٢، ٣] .

ما بعث به الرسول كان كتابًا وحكمة، يتلوهما عليهم للتزكية والتطهير والترقية، وهذا عين التربية... ثم هي تزكية متواصلة، تواصل الزمن لتحقيق عملية التربية في الواقع البشري، بدأ بالجيل الذي بعث فيه المزكي، لتمتد عملية البناء بالتزكية، وإعادة البناء - إذا هدمته التدسية - بامتداد حفظ وتلاوة الكتاب والحكمة؛ إذ هما المقوم الأول والأخير في المنهج التربوي الإسلامي. بهما تحدد الوسائل تبعًا لتغيرها من زمن إلى آخر، وبهما تحدد الأهداف لصنع الإنسان الصالح كما يريده خالقه جل وعلا.

فالمدرسة السلفية الحديثة عامة - وفي التفسير خاصة - إن هي اعتنت بالتربية، فذلك من صميم منهجها، فمصدرها المرجعي في التصور والتنظير، وتحديد الوسائل والغايات، هو القرآن والسنة، تستجيب من خلالها لمتطلبات الحياة المتجددة، عبر مراحل التاريخ.

ومن **تطبيقات ذلك،** ما نجده في تفسير المنار، من عناية بأساليب التربية وطرقها وأهدافها، بل حتى تحديد مفهومها انطلاقًا مما اشتقت منه. ففي تفسيره لقول اللّٰه تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢]. قال: « إن معنى الرب: السيد المربي

---

(١) تفسير المنار (٤/ ٣٨٢).

(٢) ن.م (٤/ ٣٨٣).

الذي يسوس مسوده ويربيه ويديره،... وربوبية اللّـه للناس، تظهر بتربيته إياهم. وهذه التربية قسمان:

- تربية خلقية بها يكون به نموهم وكمال أبدانهم، وقواهم النفسية والعقلية. وتربية شرعية تعليمية، وهي ما يوحيه إلى أفراد منهم ليكمل به فطرتهم بالعلم والعمل إذا اهتدوا به، فليس لغير رب الناس أن يشرع للناس عبادة، ولا أن يحرم عليهم ويحل لهم من عند نفسه بغير إذن منه تعالى[١].

فمصدر الحياة وجودًا وتغذية وتوالدًا كله من عند اللّـه كتربية الإحساس النفسي، والتفكير العقلي، والسلوك العملي، كله من عند اللّـه تعالى، تأمله تفسير المنار، من العبارة القرآنية (رب العالمين).

- والقسم الثاني: يوجب على الأمة المؤمنة بالوحي، القيام بأمر التربية لذا قال: « فما يناط بهذه الأمة - وهو أصل كل معروف - النظر في تعليم الجاهلين، فإذا علمت في أن في مكان ما طائفة من المسلمين جاهلين بما يجب، اتخذت الوسائل لتعليمهم، ولا يجهل أحد أن الرسول ﷺ قد تصدى لتعليم الناس، ولم يقعد في بيته منتظرًا سؤال الناس، وكذلك فعل الصحابة اقتداءً به »[٢].

إن الاستشهاد بالرسول ﷺ وبالصحابة في مجال التعليم والتربية هو بيان لفساد قول كثير من فقهاء العصر، القائلين بأنه لا يجب عليهم أن يتصدوا لتعليم الناس، ما لم يسعوا إليهم ويسألونهم... وذلك عند تفسيره لقول اللّـه تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤][٣].

لكن التصدي للتعليم والتربية يتطلب العلم، فإذا « أبيح للجهلة أن يعلموا فإنهم يربون تلاميذ أجهل منهم فيكونون كلهم محرفين » ويفسد بهم الدين لا سيما إذا صاروا مقربين من الأمراء والحكام...[٤]. لأن وظيفة التربية والتعليم تستدعي تكوينًا علميًّا خاصًّا، يُكوّن الدعامة الأساسية للقيام بهذا العمل، ولأن الأمة الداعية إلى الخير والآمرة بالمعروف، الناهية عن المنكر، قيامًا بتبعة الإيمان، لا يتم قيامها بالأمر إلا بتوفر أوصاف

---

(١) تفسير المنار (١/ ٥٠، ٥١).
(٢) ن.م (٤/ ٤٦).
(٣) انظر تفسيرها في: (٤/ ٢٦ - ٤٧) من تفسير المنار.
(٤) ن.م (٤/ ٢٨٣).

علمية أجملها تفسير المنار في:

« ١ - العلم التام بالقرآن والسنة، وسيرة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين، والسلف الصالح، وبالقدر الكافي من الأحكام.

٢ - العلم بحال من توجه إليهم الدعوة، في شؤونهم، واستعدادهم وطبائع بلادهم وأخلاقهم، أو ما يعبر عنه في عرف العصر بحالتهم الاجتماعية.

٣ - مناشئ علم التاريخ العام ليعرف الفساد في العقائد والأخلاق والعادات.

٤ - علم تقويم البلدان... وقد كان الصحابة أعلم زمانهم بالتاريخ وبما يسمى الآن بالجغرافية.

٥ - علم النفس... أي العلم الذي يبحث عن قوى النفس وتصرفها في علومها وتأثير علومها في أعمالها الإرادية، وقد كان الصحابة على حظ عظيم منه... وإن لم يتدارسوه بطريقة صناعية. ولا يفوت تفسير المنار التنبيه على أن « الإنسان في كل زمان يحتاج إلى نوع من طرق التعليم، غير ما كان في الزمن الذي قبله، فالحقيقة الواحدة قد تختلف طرق العلم بها باختلاف الزمان والمكان والأحوال »[١]. حتى لا تبقى أفكار القارئ مرتبطة بعصر السلف وإن تحولت الأحوال، واستجدت مستجدات.

٦ - « علم الأخلاق وهو العلم الذي يبحث فيه عن الفضائل وكيفية تربية المرء عليها..

٧ - علم الاجتماع، وهو العلم الذي يبحث فيه عن أحوال الأمم وحضارتها وأسباب ضعفها وقوتها.

٨ - علم السياسة، والمراد به العلم بحال دول العصر وما بينها من الحقوق والمعاهدات...

٩ - العلم بالفتوى والعلوم المتداولة في الأمم، بما في ذلك اللغة.

١٠ - معرفة الملل والنحل، ومذاهب الأمم فيها ليتيسر بيان ما فيها من الباطل »[٢].

إنها شروط علمية تضمن للمربي منهجًا تربويًّا، قوامه المعرفة وفن التلقين، وتنوع

---

(١) ن.م (٤/ ٣٨ - ٤٤).

(٢) تفسير المنار (٤/ ٣٨ - ٤٤).

الأساليب، قاعدة هذا المنهج، ابتغاء مرضاة اللَّـه وحده بإخلاص النية، انطلاقًا من قول اللَّـه تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤].

قال في تفسيرها: « وإنما تنال مرضاة اللَّـه تعالى بالشيء، إذا فعل على الوجه الذي يحصل به الخير ويتم به النفع الذي شرع لأجله... وبهذا يكون المؤمن أرقى من الفيلسوف في عمله، وأبعد من الغرور... متحريًا نفع الناس، واجتناب الأهواء ذلك بأن الفلاسفة... يقولون: إن الخير والفضيلة والكمال في الإنسانية هو أن يفعل الإنسان الخير؛ لأنه خير نافع للهيئة الاجتماعية التي هو منها... والإيمان يهدينا إلى هذا وإلى ما هو أعلى منه وأشرف، وهو أن نشعر أنفسنا عند عمله أننا مظاهر لرحمة اللَّـه تعالى ورأفته بعباده ومجالي لحكمته في إصلاح خلقه »[١].

والنفس المؤمنة في مقصدها هذا تتغذى على مائدة الإحسان المطلوب منها في كل شيء وفق « سنته تعالى في خلق الإنسان مريدًا مختارًا حاكمًا على نفسه، وعلى الطبيعة المحيطة به، بحيث يتصرف فيها التصرف الذي يراه خيرًا؛ ولذلك غير من أطوار كثيرة أحوال معيشته وأساليب تربيته »[٢]، وذلك في مقابل « قاعدة التربية المادية المبنية على أن أمور الحياة كلها تجارة يقصد منها الربح العاجل... وعلى هذه القاعدة قام بناء الاستعمار الإفرنجي في العالم »[٣] وعلى الأولى قام الفتح الإسلامي لكل البقاع التي فتحها.

ومن الطرق التربوية المثلى في المنهج الإسلامي - حسب تفسير المنار - إذا ما تعلق الأمر بالتنشئة - ما بينه في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٨]: أن « أمثل الطرق لإقامة الناس على طرائق الحق والفضيلة، إنما هي حملهم على ذلك بالعمل والتعويد، مع التعليم وحسن التلقين، كما يربى الأطفال في الصغر، وكما يمرن الرجال على أعمال العسكر.

وإن من أكبر الخطأ أن يُسمع للأحداث بطاعة شهواتهم، واتباع أهوائهم بشبهة تربيتهم على الحرية والاستقلال... بما يفيدهم من العلم في سن الرشد، من الإقناع بطريق الاستقلال... لأنه قلما يوجد في الناس من يتبع هواه وشهوته في الصغر، ثم

---

(١) ن.م (٥/ ٤٠٧، ٤٠٨)، ن. (٨/ ٤٦٢) منه.

(٢) تفسير المنار (٥/ ١١٤).

(٣) ن.م (٨/ ٤٦٣).

يرجع عن ذلك... في الكبر، بعد أن يصير ملكة وعادة له... وإنما تربية الصغار على ما عرف من الحق، وتقرر من أصول الفضيلة والأدب؛ كتربيتهم على النظافة، ومراعاة قوانين الصحة. وتأخير تلقينهم فائدة الدليل والبرهان إلى وقت الاستعداد لها في الكبر لا ينافي تربية الاستقلال »[١].

ومن أساليب تحقيق هذه الطريقة في التربية ما قاله في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ [النساء: ٨٠]. مبينًا شأن الرسالة المحمدية ومن ثم نهج نهجها، قال: « ليس من شؤون الرسالة أن يكره الناس عليها؛ لأن اللّـه أرسل الرسول بشيرًا ونذيرًا، لا حفيظًا عليهم؛ أي مسيطرًا ورقيبًا... بل الإيمان والطاعة من الأمور الاختيارية التي تتبع الاقتناع »[٢] وذلك عند بلوغ المدعو سن التكليف، وبلغة التربية؛ وقت الاستعداد لها...

فالتربية بالقهر والطاعة العمياء من سيماء النصرانية في القرون الوسطى[٣]. ومن هذا الأسلوب أيضًا ما قاله في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢] فبعد أن بين ما فعله رؤساء الدين عند النصارى بما يسمى صكوك الغفران، استنبط من الآية « أنه لا يجوز لرؤساء المدارس الدينية، ولا ينبغي لغيرهم عقاب أحد من طلاب العلم، بالحرمان من بعض الدروس - فضلًا عن طرده من المدرسة - وحرمانه من تلقي الدين والعلم البتة »[٤] مستشهدًا لهذا بأنه « كان من هدي الرسول ﷺ تأليف قلوب ضعفاء الإيمان حتى بعد قوة الإسلام وإعزازه »[٥].

أما التربية بالقدوة الحسنة فأسلوب قرره تفسير المنار في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْ ﴾ [البقرة: ١٠٤] بقوله: أذن اللّـه للمؤمنين بهذه الكلمة (انظرنا) وأمرهم بالسماع للنبي ﷺ ليعوا عنه ما يقول من الدين، وهو أمر يتضمن الطاعة والاستجابة... ولا شك أن من يعامل

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٣٥٦).
(٢) تفسير المنار (٥/ ٢٨٠).
(٣) قال: لقد وضع رؤساء النصرانية قوانين لتربية القسيسين والرهبان والصعاليك، فاستعبدوا الناس وكانوا سبب ضعف أممهم..ثم زلزلت الانقلابات الاجتماعية ذلك، انظر: تفسير المنار (٥/ ٢٨٢).
(٤،٥) تفسير المنار (٧/ ٤٤٣).

أستاذه ومرشده معاملة المساواة في القول والعمل، يقل احترامه له، ونزول هيبته من نفسه، حتى تقل الاستفادة منهم أو تنعدم... وإذا لم تزل الاستفادة منه، من حيث كونه معلمًا فإنها تقل أو تزول لا محالة من حيث كونه مربيًا؛ لأن المدار في التربية على التأسي والقدوة... »[1].

إن ما تتطلبه التربية « تعهد النفوس بالأعمال الحسنة، والأخلاق الفاضلة، لترتقي النفس ويتسع وجودها فيعظم خيرها وينتفع الناس بها[2]. وهناك أسلوب آخر هو من ثمرات علم النفس الذي يعتبر أحد شروط تولي عملية التربية، ذلك هو: استشعار النفس البشرية بالكرامة وادكارها بالعزة، هذا ما أشار إليه التفسير في بيانه لقول اللّه تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٢] مسترسلًا في تعداد ما تحمله الآية من أنواع التذكير بالنعم بأن اللّه « طلب منهم أن يذكروا نعمته عليهم وتفضيله إياهم على الناس إحياءً لشعور الكرامة في نفوسهم... وهذا أسلوب حكيم في الوعظ، فينبغي لكل واعظ أن يبدأ وعظه بإحياء إحساس الشرف، وشعور الكرامة في نفوس الموعظين، لتستعد بذلك للقبول... فإن النفس إذا استشعرت كرامتها وعلومها، ونظرت إلى ما في الرذائل من الخسة أبى لها ذلك الشعور أن تنحط إلى تعاطي الخسائس »[3]، ذلك « أن شعور الشرف والرفعة ملازم للإنسان، لا يفارقه، ولكنه قد يضعف، حتى لا يظهر له أثر »[4] وهذا ما يسمى بعلم النفس التربوي في مفهوم التربية الحديثة.

ولن نترك هذا الباب في تفسير المنار، حتى نرى أسلوبًا آخر من أساليب التربية هو من الأهمية بمكان، ذلك هو التنزه عن فعل السوء وقوله، وقد بينه في تفسير قول اللّه تعالى: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ [النساء: ١٤٨] **بحيث إن في هذا الجهر مفسدتين:**

إحداهما: أنه مجلبة للعداوة والبغضاء، بين من يجهرون بالسوء ومن ينسب إليهم هذا السوء.

الثانية: أنه بذكره على المسامع يؤثر على نفوس السامعين تأثيرًا ضارًّا، فإن الناس

---

(١) ن.م (١/ ٤١١).
(٢) ن.م (٢/ ٢٥٤، ٤/ ١٨٥، ٨/ ١٨٦).
(٣) تفسير المنار (٢/ ٣٠٢ – ٣٠٣).
(٤) النساء: (١٤٨).

يقتدي بعضهم ببعض في الحسن والقبيح، خصوصًا إذا كان المتلقي من الأحداث.. وأقل ضرر السوء أنه يضعف في النفس استبشاعه واستغرابه[١].

وهذا اللون من التربية يدخل في إطار التربية بالقدوة ولكنه من نوع خاص؛ لذا يستحق التنبيه إليه، ويكون مناسبًا أن نذكر هنا ما قاله في تفسير قول اللّـه تعالى عن إخوة يوسف: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ [يوسف: ٨] من أنه تجب عناية الوالدين بالأولاد وتربيتهم على المحبة والعدل، واتقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم، ومنه اجتناب تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضول إهانة له[٢] فهذا يعد من الجهر بالسوء في مثل هذا المقام، ومن هنا يجب « سلوك سبيل الحكمة في تفضيل من فضل اللّـه تعالى بالمواهب والفطرة كمكارم الأخلاق، والتقوى، والعلم، والذكاء... »[٣].

وجماع القول: إن موضوع التربية في تفسير المنار، واسع سعة تفسير كتاب اللّـه تعالى، وشامل شموله من حيث تعدد الصور والطرق والأساليب، ولا سيما والتفسير يحمل هم الإصلاح، والإصلاح تربية تعم كل قضايا الإنسان.

***

(١) تفسير المنار (٢/ ٢٠٣).
(٢) تفسير المنار (٦/ ٣).
(٣) ن.م (١٢/ ٢٦).

الفَصْلُ الرَّابِعُ

الإصلاح الاجتماعي في تفسير المنار

سبق أن حددنا مدلول الإصلاح من منظور إسلامي في مبحث سابق(١). مؤداه أنه إصلاح يشمل كل فاسد في واقع الأمة، شمول بناء وتجديد وإعادة هيكلة، لكل ما لا يتفق والدين، أصولًا وفروعًا. ذلك ما كان العالم الإسلامي في أمسِّ الحاجة إليه - وقد أصبح الإسلام غريبًا في وطنه - بما حمّلته عقائده وتشريعاته « من البدع وسيئ التأويل وقصور الأنظار... فقصرت المعاني عن غاياتها، وانكمشت مرامي الدين عن أنظار العلم والحكمة »(٢). في عصر كانت فيه الحضارة الغربية المادية قد نصبت مجانيقها ترمي بشرر خبثها البقية الباقية من معالم الإسلام، تزرع الشكوك وتثير الشبهات.

في هذا الظرف القلق « بعث اللّه على رأس القرن الثالث عشر الهجري حكيمًا.. يجدد للأمة أمر دينها، شد أزره في ذلك مريد له تخرج به، وهما: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وقد استفادت الأمة من إصلاح هذين الحكيمين وممن جرى على أثرهما ما بعث فيها الاستعداد للإصلاح(٣). تلقف الفكرة باهتمام وشغف عن هذين المصلحين مريد آخر، هو محمد رشيد رضا عبر قناة العروة الوثقى التي حببت إليه حكيمي الشرق ومجددي الإسلام ومصلحي العصر، ليحولها إلى واقع عملي، من خلال تفسير القرآن الكريم، إيمانًا منه بأن القرآن الكريم مادة الإصلاح الأولى. ومن أجل تحقيق الفكرة، هاجر إلى مصر للاتصال بالشيخ محمد عبده للوقوف على أخباره وآرائه في الإصلاح الإسلامي، بعد أن خاب أمله في الاتصال بصاحب الفكرة الأولى

---

(١) ن. (ص ٥٧) وما بعدها، الباب الأول، الفصل الثاني.

(٢) التفسير ورجاله (ص ١٥٠).

(٣) تفسير المنار (٨/ ٢٢٨).

السيد الأفغاني[١] بموته.

وما نفط غبار السفر إلى مصر، حتى اتصل بالشيخ محمد عبده ضحوة اليوم الذي وصل فيه إلى القاهرة، واقترح عليه أن يكتب تفسيرًا للقرآن ينفخ فيه من روح الإصلاح التي كان نورها بدأ يشع من مقالات العروة الوثقى[٢].

اعتذر الشيخ عن تنفيذ الاقتراح، لأسباب تتعلق بالمنهج التربوي الكفيل بتحقيق فكرة الإصلاح، تراعى فيه نفوس أهل العصر ونوعية التفسير المحتاج إليه، عند ذاك أنشأ التلميذ مجلة المنار للدعوة إلى الإصلاح[٣].

وما لبث أن صعّد الإلحاح على الشيخ حتى أقنعه بقراءة التفسير، مراعيًا حاجة العصر؛ لأن الزمان لا يخلو ممن يقدر كلام الإصلاح قدره[٤].

شرع الشيخ محمد عبده في قراءة التفسير بمنهج إصلاحي، والتلميذ يدون في مذكراته كل الأفكار التي تحملها مقالة الشيخ، ثم شرع التلميذ في نشر مقالات التفسير في مجلته الإصلاحية - المنار - سنة (١٣١٨هـ)، باقتراح من الراغبين في الإصلاح. اشتد شعور التلميذ بحاجة الناس إلى تفسير مستقل، يودعه ما تلقاه عن شيخه[٥]، فكان تفسير المنار بما فيه من إبانة عن طرق الإصلاح والدعوة إليه، وبيان سننه في الفرد والمجتمع، فريد تفاسير عصره ورائد التفاسير التي أتت بعده، بجمعه بين أسلوب التفسير الموضوعي والأسلوب الإجمالي المقارن، ولهذا التفرد والريادة يقترح على قارئ « تفسير المنار » أن يقرأ الفصول الاستطرادية الطويلة وحدها التي يزخر بها هذا المؤلف في غير الوقت الذي يقرأ فيه التفسير، ليتفرغ إلى تدبر القرآن والاهتداء به في نفسه، وفي النهوض بإصلاح أمته وتجديد شباب ملته، الذي هو المقصود بالذات منه[٦].

ومن على هذا المنبر ينادي في علماء الأمة أن « أحيوا كتاب اللّـه؛ فواللّـه إنه لا حياة

---

(١) ن. تفسير المنار (١/ ١١)، ن. تاريخ الأستاذ الإمام (١/ ٨٥) رسالة رشيد رضا إلى الأفغاني في الأستانة سنة (١٣١٠هـ).

(٢،٣) ن.ن.م (١/ ١٢) وتاريخ الأستاذ الإمام (١/ ٨٤).

(٤) ن.ن.م (١/ ١٣).

(٥) ن.م (١/ ١٥، ١٦).

(٦) تفسير المنار (١/ ١٦).

لهذه الأمة بسواه، فهي بترك هدايته عادت إلى عادات الجاهلية وما هو شر منها »[1].

الآن وقد أبان التفسير من مقصده الإصلاحي، نفتح فيه نوافذ ثلاثة، نطل منها على هذا الإصلاح معتقدين أن الفصول التي أخذناها من تفسير المنار هي شكل من أشكال الإصلاح، إما في أدواته أو في مناهجه أو في أغراضه، وما النوافذ التي سنطل من خلالها إلا محاولة أولية نهدف من ورائها إلى بيان أمراض الأمة وأسبابها وسبل إصلاحها، والعوائق التي تعترض هذا السبيل، كما بين ذلك تفسير المنار. وكأن الزمن في العالم الإسلامي لم يبرح عصر تفسير المنار مما يعطي لأفكاره في الإصلاح مشروعية الدرس والنقد والتبني، إسهامًا في وضع لبنة في العمل الإسلامي والدفع به إلى الأمام في عصرنا هذا.

***

ٱلْمَبْحَثُ ٱلْأَوَّلُ: أمراض الأمة وأسبابها:

الأمراض الاجتماعية كالأمراض العضوية، تتطلب الطبيب الماهر والدواء الناجع سواء تعلق الأمر بالوقاية أو بالعلاج وهو أمر يتطلب أيضًا إدراكًا تامًّا لنوعية المرض وطبيعته، والبيئة التي ينمو ويتكاثر فيها.

والإصلاح في الإسلام، وظيفة اجتماعية، الغرض منها منع تسرب الفساد إلى المجتمع، والحيلولة دون انتشاره، أو اقتلاعه؛ إذ هو تمكن من المجتمع، بالوقوف في وجه مظاهر التحلل والضعف والانحطاط، بتصحيح المفاهيم والأفكار، وتصويب المعتقدات، وتقويم السلوك.

في هذا الإطار فسح تفسير المنار لوصف أمراض الأمة وبيان مصادرها، قيامًا منه بمهمة الإصلاح والتجديد، ولبيانها فيه نأخذ العناصر التالية:

١ - اتباع الأهواء في مقابل العلم والحق:

قال في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٥]. « نقرأ هذا التشديد والوعيد، ونسمعه

---

(١) ن.م (٢/ ٣٩٩).

من القارئين ولا نزدجر عن اتباع أهواء الناس ومجاراتهم على بدعهم وضلالهم، حتى إنك ترى الذين يشكون... من البدع والأهواء، ويعترفون ببعدها عن الدين يجارون أهلها ويمازجونهم فيها، وإذا قيل لهم في ذلك؛ قالوا: ماذا نفعل؟ ما في اليد حيلة...؟ آخر الزمان... وأمثال هذه الكلمات هي جيوش الباطل تؤيده وتمكن له في الأرض »[١].

واللّـه تعالى يقرر حتمية حدوث المرض الاجتماعي بركوب سفينة الأهواء في قوله سبحانه: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[المؤمنون: ٧١]. وتظهر حالة التمكين للأهواء في النفس البشرية « بالإنكار على المصلحين، ويعدون عملهم عبثًا أو جنونًا؛ إذ يحاولون ما لا فائدة فيه عندهم... وأعجب من هذا أن منهم من يرى أن إزالة المنكرات والبدع ومقاومة الأهواء والفتن، جناية على الدين، ويحتج على هذا بأن العامة تحسبها من الدين، فإذا أنكرها العلماء عليهم، تزول ثقتهم بالدين كله... وبأنها لا تخلو من خير يقارنها كالذكر الذي يكون في المواسم والموالد »[٢]. فالوهم إذا ما أصاب بعض النفوس حال بينها وبين الصواب، « ومتى رسخ هذا الوهم في النفس يصعب انتزاعه على العقلاء »[٣].

والسبب النفسي لهذه الآفة الاجتماعية يحصره تفسير المنار في « محاولة الإنسان إرضاء الناس، بمجاراتهم على أهوائهم، وتأويلها لهم، ولولا ذلك لما سكت العالمون بكونها بدعًا ومنكرات » وهذا يمثل جانبًا من جوانب اتباع العلماء لأهواء العامة، ولو رأيت اتباعهم لأهواء السلاطين والأمراء والوجهاء... لظهر لك كيف أضاع الناس دينهم، فسلط اللّـه عليهم، من لم يكن له عليهم سبيل »[٤]، « ولبان لك توجيه الوعيد في الآية المفسرة إلى النبي المعصوم[٥] وعليه، فلا يكبرون عليك أن تحكم على من يسمون أنفسهم أو يسميهم الحكام كبار العلماء، بأنهم من الظالمين، إذا اتبعوا أهواء الأمة أو شهوات الأمراء والسلاطين »[٦].

---

(١) تفسير المنار (٢/ ١٨، ١٩). (٢،٣) ن.م (٢/ ١٩).

(٤) تفسير المنار (٢/ ١٤٩). ون. كتاب: « حتى يغيروا ما بأنفسهم » (٣٥) تحليلًا نفسيًا واجتماعيًا مهمًا لمرض الوهم.

(٥) إشارة إلى قول اللّـه تعالى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١]، وقد استولى الشيوعيون الشرقيون والماليون الغربيون على أقطار عديدة من العالم الإسلامي في عصره.

(٦) تفسير المنار (٢/ ١٩).

٣ - التأويل المخطئ لآيات الكتاب:

في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾[البقرة: ٢٣٨] بعد بيان أن المحافظة على الصلاة آية الإيمان الكبرى قال: « أرأيت هذه الآيات العزيزة... الناطقة بالعزيمة، قد نال منها التأويل نيله في الزمن الماضي، وأعرض جماهير المسلمين عنها في الزمن الحاضر، حتى كثر التاركون الغافلون المارقون... ذلك أن الإسلام عند هؤلاء المسلمين الذين يصفون أنفسهم بالمتمدنين قد خرج عن كونه عقيدة دينية إلى كونه جنسية سياسية، آية الاستمساك به..والدفاع عنه مدح كبراء حكامه، وإن كانوا لا يقيمون حدوده، ولا ينفذون أحكامه... إن أحدهم لتتلى عليه الآيات والأحاديث، فيصر مستكبرًا كأن لم يسمعها، فمنهم من يصده عنها عدم إيمانه بها، ومنهم من يصدف عنها بالاتكال على شفاعة الشافعين، والغرور بالانتساب إلى الإسلام »[١].

ومن هذا الحال يستنتج جودت سعيد « أن المصائب التي تنزل بالمسلمين هي بسبب تكذيبهم بآيات اللـه، وإعراضهم عنها، وهم لا يعرفون ارتباط هذه المصائب... بما في أنفسهم من الأفكار الخاطئة التي تحدث هذه العلل »[٢]. فالفهم المخطئ والتأويل الجائر أديا إلى التهاون في أداء الصلاة أو تركها بالمرة، فكان من أثر هذا « فشو الفواحش بانتشار حانات الخمر، ومواخير الفجور والرقص، وبيوت القمار... وَعَبَدَ الناس المال لا يبالون أجاء من حرام أم من حلال!.. وقلّت الثقة من أفراد الأمة... وغير ذلك من فساد الأخلاق، وقبيح الفعال في الأفراد؛ حتى كادت الأمة تخرج عن كونها أمة حقيقية، متكافلة بالمصالح الاجتماعية... فالأمة الآن في دور الانسلاخ عما كانت به أمة، بسيرة سلفها الصالحين »[٣] فقد أصابها مرض الانفصام الاجتماعي والنفسي، الذي أفقدها توازنها الإيماني، والصواب في التفكير.. وصار أفرادها « يعدون حفظ القرآن وقراءته من موانع الجهاد في سبيل اللّـه بالمال والنفس، فكان من قوانينهم أنَّ حافظ القرآن، لا يطالب بتعليم فنون الحرب، والجهاد؛ لأنه حافظ، وصار حملة الكتاب، لا يطالبون ببذل شيء من مالهم في سبيل اللّـه، حتى إذا ما طولب أحدهم ببذل شيء...

---

(١) ن.م (٢/ ٤٤١).

(٢) حتى يغيروا ما بأنفسهم (ص ١٦٧).

(٣) تفسير المنار (٢/ ٤٤١).

اعتذر بأنه من العلماء، أو الحفاظ لكتاب اللّـه تعالى... »[١].

٣ - ترك هداية القرآن والأخذ بالتقليد:

قال في هذا: « لقد نبذنا هذه الهداية وراء ظهورنا، وأخذنا في الأخلاق والآداب التي هي روح حياة الأمم، بأقوال فلان من الجاهلين الذين لبّسوا علينا بلباس الصالحين فنفثوا في الأمة المبالغة في التزهيد وإنفاق ما تصل إليه اليد، وإنما كان يريد أكثرهم إنفاق كسب الكاسبين عليهم، وهم كسالى لا يكسبون... حتى صار من المعروف المقرر عند جميع شعوب المسلمين إدرار المال... على علماء الدين، وشيوخ الطرق »[٢]، ولم يكن هذا هو الصنف الوحيد في الأمة التي أوهن هيكلها وسعى في تمكين عدوها منها، وإنما هناك أصناف أخرى على رأسها الأغنياء البخلاء، والملوك والزعماء الجبناء...[٣].

إن مرض التقليد من الأمراض الطارئة على الأمة « بأثر من تأييد الحكام والأوقاف التي وُقفت على فقه المذاهب، واستسلام العامة لشيوخ الطرق، حتى اتخذوهم أربابًا في التحريم والتحليل »[٤] فلم يكن « في القرن الأول شيء من هذه التقاليد، وهذه الأعمال التي نحن عليها، بل ولا في الثاني، ولا يشهد لهذه البدع كتاب ولا سنة، وإنما سرت إلينا بالتقليد أو العدوى من الأمم الأخرى فكان من الناس من اتخذ من دون اللّـه أندادًا يحبونهم، ويخضعون لهم كحبهم وخضوعهم للّـه... مما أدى إلى تأخر المسلمين وسقوطهم فيما سقطوا فيه.

إن التقليد وترك الاجتهاد بالكتاب والسنة، واستبدال أقوال الناس بهما أبعدا الأمة عن الإسلام إلى حد أنه لو دخل في الإسلام رجل عاقل أو شعب مرتقٍ لحار، لا يدري بما يأخذ، ولا على أي المذاهب والكتب في الأصول والفروع يعتمد...[٥].

٤ - الاختلاف والتفرق:

وهو مرض تولد في أصل نشأته عن التقليد. والسبب المباشر في الاختلاف والتفرق « فشوُّ الجهل وتعصب أهل الجاه من العلماء لمذاهبهم التي إليها ينتسبون ومنها

---

(١) ن.م (٢/ ١١٤).
(٢) ن.م (٤/ ٨٣).
(٣) ن: ن.م (١٠/ ٤١٠).
(٤) ن.م (٨/ ١٦٩).
(٥) تفسير المنار (٢/ ٧٦).

يعيشون... أيدهم الأمراء والسلاطين، واستعانوا بهم على إخضاع العامة وقطع طريق الاستقلال العقلي والنفسي على الأمة؛ لأن هذا أعون لهم على الاستبداد وأشد تمكينًا لهم مما يهوون من الفساد والإفساد[1].

إن التبعة الكبرى في كل ما أصاب الأمة - حسب تفسير المنار - ملقاة على عاتق علماء الأمة وأمرائها، لما كانوا يقومون به من تسخير كل الأجهزة الفاعلة لتحقيق أطماعهم السياسية والاستبدادية والنفسية، فاختلفت الأمة تبعًا لاختلاف أهواء هؤلاء « وما كان التفرق إلا من الرأي الذي اتبعت فيه الأمة سنن من قبلها، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع[2]، ولما كثر القول بالرأي قام أهل الأثر يردون على أهل الرأي وينفرون الناس منهم، فكان علماء الأحكام قسمين: أهل الأثر والحديث؛ وأهل الرأي، وكان أئمة الفريقين من المؤمنين المخلصين ينهون عن تقليد غير المعصوم في الدين، ثم حدثت المذاهب وبدعة تعصب الجماعة الكثيرة للواحد، وفشا بذلك التقليد بين الناس، فضاع العلم من الجمهور بترك الاستقلال في الاستدلال فكان هذا أصل كل شقاء وبلاء لهذا الأمة في دينها ودنياها »[3].

لقد أنجز التفسير في فترة التمزق الداخلي للأمة كما عاش فترة اقتسام الأمم الكبرى الاستعمارية للعالم الإسلامي كتقسيمهم حلوى أعياد الميلاد في تقاليدهم المسيحية، فزاد بذلك تعمق المصلحين، وتنقيبهم عن السبب فيما حدث من اختلاف وتمزق وما تبعهما من ضعف واستعمار. هذا ما تؤكده المقالة المستقلة التي عنونها تفسير المنار « تطبيق في أسباب افتراق المسلمين وما آل إليه »[4]. أرجع فيه أسباب الافتراق إلى خمس قضايا كلية:

الأولى: السياسة والتنازع على الملك.

الثانية: عصبية الجنس والنسب.

الثالثة: عصبية المذاهب في الأصول والفروع.

---

(١) ن.م (٢/ ٤٣٩).

(٢) أخذًا من قول رسول اللّـه ﷺ: « لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى إنهم لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم » أخرجه مسلم في كتاب الفتن، باب لتتبعن سنن من قبلكم.

(٣) تفسير المنار (٧/ ١٤٣)، ن (٦/ ٢٧١) منه.

(٤) ن.م (٨/ ١١٧).

الرابعة: القول في الدين بالرأي.

الخامسة: دسائس أعداء الدين وكيدهم[١].

وقد علق على موضوع الافتراق في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، بما يحسن ذكره هنا، قال: « كان التفرق... سببًا لضعف المتفرقين وذلهم... ولم يبق بينهم وبين من قبلهم فرق إلا في أمرين:

أحدهما: حفظ القرآن من أدنى تغيير وأقل تحريف، وضبط السنة النبوية بما لم يسبق مثله في أمة من الأمم.

ثانيهما: وجود طائفة من أهل الحق في كل زمان تدعو إلى صراط اللّـه وحده وتتبعه بالعمل والحجة »[٢] ثم يلاحظ « أن هؤلاء قد قلوا في القرون الأخيرة وكل إصلاح في الإسلام متوقف على كثرتهم »[٣] وهذا إنذار بما آلت إليه الأمة، وتذكير لها بثوابت التجديد والإصلاح في هذه الملة، يزرع الأمل ويذهب الغفلة.

٥ – توسيد الأمر إلى غير أهله:

على هامش الاستطراد في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩] استشهد بقول الرسول ﷺ: « **إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة** »[٤]. ذاهبًا في فهم الساعة في الحديث إلى أنها ساعة الأمة؛ حيث تقوم قيامتها، أي تدول دولتها... لأن قيامة الجماعات كقيامة الأفراد[٥].

على هذا المنهج الاجتماعي في التفسير، ذهب يقول في الموضوع: « إن خروج أمر الناس من يد أهله القادرين على القيام به كما يجب، سبب لفساد أمرهم، ومدنٍ للساعة التي يهلكون فيها بالظلم، أو بخروج الأمر من أيديهم... ».

إن الأمة الإسلامية هي المقصودة في الأساس بالخطاب النبوي التحذيري؛ لذلك،

---

(١) ن.م (٨/ ١١٧).   (٢) ن.م (٨/ ١٩٦).

(٣) تفسير المنار (٨/ ١٩٦).

(٤) أخرجه البخاري عن أبي هريرة، كتاب العلم، باب من سئل علمًا وهو مشتغل في حديثه.

(٥) ن. تفسير المنار (٥/ ٢١٤).

فإن « توسيد... أمرها إلى غير أهله، لا يمكن أن يكون باختيارها، وهي عالمة بحقوقها، قادرة على جعلها؛ حيث جعلها كتاب اللّـه تعالى، وإنما يسلبها المتغلبون هذا الحق بجهلها وعصبيتهم، التي يعلو نفوذها نفوذ أولي الأمر، حتى لا يجرؤ أحد منهم على أمر ولا نهي، أو يعرض نفسه للسجن، أو النفي، أو القتل،... هذا ما كان، وهذا هو سبب سقوط تلك المماليك الواسعة... والدول العظيمة، ووقوع ما بقي في أيدي المسلمين تحت وصاية الدول العزيزة، التي لم تعتز ولم تقو إلا بجعل أمرها بيد الأمة، وتوسيد هذا الأمر إلى أهله »[1].

٦ - سوء فهم المسلمين لأحاديث الفتن:

قد خصص تفسير المنار لهذا المرض الفكري والاجتماعي مبحثًا مستقلًا، عنوانه: « تنبيه غافل وتعليم جاهل » نرى وجوب تصنيفه ضمن هذا المبحث لما له من أهمية في رفع الأصرار والأغلال التي تكبل عددًا من الطاقات الفكرية والعملية في العالم الإسلامي.

والمناسبة التي سيق فيها الموضوع في تفسير المنار؛ هي تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: « يسيء كثير من المسلمين فهم أحاديث الفتن، ويحملونها على ما يضرهم، فوجب تبيين الحق »[2].

ومما بين به هذا الحق قوله: « إن لأحوال الأمم العامة تأثيرًا عظيمًا في فهم أفرادها لنصوص الدين وغيرها من أقوال الحكماء والشعراء، فهي في ارتقائها بالعلم والحكمة وما يثيران من العزة والقوة تكون أصح أفهامًا وأصوب أحكامًا وأكثر اعتبارًا... وفي حالة فشو الغباوة والجهل... تكون عكس ذلك »[3]. وبذلك يكون تفسير المنار قد وضع سنة اجتماعية؛ ثم اعتمدها أداة في تحليل واقع المسلمين عندما قال: « ولقد وطن جماهير المسلمين أنفسهم منذ قرون على الرضا بجميع الفتن والشرور التي أنبأت الأحاديث بوقوعها في المستقبل، فقعدت هممهم عن القيام بما أمر اللّـه تعالى به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... معتذرين لأنفسهم بأن ذلك قدر قد ورد بوقوعه الخبر، فلا مهرب منه،... كما يعتذرون لأنفسهم عن ترك مجاراة الأمم العزيزة بالنصوص والحكم التي وردت في التنفير عن الطمع والجشع.

---

(١) ن.م (٥/ ٢١٥).

(٢،٣) تفسير المنار (٧/ ٤٩٧).

وحقيقة الأمر أنهم رزئوا بالجهل والخمول والكسل، وسقوط الهمة، فهم بجهلهم يتعبون ويشقون.. ولكن لحظوظهم الشخصية الدنيئة، ولا يفكرون في المصالح العامة... فالنبي ﷺ لم يخبر أمته بما سيقع فيها... إلا لأجل أن يكونوا على بصيرة في مقاومة ضرها واتقاء تفاقم شرها »[١].

وصدق اللّه العظيم إذ يقول: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩]. فالأمة لجهلها وسوء فهمها « لا تدري من أين أخذت، ولا كيف سقطت، بعدما ارتفعت »[٢].

***

ٱلْمَبْحَثُ ٱلثَّانِي: سبيل الإصلاح:

إن الإحساس العميق بقيام المشكل يدفع الإنسان الجاد إلى التفكير والبحث لإيجاد حل له.

هذا ما تنبه إليه تفسير المنار، لما قرر « أن المرض الذي يصيب الأمم إنما يأتي من عدم البصيرة والتأمل في حال الأمة من بدايتها إلى ما انتهت إليه، ولو عرفت الأمة نفسها لعرفت ماضيها، كما عرفت حاضرها، ولكن جهلها بنفسها وعدم قراءة ماضيها، هو الذي أوقعها فيما هي فيه من البلاء العظيم »[٣]. وعليه يصبح من اللازم العمل على إعادة العقل الإسلامي إلى وظيفة التفكير في أحوال الأمة، من أجل إصلاحها. استنادًا إلى معطيات القرآن في هذا الاتجاه، وذلك باستشارته واستنطاقه في كل صغيرة وكبيرة، « فقد اشتدت حاجة البشر إلى إصلاح روحي مدني ثابت الأركان، يزول به استعباد الأقوياء للضعفاء واستدلال الأغنياء للفقراء، ويبطل به امتياز الأجناس لتحقيق الأخوة العامة بين الناس، ولكن يكون ذلك إلا بحكومة الإسلام »[٤]. لم لا وهو الدين الذي جاء للناس كافة من أجل إصلاح أحوالهم وترشيد أمرهم.

من هذه الحقيقة يبني تفسير المنار القاعدة الاجتماعية التالية: « إن الكلام في هداية

---

(١) ن.م (٧/ ٤٩٨).
(٢) ن.م (٣/ ١٠٦).
(٣) تفسير المنار (٣/ ١٠٦).
(٤) ن.م (٩/ ٢٣).

الجماعات من البشر... الذين يتحقق بارتقائهم معنى الإنسانية في الحياة الاجتماعية سواء كانت بدوية أو مدنية قد علمنا التاريخ أنه لم تقم مدنية في الأرض.. إلا على أساس الدين، حتى مدنيات الأمم الوثنية... وعلمنا القرآن أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير... وليس للبشر ديانة يحفظ التاريخ أصلها حفظًا تامًّا إلا الديانة الإسلامية »[١].

إنه اهتمام من التفسير بعالمية الدعوة الإسلامية في سبيل إصلاح عالمي شامل لحالات الإفلاس التي بدأت عوارضها تظهر في عصره، ثم هو من جهة أخرى اهتمام أملته ظروف تطاحن العقائد والمذاهب في اتجاه السيطرة العالمية، فالإفلاس العالمي كان علماء الاجتماع من الغربيين في العصر الحديث يتنبئون به في دراساتهم الاجتماعية للحضارة الغربية[٢]، واهتمام التفسير جاء من طبيعة الدعوة، ومن قضايا الأمة التي كانت في أشد الحاجة إلى الإصلاح، ولكن في إطار الخصوصيات التي تثقل واقع العالم الإسلامي من إرجاء وقدر وجبر، وسيطرة الأقطاب والأبدال، وأصحاب العمائم، وأصحاب الطرق الصوفية، على العامة التي تركت الخاصة - وحكامها بالذات - تستبد استبدادًا صبيانيًّا أسهم بنصيب وافر في استفحال المشكلة وصعوبة حلها.

في هذا الإطار سعى تفسير المنار للإصلاح بوضع المناهج وتبيين السبل:

ومن ذلك:

١ - العلم المقرون بالعمل:

« فبقدر العلم والعمل بالشرع وسنن الكون والاجتماع يكون حظ الأمم من السعادة... وسعادة الناس أفرادًا وأسرًا وأممًا وشقاوتهم في الدنيا والآخرة، تابعة لأعمالهم وتصرفاتهم في مواهبهم... وما يبتليهم به اللّه تعالى من النعم والنقم... ولا شيء مما يطلبه الناس إلا وهو منوط بأعمالهم التي ابتلاهم بها، بحسب ما قرره شرعه... ومضت به سننه في نظام الأسباب والمسببات »[٣]. وأساس كل عمل صالح هو العلم.

وإذا كانت المؤسسات العلمية في العصر الحديث، غالبها وأهمها في يد الاستعمار النصراني فقد حضَّ تفسير المنار الأثرياء من الأمة على تأسيس المعاهد العلمية بقوله:

---

(١) ن.م (٤/ ٤٢٩).
(٢) ن. تفسير المنار (٤/ ٤٢٩).
(٣) ن.م (٨/ ٢٥٠).

« لو أسس الأغنياء مدارس للجمع بين تعليم العلوم الدينية والدنيوية لاستغنوا بها عن مدارس النصرانية ولأمكن للمصلحين منهم إذا تولوا إدارتها أن يخرجوا لهم فيها رجالًا يحفظون للأمة دينها وملكها، ويعيدون إليها مجدها »(١).

ولأهمية العلم في سبيل الإصلاح قال في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]: إن القول على اللّـه بغير علم، هو أعظم أصول المحرمات الذاتية التي حرمها اللّـه تعالى على ألسنة جميع رسله، لأنه منشأ الأديان الباطلة ومنشأ تحريف الأديان المعرفة، وشبهة الابتداع في الدين الحق(٢).

إن أهم سبل الإصلاح في الإسلام هي العلم، فهو سبيل من صميمه؛ لذلك يتعجب التفسير، كيف ينتشر في أهله الابتداع وتتعارض فيه المذاهب وتتعادى الأشياع مع نهي كتابه عن التفرق والاختلاف(٣) والقول على اللّـه بغير علم. وما ضعف الدعوة إلى الإسلام إلا بضعف أكثر دعاتها وابتداع بعضهم(٤) « وإن ارتقاء الشعوب في مصالحها القومية والوطنية وفي عزتها الدولية... أثر طبيعي لإحسان أعمالها، من أسباب المعاش، والثروة والقوة الحربية، والتكافل والتعاون على المصالح والمقومات العامة لها »(٥). ولا يحصل ذلك إلا بالعلم.

فبالعلم والإحسان تحصل التقوى واللّـه سبحانه يقول: ﴿ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩]. قال في تفسير الآية: « إن هذا الوعد المبني على هذا الوصف هو الأساس الأعظم لسنن الاجتماع في فوز الجماعات الدينية والسياسية، والشعوب والأمم في مقاصدها، وغلبها على خصومها ومناوئيها، كما أنه هو الأساس الراسخ لفوز الأفراد في أعمالهم. من مالية واجتماعية »(٦).

٢ - معرفة السنن الكونية والاجتماعية:

وهي حظ من العلم، ولكنه علم خاص يتلمس من الآيات القرآنية التي تدعو إلى الاعتبار بأخبار الأمم الماضية ومن أحاديث الفتن، ومن الأحداث التاريخية في الحياة البشرية عامة، قال في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ [يونس: ٢٣]. بعد بيان عقوبة البغي أهي دنيوية أم أخروية؟ إنه يجب علينا أن نرجع في تحقيق الحق

(١) ن.م (١٠/ ٤١١).
(٢،٣) تفسير المنار (٨/ ٣٩٨).
(٤،٥) ن.م (٨/ ٣٩٩).
(٦) ن.م (١٢/ ٢٤٣).

في هذا الموضوع إلى سنن اللّـه تعالى في العمران، وطبائع الاجتماع البشري، التي تثبتها وقائع التاريخ، فهي التي تفسر لنا أن البغي - وهو من أخص ضروب الظلم للناس - يرجع على فاعله؛ وذلك لأنه سبب من أقوى أسباب العداوة والبغضاء بين الأفراد، وإيقاظ نار الفتن والثورات في الأقوام... فإن ذنوب الأمم والدول، عقابها أثر طبيعي لظلمها وفسادها[1]. كما أن فلاحها في شؤون الحياة وهلاكها رهين أيضًا بمعرفة الأسباب والسنن واستغلالها، قال في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الأنعام: ١٦٥]: « ربما ترى قومًا يدعون الإيمان باللّـه ورسله، كلهم أو بعضهم، يعتمد في قضاء حوائجهم من شفاء مرض وسعة رزق، ونصر على عدو... على التوسل ببعض الأنبياء والصالحين... وتجد آخرين ليس لهم مثل اعتقادهم وعملهم هذا، وهم أحسن منهم صحة، وأوسع رزقًا وملكًا، وإذا قاتلوهم ينصرون عليهم ويسودونهم... وسبب ذلك أنهم يعرفون سنن اللّـه في الأسباب والمسببات، وإنما الرغائب تنال بالأعمال مع مراعاة تلك السنن »[2].

وهكذا فإن من يعلم أن كل أنواع المشكلات خاضعة لسنن، ويمكن كشفها والسيطرة عليها، يتسم سلوكه هذا بالإيجابية والإقبال على العمل بجد[3]؛ لأنه يبنى على العلم بمعرفة السنن الكونية وتسخيرها والتطبيق العملي لهذا السبيل يجليه تفسير المنار، متوسعًا في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فيذكر أنه جرت سنة الأنبياء والمرسلين، والسلف الصالحين، على الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان محفوفًا بالمكاره... ولا ينافي هذا كون التوقي من الهلكة واجبًا لذاته في هذه الحالة... فلا نترك الدعوة إلى الخير، ولا الجهاد دونه خوفًا على أنفسنا، حرصًا على الحياة الدنيا. ولا نفرط بأنفسنا في أثناء دعوتنا وجهادنا فيما لا تتوقف الدعوة ولا حمايتها عليه، فإدراك الصواب في الحالتين يتوقف على معرفة السنن والنواميس الكونية، والاعتبار بسيرة الأنبياء والمصلحين، مع تمييز الأولويات وترتيبها في ميدان العمل الدعوي، ومن هذه السنة يقرر أن الأمم لا تتربى

---

(١) تفسير المنار (١١/ ٣٤٤).
(٢) ن.م (٨/ ٢٥١).
(٣) ن. حتى يغيروا ما بأنفسهم (ص ٢٧).

بالإرشاد إلا إذا أعدت الأنفس له الشدائد والمصائب، ولا سيما أنفس أهل الجهل المركب، المغرورين بما بقي لهم من حثالة الملك...»[١].

وهذه صورة منتزعة من واقع الأمة الإسلامية، ونظرتها المتفائلة إلى الدولة العثمانية، غافلة عما كانت تعانيه من الضعف والوهن.

٣ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال في هذا السبيل: « هذان الركنان هما بعد الإيمان، أعظم أركان خيرية الأمة » أخذًا من قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]. لأن أي فساد « لا يدوم في أمة تقيم هذين الركنين، ولو بغير نظام... وأن هذه الأمة ما فتئت خير أمة أخرجت للناس حتى تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٢]؛ لأنهما حفاظ الاجتماع وسياج وحدة الأمة، إذ ما قارنتهما الدعوة إلى الخير، في تراتب تتابعي:

« **الأولى**: دعوة هذه الأمة سائر الأمم إلى الخير، وأن يشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدى... وهذا مطلوب منا بحكم جعلنا أمة وسطًا وشهداء على الناس.. »[٣].

الثانية: في الدعوة والأمر والنهي: دعوة المسلمين بعضهم بعضًا إلى الخير وتآمرهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر بينهم، وله طريقان:

- **الطريق الأول**: الدعوة العامة الكلية... ويقوم بها خواص الأمة العارفون بأسرار الأحكام وحكمة الدين وفقهه،... ومن مزايا هؤلاء تطبيق الأحكام على المصالح في كل زمان ومكان »[٤]. وهو يشير بهذا إلى من سماهم بأولي الأمر من المسلمين، الذين تتوفر فيهم أدوات الاجتهاد الفقهي العام، أو في دائرة اختصاصهم؛ إذ من بدهيات الإسلام أن القاعدة الأولى للإصلاح في المنهج الإسلامي هي الاجتهاد.

- **الطريق الثاني**: الدعوة الجزئية الخاصة، وهي ما يكون بين الأفراد بعضهم مع بعض، ويستوي فيه العالم والجاهل، وكل واحد يأخذ من هذه الفريضة العامة بقدره، فإن أفراد الأمة إذا قام كل واحد منهم بنصيحة الآخر... امتنع فشو الشر والمنكر فيهم[٥].

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٢٢٨).
(٢) ن.م (٤/ ٦٠).
(٣) ن.م (٤/ ٢٧).
(٤) ن.م (٤/ ٢٨).
(٥) تفسير المنار (٤/ ٢٩).

فالعمل الجماعي مما يحفظ للأمة كيانها إذا ما اتبعت فيه الأساليب التي أشار إليها القرآن، وصار عليها رسول الإسلام ﷺ في هذا الصدد - اتباع الرسول ﷺ - وفي بيان سبل الإصلاح، عقد تفسير المنار فصلًا مستقلًا لمعنى اتباع الرسول وموضوع الاتباع ولوازمه، في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ومما جاء فيه: « إن تبليغ الدعوة إلى الإسلام على الوجه الذي تقوم به الحجة، يختلف باختلاف الزمان والمكان والأفراد والأقوام، وهذا اعتبارًا بسلوك الرسول ﷺ مع مشركي العرب في عصر البعثة، وبسيرته مع أهل الكتاب في الفترة المدنية.

فقد كانت دعوته ﷺ لأهل الكتاب تختلف من بعض الوجوه عن دعوة المشركين »[١]... وأما هذا العصر « فقد كثرت فيه الملاحدة والمعطلة، وتجددت للكفار على اختلاف فرقهم، شبهات جديدة، يتوكؤون عليها على مسائل من العلوم العصرية التي لم تكن معروفة عند الأقدمين، وحدثت للناس آراء ومذاهب في الحياة مختلفة... بل منها ما قد يفضي إلى فساد العالم وتقويض دعائم العمران... فصار من الواجب مراعاة ذلك في الدعوة إلى الدين، والاحتجاج له ورد الشبه التي توجه إليه »[٢].

٤ - موالاة أفراد الأمة لبعضهم بالنصرة والتعاون:

« وإلا يفعله المسلمون تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، وقد وقعت الفتنة والفساد الكبير بترك المسلمين هذه الولاية بينهم... وتولي بعضهم لمن نهاهم اللّـه عن ولايتهم »[٣].

قال مفسرًا قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣]: « الإسلام يوجب على أهله تولي بعضهم لبعض في التعاون والنصرة وعدم تولي غيرهم من دونهم، ويوجب على حكومته القوية العدل المطلق والمساواة فيه بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر »[٤] لاتحاد أصل المنشأ ووحدة الخالق.

« ومن وقف على تاريخ الدول الإسلامية التي سقطت وبادت، والتي ضعفت بعد

---

(١) ن.م (٩/ ٣٠٩).
(٢) ن.م (٩/ ٣٠٩، ٣١٠).
(٣) ن.م (٨/ ١٠١).
(٤) تفسير المنار (١٠/ ١١٢).

قوة، يرى أن السبب الأعظم لفساد أمرها ترك تلك الموالاة أو استبدال غيرها بها »[١].

على أن النصرة والتعاون بين الحاملين لرسالة الإصلاح في الأمة أوجب وأجدى لتوقف نجاح العمل عليها.

هذا ما أكده تفسير المنار من خلال تفسير قول اللّـه تعالى: على لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ ﴾ [هود: ٢٩]؛ حيث بين أن حكم الآية « مبني على سنن الاجتماع في الزعامة والعصبية، وتأليف الجماعات التي تحدث الانقلابات في الأمم، وكون ثباتها وظفرها رهنًا بإيمان الجماعة التي تآلفت لأجله... ومنه ولاية بعضهم لبعض، بصفة يكون فيها الزعيم خير قدوة للأفراد، بتفضيله أدنى المؤمنين منهم، على أعظم الكبراء من خصومهم »[٢].

على هذا التحليل ومفاهيمه، يبني التفسير القاعدة التالية: « إن الصالحين والمصلحين في الأرض، هم الذين يحفظ اللّـه بهم الأمة من الهلاك ما داموا يطاعون فيها بحسب سنة اللّـه »[٣]... والمراد بالصالحين الذين يحفظ اللّـه بهم الأمم هم الذين قال اللّـه فيهم: ﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] واللّـه لا يحفظ الأمم، لا بذوات الصالحين المصلحين، ولا ببركة أجسادهم وعبادتهم الشخصية... بل بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وطاعة الأمم لهم، وموالاة بعضهم لبعض »[٤].

٥ - إقامة العدل في الأمة؛ سبيل للإصلاح ووسيلة الحفاظ عليه واستمراريته:

قال في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٩] يقول تفسير المنار: « إن ظن المغرورين بأن يكون لهم السلطان والخلافة في الأرض بمجرد دعوى الإيمان والإسلام ولو مع بعض الأعمال البدنية من غير إقامة العدل في الناس، والعمارة والإصلاح في الأرض، هو من الهزء بآيات اللّـه في كتابه، وآياته في خلقه »[٥]. إن الآيات القرآنية والكونية « متفقة على أن الأرض يرثها عباد اللّـه الصالحون لعمارتها وإقامة العدل فيها[٦]. فالقرآن

(١) تفسير المنار (١٠/ ١١٢).
(٢) ن.م (١٢/ ٢٤١).
(٣) ن.م (١٢/ ٢٤٤).
(٤) ن.م (١٢/ ١٤٥).
(٥) البقرة: (٢٠٩).
(٦) تفسير المنار (٢/ ٢٦١).

يصرح بأنه: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧]. في سياق تفسيرها قرر التفسير مبدأين:

« الأول: ما كان من شأن ربك وسننه في الاجتماع البشري أن يهلك الأمم بظلم منه لها، في حال كون أهلها مصلحين في الأرض متجنبين للفساد والظلم.

الثاني: ليس من سنته تعالى أن يهلك القرى بظلم يقع فيها، وأهلها مصلحون في أعمالهم الاجتماعية والعمرانية بتفسير الظلم بالشرك بل لا بد أن يضموا إلى الشرك الإفساد في الأعمال والأحكام، وهو الظلم المدمر للعمران »[١].

فإقامة العدل مدافعةً لكل أنواع الباطل سنةٌ كونية، يشير إليها القرآن الكريم، بقول اللّـه تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

وعن هذا يحدثنا تفسير المنار في معرض تفسيره لقول اللّـه تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٠]. مبينًا وجه إقامة الحجة في صورة أداء الأمانة بقوله: « إن المعارضات والمحاجات تظهر ضعف الباطل وزهوقه، وتبين قوة الحق وثبوته... وقد خلت سنة الكون بأن الفتن تنير الطريق لأهل الحق، وترخي سدول ظلمته على أهل الباطل،.. فكل إنسان يرى نفسه على الحق في الجملة، ولكن التمكن في المعرفة والثبات على الحق، لا يعرف في الغالب إلا إذا وجد للحق خصم ينازعه ويعارضه في الحق، هناك تتوجه قواه إلى تأييد حقه وتمكينه... وكثيرًا ما يظهر الباطل الحق بعد خفائه، فإن المعارضة في الحق تحمل صاحبه على تنقيحه وتحريره، بما عساه يلتصق به »[٢]. غير أن تفسير المنار لا يلبث حتى يحدد لنا مظاهر المفاسد الاجتماعية الكبرى في أربع حالات، العمل على إزالتها هو إصلاح شامل متكامل:

الأول: طغيان الثروة ودولتها.

الثاني: عدوان الحرب وقسوتها.

الثالث: ظلم المرأة واستباحتها

---

(١) ن.م (١٢/ ١٩٢).

(٢) تفسير المنار (٢/ ٢٦).

الرابع: ظلم الضعفة والأسرى.

ذلك بأن جميع حظوظ الدنيا منوطة بها، ولا يتم الإصلاح فيها إلا بتعاون الدين والعلم والعقل والحكم والحكمة[١].

هذا وإن تفسير المنار يجعل كل سبل الإصلاح رهينة فعاليتها بلغة القرآن والسنة، فهو يقول: « وجملة القول: إن إقامة دين الإسلام متوقفة على لغة كتابه المنزل، وسنة نبيه المرسل، سواء في ذلك هدايته الروحية ورابطته الاجتماعية،... وحكومته العادلة المدنية، وإن المسلمين لم يكونوا في عصر من العصور أحوج إلى الوحدة المفروضة عليهم المتوقفة على هذه اللغة منهم في هذا العصر، الذي تمزقوا فيه كل ممزق »[٢].

فضعف المسلمين في لغة القرآن هو الذي أوقعهم في الضعف في الفهم والضعف في الدين. وتبع ذلك الضعف في كل شيء[٣] وإصلاح اللغة مفتاح لتحرك الآلية العقلية الراكدة التي بها تتحرك وتنتبه النفوس الغافلة، فتقوي من عزم المخلصين من أبناء الأمة الصالحين، للخروج بالأمة مما هي فيه من استكانة وضعف وضياع.

***

ٱلْمَبْحَثُ ٱلثَّالِثُ: عوائق في الطريق:

إن الإسلام مسؤولية فردية؛ إيمانًا به ودعوة إليه، إلى أن تقوم دولته، فإذا هي قامت هيأت لهذا الأمر أهله، ومؤسساته، مع بقاء المسؤولية العينية، وإنما تتنوع المهام وتتوزع وتتحدد درجة الأهمية فيها. هذا ما يمكن فهمه من آيات عديدة؛ منها: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]. ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وأيضًا من السيرة الحركية للإسلام في أول ظهوره، وفي أول مراحله المدنية. في هذا المجال حدد تفسير المنار مسؤولية الإصلاح ومؤسساته، عند تفسير قول اللّـه تعالى:

---

(١) ن.م (١١/ ٢٧١).
(٢) ن.م (٩/ ٣١٣).
(٣) ن.م (٤/ ٢٦٢).

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]؛ حيث ذكر « أن الإسلام دولة، وإن كان في نفسه دينًا لا جنسية، ووظيفة دولته أو حكومته، إنما هي نشر دعوته، وحفظ عقائده وآدابه، وتنفيذ أحكامه في داره...

فمن ينصر حكومة الإسلام فإنما ينصرها بمساعدتها على ذلك، بالعمل في نفسه، ويحمل غيره من حاكم ومحكوم عليه؛ لأنه هو المقوم والمعز للأمة، وإنما الدولة بالأمة »[١]. هذه الأمة « يدخل في عملها الأمور العامة، التي هي من شأنها: الحكام، وأمور العلم، وطرق إفادته ونشره، وتقرير الأحكام، وأمور العامة الشخصية، ويشترط فيها العلم بذلك، ولذلك جعلت أمة،... وهذه الأمور لا تتم إلا بالقوة والاتحاد »[٢]. ومن هنا يؤكد وجوب « الدعوة إلى الخير الأعظم على جميع المسلمين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل على قدر حاله واستطاعته، كما كان المسلمون في الصدر الأول، وأنه مع ذلك يجب أن يتألف للدعوة جماعات تعد لها عدتها »[٣]. غير أن هناك عوائق وعقبات تعترض سبيل الإصلاح، قام به الفرد، أو قامت به المؤسسة المتخصصة، أثناء القيام بالمهمة. هذه العوائق والعقبات، تختلف أصنافها وتتعدد أنماطها - تبعًا للأنماط التي هي هدف الإصلاح - في تفكيرهم وعقليتهم وصنفهم الاجتماعي وانتمائهم الاعتقادي، وتبعًا للإطار الظرفي ومكوناته الاجتماعية والثقافية والسياسية التي تؤدى فيها عملية الإصلاح.

ولقد تعرض تفسير المنار لجملة من هذه العوائق التي تقف حاجزًا منيعًا في بعض الحالات في وجه المصلحين من السلفيين، في العصر الحديث.

ومما يلاحظ سلفًا، أنه مع انتماء هذه العوائق إلى ظرفها الخاص، فإن العديد منها ما زال عقبة كؤودًا في وجه الإصلاح المعاصر. ولعل هذا راجع إلى السير البطيء الذي يسير به العمل الإصلاحي، وإلى فقدان المنهج العملي الموحد والموجه للعمل، وإلى جملة قضايا تخص البيئة الإسلامية ونوعية الأنظمة القائمة فيها، وفي كل الحالات، فإن لهذا المبحث أهميته من حيث الكشف عن المعوقات المعاصرة بالشكل الذي بينه تفسير المنار، فصنفها منه على التالي:

---

(١) تفسير المنار (٢/ ٤٤١) ون. (١٢/ ١٩٠) في تفسير الآية (١١٦) من سورة هود.
(٢) ن.م (٤/ ٣٨). (٣) ن.تفسير المنار (٤/ ٣٧).

أ - غفلة أكثر المسلمين عن معاني القرآن والسنة:

قال في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٤]: « إن هذه الآية وأمثالها في ابتلاء اللّـه للمؤمنين الصادقين الداعين إلى الحق، ولكنك تجد أكثر المسلمين الذين تتلى عليهم دائمًا في غفلة عنها، فمن لم يغفل عن تصور المعنى في ذهنه، يغفل عن انطباقه على الواقع؛ ولذلك تجد الكثيرين منهم يذهبون إلى أن من يؤذى في سبيل الحق بالقول أو بالفعل، كان وقوع الأذى عليه دليلًا على أنه مبطل لا يطلب الحق »[1]. في حين أن إدراك المسلم لعدم انتفاعه بمعاني القرآن والسنة، أمر يسهل عليه عملية التفكير في تدارك أمر الإصلاح ومحو الآثار السلبية، بالعمل على فهم القرآن والسنة فهمًا سليمًا. فقراءة المسلمين لمثل قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤]. لم يبق لهم حظ منها إلا ترتيلها بالنغمات في بعض المواسم والمآتم، ولا يخطر لهم ببال أنه يجب عليهم التفكير فيها للاهتداء بها، ولو تفكروا لاهتدوا، وإذًا لعلموا.. أن من تفكر وكان على بصيرة... فهو جدير بأن يلتزم القصد والاعتدال في حياته الدنيوية... ويصرف همته إلى إعلاء كلمة اللّـه، وعزة أهل ملته، وقوة دولته والاستعداد لآخرته[2].

ومع أن « الرب الكريم كرر بيان توجيه القلوب والأسماع والأبصار إلى التفكير والتدبر فيما يرون من آيات اللّـه في خلقه... ومن أخبار التاريخ الدالة على سننه في خلقه... وبيان السنن الاجتماعية لأجل التأثير والتذكير والإنذار، - يقول تفسير المنار - مع هذا التكرار... نرى أكثر المسلمين أشد إهمالًا من غيرهم لاستعمال أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم في النظر في آيات اللّـه في الأنفس والآفاق »[3]. هذا مما قاله في تفسير قول اللّـه تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. مبينًا مظهرًا آخر من مظاهر الغفلة، يتجلى في أن أكثر المسلمين أيضًا « يسمعون القارئ يتلو القرآن فلا يسمعون له، ولا يشعرون بأنهم في حاجة إلى سماعه... وأكثر الذين يسمعون له، يقصدون بذلك التلذذ بتجويده وتوقيع التلاوة على

(١) تفسير المنار (٢/ ٣٠٢).
(٢) ن.م (١٠/ ٣٤٨، ٣٤٩).
(٣) ن.م (٩/ ٤٢٧).

قواعد النغمات، ومنهم من يقصد سماعه للتبرك فقط، ومنهم من يحضر الحفاظ لتلاوته... في ليالي رمضان؛ لأن ذلك من شعائر أكابر الوجهاء»[(١)].

لقد أدى القرآن مهمته بإثارة انتباه المسلم وتحميله المسؤولية في تعمير الأرض بما يرضي اللّـه، طارقًا سمعه وبصره وفؤاده، ضاربًا له الأمثلة ومبينًا له السنن، ولكن المسلم لم يقم بمهمة التفكير والنظر، لإزاحة عائق الغفلة.

ب - الجهل عامة، وبسنن الكون خاصة:

فمع بيان القرآن والسنة «للمخرج من فتنة التنازع ومعالجة أدواء التدابر والتقاطع... فإن المسلمين حكَّموا الأهواء حتى في العلاج والدواء... واتبعوا كما أنبأ الرسول ﷺ سنن من قبلهم[(٢)]... ومن غمة الجهل أن أكثر المسلمين لا يشعرون بهذا، حتى علمائهم الذين يروون حديث اتباع سنن من قبلهم،... يقولون صدق رسول اللّـه ﷺ، ولا حول ولا قوة إلا باللّـه، ولا يبحثون في أسباب هذا الابتداع، ولا يتأملون في أقوال من بحث فيها قبلهم من العلماء»[(٣)].

وقال مستطردًا في قول اللّـه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾[يونس: ٢٣]: «وأما ما نتمناه من الإدالة لشعوبنا... فلا نزال غير أهل له، لما هي عليه من الجهل وفساد الأخلاق... وترك ما هداها اللّـه إليه في كتابه من أسباب السيادة والاستخلاف في الأرض»[(٤)]. فهم بهذا صاروا من أجهل الشعوب بالعلوم التي تعرف بها آياته تعالى[(٥)].

فالآيات في الكتاب ولكن لجهلهم لا يعرفون كيف ينتفعون بها، وهذا مثل واضح على فقدان الكتاب قيمته الإصلاحية حيث يعجز المسلم عن التفاعل معه[(٦)].

ولربما وقر في أذهان البعض أن الأمة بمفهومها الإسلامي تسير في ركب الحضارة بما تتوفر عليه من مظاهرها العمرانية؛ تصحيحًا لذلك ينبه تفسير المنار، إلى أنه «من المكابرة للحس أن ننكر أن أكثر ما في بلادنا من عمران هو من عمل الآخرين، وإن كان جله من مصلحتهم، وإن من يستخدمونه من ملوكنا وأمرائنا وحكامنا، هم شر

---

(١) ن.م (٩/ ٤٢٩).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) تفسير المنار (٨/ ٣٩٨).
(٤) ن.م (١١/ ٣٤٥).
(٥) ن.م (٩/ ٤٢٧).
(٦) حتى يغيروا ما بأنفسهم (ص ١٧٨) (بتصرف).

علينا منهم، بل لم يسودونا ويغلبونا في أي قطر من أقطارنا إلا بمساعدة سادتنا وكبرائنا إياهم علينا »(١). مشيرًا بذلك إلى أداة الاستعمار الجديدة، التي اخترعها من طينة الموطن المستعمر، ومن هنا فإن الجهل بهذه الحقائق يمثل عائقًا من عوائق الإصلاح. والكثير من هذه الحقائق ما زال قائمًا إلى الآن.

م - علماء السوء:

قد بين تفسير المنار هذا العائق عند بيان قول اللَّـه تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس: ٢٤، ٢٥]. بأنه ما صرف الناس عن الاهتداء بكتاب اللَّـه... إلا علماء السوء المقلدون الجامدون، وزعمهم الباطل أنه لم يبق في البشر أحد أهلًا للاهتداء به، وببيان الرسول ﷺ له؛ لأن هذا يتوقف على ما يسمونه الاجتهاد، ويزعمون أنه أصبح ضربًا من المحال(٢).

وبمثال من الواقع في أكبر مؤسسة للعلوم الإسلامية - الأزهر - يخبرك بأن مشيخته أنشأت مجلة رسمية باسم « نور الإسلام » تصرح على لسان علماء السوء بوصد باب الاجتهاد، وتطعن على الدعاة إلى هذه الهداية، وإلى ترك البدع وإلى اتباع السنن(٣). ومن « العجب العجاب قول شيخ من أكبر الشيوخ سنًّا وشهرة في العلم في مجلس إدارة الأزهر على مسمع الملأ من العلماء: من قال: إنني أعمل بالكتاب والسنة، فهو زنديق؛ يعني أنه لا يجوز العمل إلا بكتب الفقهاء »(٤).

ولعله من دواعي هذا التحجر في موقف بعض العلماء « جعل أرزاقهم ورتبهم في أيدي الأمراء والحكام... فإنه لا مفسدة أضر على الدين وأبعث على إضاعة الكتاب ونبذه وراء الظهر... من جعل معايش العلماء، والرتب العلمية في أيدي السلاطين والأمراء... وجعل هذه السلاسل الذهبية أغلالًا في أعناق العلماء، بها يقادون إلى حيث شاءوا من غش العامة باسم الدين، وجعلها مستعبدة لهؤلاء المستبدين »(٥).

والاستبداد في حد ذاته عائق من العوائق الكبرى؛ إذ هو الدافع إلى جعل المجتمع يقف في وجه أي إصلاح جديد غير ما هو عليه النظام المستبد، وإن كان المصلحون يعدونهم

---

(١) تفسير المنار (١١/ ٣٤٥).

(٣،٢) تفسير المنار (١١/ ٣٤٩)، ن. أيضًا (٤/ ٥٠، ٥١) منه.

(٥،٤) ن.م (٤/ ٢٨٣).

بما هو أحسن وأصلح.

ومن العوائق أيضًا: تكثير الفروع الفقهية في الحياة العلمية للمسلمين، في هذا الموضوع بنى تفسير المنار مبحثا مستقلًا عند تفسيره لقول اللّـه تعالى: ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٢]. وضح فيه (أن كثرة الزيادة على نصوص الشارع تنطع في الدين باستعمال الرأي في العبادات وأحكام الحلال والحرام وهذا مخلٌّ بيسر الإسلام ومنافٍ لمقصده)[١] فإن الذين انقطعوا لعلم الشريعة فتحوا باب القياس والرأي فيها وأكثروا من استنباط الفروع الكثيرة في العبادات والمعاملات... منها الصحيح الذي تقوم عليه الحجة، ومنها ما لا تقوم عليه الحجة، فكثرت التكاليف حتى تعسر تعلمها، فتسلل الأفراد والجماعات وتنصت من عقلها الحكومات، وكثرت على المسلمين بها الشبهات، وكانت في طريق الدعوة إلى الإسلام أصعب العقليات[٢] وهذا منافٍ لهدي الإسلام ولسلوك السلف « ولو سلك المتأخرون طريق السلف حتى أئمة أهل الرأي منهم في منع التقليد والرجوع إلى صحيح المأثور، ورد التنازع فيه إلى اللّـه والرسول؛ لما وصلنا إلى هذا الحد »[٣].

هذه بعض الصور من تفسير المنار في جهوده الإصلاحية، الكثير منها ما زال قائمًا في حياتنا، ينتظر المخلصين من أهل هذا الدين، ليقوموا بشحذ العزائم وتقوية الإيمان، والزاد العلمي، من أجل إتمام الإصلاح والتجديد، وإلا فإن صور الإصلاح في تفسير المنار تتعدد بتعدد حاجات الأمة في عصره، بل تتعداها إلى التنظير المستقبلي[٤].

***

(١) تفسير المنار (٧/ ١٣٨) (بتصرف). (٢،٣) ن.م (٧/ ١٤٢).

(٤) ن. مثلًا مسألة أولي الأمر وأهل الشورى في (٥/ ١٩٥). الانتخاب وسلطة الأمة (٥/ ١٩٩). الإمامة الكبرى (٦/ ٣٦٦، ٨/ ١٠٤، ١٠/ ٣١٤). حقوق الإنسان في الإسلام (١٠/ ٣١٣). دار الإسلام القضية الكبرى (١٠/ ٣١٥).

خاتمة

لقد حاولت بعملي؛ بهذا العمل المتواضع الاقتراب مما أنتجه خلف السلف الصالح في ميدان علوم التفسير في العصر الحديث؛ وهم يحاولون إعادة ربط المجتمعات الإسلامية بكتاب اللّـه تعالى في مرحلة من تاريخ الأمة نعتت بالانحطاط والضعف والتأخر... وما زلنا نحن - أبناء هذا العصر - نعاني من إفرازاتها المذهبية والفكرية والمنهجية. لا في علم التفسير وحده، ولكن في كل ميادين المعرفة البشرية.

وأثناء هذا الاقتراب وجدتني ملزمًا بالتنقيب والبحث عن المفاهيم الدلالية التي استعملها من صنفناهم في الاتجاه السلفي في التفسير، وعن قواعد المنهج الذي جعل من هذا الاتجاه، اتجاهًا تجديديًّا إحيائيًّا، مقاومًا لكل أنواع التخلف والجمود والهيمنة، انطلاقًا من تفسير كتاب اللّـه؛ لذلك أنشأت أبين مفهوم السلفية بتتبع تطوره الدلالي، بدءًا بصدر الإسلام إلى أن استقر المصطلح مميزًا لاتجاه ذي مضمون فكري وعملي تقوم قواعد منهجه على القرآن والسنة ومفهوم السلف الصالح، مما سوغ لنا تسميته بالمدرسة السلفية، بعد أن حددنا مفهوم المدرسة في العصر الحديث.

ثم بعد هذا رجعنا إلى الإطار الزماني للسلفية، نرصد فيه معالم منهج السلف، العملي والنظري، في فهم نصوص الدين عامة، والقرآن الكريم خاصة، لنتوصل من ذلك إلى أن هذا المنهج هو وحده الكفيل بإحداث التجديد والإحياء بمفهومها الإسلامي، والقادر على صيانة الأمة من الخبط الفكري والشغب المنهجي والمذهبي، والتشويش المفهومي.

ومن هنا كانت « المدرسة السلفية » هي المعين المرجعي لكل الحركات الإصلاحية الفردية أو الجماعية ذات العمل النافع والصحيح في تاريخ الأمة الإسلامية.

فالمدرسة السلفية في أول أمرها، مدرسة الإسلام في مواجهة كل أنواع الباطل وأشكاله، تأصلت أصولها، أثناء مواجهـة الباطل، اعتمادًا على منهج القرآن والسنـة، ومنهج أولي العلم والفضل من السابقين بالإيمان في تعاملهم مع أصول الإسلام.

وحتى نثبت صدق انتساب المدرسة الحديثة إلى المدرسة الأم، أبرزنا معالم المنهج السلفي في التفسير، بعد تحديد الإطار الذي بحثنا فيه عن هذه المعالم التي أجملناها في:

- تعليم الإيمان صحبه تعلم القرآن.
- اعتماد الحجة والبرهان القائمين على الكتاب والسنة.
- اعتماد مفاهيم الصدر الأول للإسلام في التفسير.
- التلقي المعرفي وأصوله الأساسية هي القرآن والسنة ويكون بعد امتلاك وسائل هذا التلقي وفي مقدمتها اللغة العربية.

وقد أشرنا إلى أن أوليات هذه المعالم إذا كانت لم تظهر تنظيرًا وتأليفًا، فلأن الظرف لم يكن يحتاج إلى ذلك، كما أشرنا إلى أن ظهور المدرسة كان رد فعل طبيعي ضد الانحراف الذي أحدثته الثقافات الوافدة في الاعتقاد والسلوك. وأن القضية الأساس كانت عند المدرسة في نشأتها، النقل والعقل، وأنها عند المدرسة الحديثة الدين والعلم. وأعلنا بعد ذلك أن ضوابط المنهج السلفي استقرت على أصلين؛ هما: النقل والعقل؛ تضبط العلاقة بينهما قاعدة هي جعل التفسير بالنقل هو الأصل الذي يقوم عليه التفسير بالعقل، وهذا خارج إطار آيات الاعتقاد؛ إذ وظيفة العقل فيها الفهم والاعتقاد ثم التسليم والاتباع.

ثم أردفنا ذلك بتفصيل القول في أصول التفسير عند السلف، وفي منهجهم في استعمال هذه الأصول، مفرقين بين المصادر الأساسية والثانوية حسب المنهج السلفي، ومقررين في آخر هذا الفصل، أن كل ما يتوصل إليه المفسر من نتائج ومفاهيم، واستنباطات، يكون قبولها ورفضها بمعيار المدرسة السلفية، رهينًا بالتزام المصادر المعرفية التي تمزج بين الوحي وبين العقل، وبين القيمة العلمية والأدبية للصدر الأول للإسلام.

ومع أن المدرسة السلفية الحديثة هي امتداد طبيعي للمنهج السلفي الممتد في تاريخ الأمة، فإنها قد تميزت بمعالم أجملناها في:

- الدعوة إلى الاجتهاد ونبذ التقليد، الذي يعتبر أم المعالم الأخرى، كما يعتبر العامل الأساس في انبثاق دعوات التجديد في العالم الإسلامي في العصر الحديث، بتفاوت نوعي وكمي وكيفي تحكمت فيه - إلى حدٍّ ما - الظروف والأحوال الاجتماعية، والبيئة

المعرفية والسياسية لكل قطر.

- العناية بالقرآن وإعجازه في ظل مستجدات الفترة وما تتطلبه من ردود الفعل المنهج، معتبرين هذا من أصالة المنهج السلفي؛ حيث أعيد النظر في مناهج التفسير في إطار قواعدها الأصلية، وفي إطار التحولات الهائلة التي عرفتها مناهج البحث العلمي والتحولات التي حصلت في الحياة العقلية. وقد تبلورت هذه العناية في مقدمة تفسير المنار ثم تناقلها عنه من أتوا بعده ليعلن عن ميلاد منهج جديد في تفسير القرآن الكريم بالدعوة إلى إعادة الهوية المفقودة؛ أهمها:

١ - فهم القرآن الكريم في ظل الكتاب والسنة وأعمال السلف الصالح.

٢ - فهم القرآن متوقف على فهمه من الداخل باعتباره وحدة متناسقة ومتناسبة، ومن هنا كان أسلوب التفسير الموضوعي من المعالم الكبرى للمدرسة في العصر الحديث.

٣ - تتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة، وإهدار الروايات الإسرائيلية والعلم بكل ما من شأنه أن يجعلنا أقرب إلى الفهم السليم في القرآن الكريم.

- العناية بمقاصد القرآن، طلبًا لإعادة ربط الأمة بالقرآن الكريم وإحياء فاعلية العقيدة في النفوس. ومن هنا كان الاهتمام أيضًا بالإعجاز القرآني إثباتًا لربانية المصدر القرآني وصدق النبوة، لإيجاد الإيمان الواعي بكل ما في القرآن والعمل به، اعتمادًا على التأمل في أسلوب القرآن وتراكيبه الفنية وإشاراته العلمية وتشريعاته الربانية، واهتمامًا بقضايا المجتمع الإسلامي رفعًا للتحدي الداخلي والخارجي الذي ميز ظروف نشأة المدرسة السلفية الحديثة، فكان أن عملت على بث روح الجهاد لإخراج المستعمر وعلى العناية بالجانب الاقتصادي والاجتماعي والتربوي.

ولقد كان المصدر والمرجع في كل هذا القرآن الكريم، ومن هنا كان اعتماد المدرسة على القرآن في إعادة بناء الأمة أحد مميزاتها، وهذا أيضًا ما جعل بعض المهتمين بالتفسير وعلومه، ينعتون تفسير هذه المرحلة بالتفسير التطبيقي والتفسير الإصلاحي.

هذا في الباب الأول من البحث، أما في الباب الثاني منه فقد زينا مدخله بموجز لما يتميز به تفسير المنار من مواصفات تجعله - في نظرنا - أولى تفاسير المرحلة بهذا الاختيار على مستوى المنهج والأسلوب والحضور الفعلي والمكثف، لمميزات ومعالم المدرسة في العصر الحديث، وقد استللنا منه، تمثيلًا لما قلناه:

١ - عنايته بقواعد التفسير، والتجديد في مناهجه وبإعجاز القرآن ومقاصده، وبصياغة قضايا الأمة بأسلوب عصره ومتطلباته؛ على هيئة موضوعات مستقلة، تستحق القراءة والدراسة منفردة.

٢ - عنايته بالرد على شبهات عصره ومواجهة الفرق الإسلامية ذات الزيغ العقدي والسلوكي، وهو مما ميز المدرسة في كل مراحلها التاريخية، كما اهتم اهتمامًا شديدًا بالرد على اليهود وبيان خطرهم على البلاد المقدسة في فلسطين وعلى الأمم عامة، وبالرد على النصارى وتنبيه الأمة على أساليبهم في التنصير والاستعمار - ولكن هيهات هيهات -.

٣ - عنايته بقضايا الأمة في عصره؛ الاجتماعية منها والاقتصادية والتربوية، وعمله - من خلال التفسير - على الإصلاح الشامل، بوصفه لأسباب المرض وسبل معالجته...

وبذلك ختمت هذا البحث الذي لا يفوتني في خاتمته أن أعلن بأن الموضوع في بابه الأول فيه من القضايا ما يحتاج إلى بحث مستقل، أو إلى زيادة التعميق... وفي بابه الثاني ما يحتم العودة إلى تفسير المنار (الموسوعة) في كثير من الجوانب، وخاصة الجانب الاجتماعي الذي يعد من المواضيع الحيوية والمهمة في هذا العصر.

وما توفيقي إلا باللَّـه عليه توكلت وإليه أنيب.

وما تقصيري إلا من نفسي ومن الشيطان،

والتقصير فيه كثير، وحسبي أني بذلت

جهدًا وجهه القصد الحسن واللَّـه

من وراء القصد والحمد للَّـه

رب العالمين.

* * *

فهرس المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم.

٢ - اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر: فهد الرومي (د.ت).

٣ - اتجاهات التفسير في العصر الحديث منذ محمد عبده: مصطفى الحديدي الطير، سلسلة البحوث الإسلامية، عدد (٨)- أبريل (١٩٧٥م).

٤ - الاتجاهات السنية والمعتزلية في تأويل القرآن:د. التهامي نفرة، مطبعة الحي الصناعي، دار القلم، تونس، الطبعة الأولى (١٩٨٢م).

٥ - الإحكام في أصول الأحكام: أبو محمد علي بن حزم، نسخة مقابلة على النسخة التي حققها الأستاذ محمد شاكر، تقديم: د. إحسان عباس، منشورات دار الآفاق - بيروت، ط (١/ ١٤٠٠هـ).

٦ - إحكام الفصول في أحكام الأصول: أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، تحقيق: عبد المجيد التركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط (١٤٠٧هـ).

٧ - الإحكام في أصول الأحكام: علي بن محمد الآمدي، تعليق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي - بيروت، ط (١٤٠٢هـ).

٨ - الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى: أحمد بن خالد الناصري، تحقيق: ولدي المؤلف: جعفر ومحمد، مطبعة دار الكتاب، البيضاء المغرب، ط (١/ ١٩٥٤م).

٩ - الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز: عز الدين بن عبد العزيز، دار الفكر، دمشق (د.ت).

١٠ - أصول الدين: عبد القادر طاهر البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية (١٩٨١م).

١١ - الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة (١/ ١٣٢٨هـ).

١٢- إصلاح الوجوه والنظائر: الحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم، بيروت، الطبعة (١/ ١٩٧١م).

١٣ - الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، المغرب، ط (١/ ١٤٠٧هـ).

١٤ - أصول مذهب الإمام أحمد: د.عبد اللّه عبد المحسن التركي، جامعة عين شمس، القاهرة، الطبعة (١/ ١٣٩٤هـ).

١٥ - الأصولية في العالم العربي: ريتشارد هرير، دكمجيان، ترجمة وتعليق: عبد الوارث سعيد، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، الطبعة (١/ ١٤٠٩هـ).

١٦ - أصول التفسير وقواعده: خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس، بيروت، الطبعة (٢/ ١٤٠٦هـ).

١٧ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، طبعة (٩/ ١٣٩٣هـ).

١٨ - الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام: العباس بن إبراهيم، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور،

المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى(١٩٧٦م) .

١٩ - أعلام الدراسات القرآنية: د. مصطفى الصاوي الجويني، منشأة المعارف، الإسكندرية - مصر - الطبعة (١/ ١٩٨٢م).

٢٠ - الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، طبعة (٦/ ١٩٨٤م).

٢١ - أعلام ليبيا: طاهر أحمد الزاوي، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ط (١/ ١٩٨١م).

٢٢ - إعلام الموقعين عن رب العالمين: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق وتعليق: محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط (٢/ ١٣٩٧هـ).

٢٣ - الاعتصام: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تصحيح محمد سليمان، ومراجعة رشيد رضا، المكتبة التجارية بمصر(د.ت).

٢٤ - أليس الصبح بقريب: محمد الطاهر ابن عاشور، طبع المصرف التونسي، للطباعة تونس، ط (١/ ١٩٦٧م).

٢٥ - انتصار المنهج السلفي: عبد الحليم الجندي، دار المعارف، القاهرة (د.ت).

٢٦ - إيضاح المكنون ذيل كشف الظنون: إسماعيل باشا البغدادي، مكتبة المتنبي، بغداد (د.ت).

٢٧ - إيقاظ همم أولي الإبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار: صالح بن محمد بن نوح الفلاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة (١/ ١٣٩٨هـ).

٢٨ - إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن: محمد بن علي السنوسي، طبع وزارة الإعلام والثقافة، (١٣٨٨هـ) دون ذكر مكان الطبع.

٢٩ - البحر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: محمد بن علي الشوكاني، مطبعة السعادة، القاهرة، ط (١/ ١٣٤٨هـ).

٣٠ - التفسير ورجاله: الفاضل ابن عاشور، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة (١/ ١٣٩٠هـ).

٣١ - تفسير القرآن الكريم (تفسير المنار) محمد رشيد رضا، دار الفكر، الطبعة الثانية بالأوفيست، (د.ت).

٣٢ - تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي: دار الفكر، الطبعة (٣/ ١٣٩٤هـ).

٣٣ - تفسير ابن مسعود: إعداد: أحمد عيسوي، شركة الطباعة العربية السعودية - الرياض، الطبعة (١/ ١٤٠٥هـ).

٣٤ - تفسير سفيان الثوري: أبو عبد اللّه سفيان بن سعيد الثوري، تصحيح امتياز على عرشي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١/ ١٤٠٣هـ).

٣٥ - تفسير مجاهد: أبو الحجاج مجاهد بن جبر، تحقيق. عبد الرحمن السورتي، إسلام أباد باكستان، والمنشورات العلمية بيروت (د.ت).

٣٦ - تفسير النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: سيد الجليمي وصبري الشافعي. الدار السلفية لنشر العلم، القاهرة، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ).

٣٧ - التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي، دار الكتب الجديدة، القاهرة، الطبعة الأولى (١٣٨١هـ).

٣٨ - التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: السيد الكومي ويوسف القاسم، دار الهدى، القاهرة، الطبعة (١/ ١٤٠١هـ).

٣٩ - تفصيل آيات القرآن الحكيم: وضع حول لابوم، ترجمة: فؤاد عبد الباقي، دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت).

٤٠ - تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار: محمد الصالح المراكشي، مطبعة القومية للنشر، تونس، (د.ت).

٤١ - التعاشيب: عبد اللّـه كنون، المطبعة المهدية، تطوان المغرب (د.ت).

٤٢ - تيسير العزيز الحميد: في شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبد اللّـه، المكتب الإسلامي، الطبعة (٢/ ١٣٩٠هـ).

٤٣ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة مكة للطباعة، مكة، الطبعة (١/ ١٣٩٨هـ).

٤٤ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق وتعليق: محمود محمد شاكر، مراجعة: أحمد محمد شاكر. ط: الثانية، دار المعارف، مصر (١٩٦٩م).

٤٥ - البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد اللّـه الزركشي، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، نشر رئاسة البحوث العلمية، الرياض، السعودية، ط (٣/ ١٤٠٠هـ).

٤٦ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، ط (٢/ ١٣٩٩هـ).

٤٧ - تاريخ بغداد: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، (د.ت).

٤٨ - تاريخ الأمم والملوك: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، طبعة (١/ ١٤٠٧هـ).

٤٩ - تاريخ الدولة السعودية: أمين سعيد، مطبوعات دار الملك عبد العزيز، الرياض، السعودية، ط (١) (د.ت).

٥٠ - تاريخ الشيخ محمد عبده: محمد رشيد رضا، مطبعة المنار، مصر، الطبعة (١/ ١٣٥٠هـ).

٥١ - تاريخ الضعيف: محمد عبد السلام الضعيف، تحقيق: أحمد العماري، طبع معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، المغرب، ط (١/ ١٤٠٦هـ).

٥٢ - تاريخ نجد: الشيخ بن غنام، مطابع الشرق الأوسط، الرياض، السعودية الطبعة (٢/ ١٣٨١هـ).

٥٣ - التحرير والتنوير: محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس (١٩٨٤م).

٥٤ - تذكرة الحفاظ: أبو عبد اللّـه شمس الدين الذهبي، تصحيح: عبد الرحمن العلمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د.ت).

٥٥ - تراجم الأعلام: محمد الفاضل ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس (١٩٧٠م).

٥٦ - التعريفات: أبو الحسن علي بن محمد الجرجاني، الدار التونسية للنشر، تونس (١٩٧١م).

٥٧ - تعريف الخلف برجال السلف: أبو القاسم محمد الحفناوي، نسخة مصورة في الجزائر (١٣٣٤م).

٥٨ - التفسير الحديث: محمد عزة دروزة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة (١/ ١٣٨١هـ).

٥٩ - الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد اللّـه محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني دار الكتب المصرية، القاهرة، ط (٣/ ١٣٧٣هـ).

٦٠ - جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه: د. محسن عبد الحميد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط (١٤٠٣هـ).

٦١ - الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي الحديث: د. جمال الشيال، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ط (١/ ١٩٦٠م).

٦٢ - الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي، إعداد مجموعة من الباحثين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط (١/ ١٩٨٧م).

٦٣ - حركة اليقظة الإسلامية في مواجهة النفوذ الغربي الاستعماري: أنور الجندي، دار الاعتصام، مصر (د.ت).

٦٤ - الحافظ محمد المدني بن الحسين: عبد اللّـه الجراري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط (١/ ١٣٩٧هـ).

٦٥ – الحركة الثقافية في تونس: محمد الفاضل ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس ط (١/ ١٩٧٢م).
٦٦ – دراسات إسلامية: محمد عبد اللّـه دراز، دار القلم، الكويت، ط (١/ ١٣٩٣م).
٦٧ – دراسات في أصول تفسير القرآن: د.محسن عبد الحميد، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط (٢/ ١٤٠٤هـ).
٦٨ – دروس من القرآن الكريم: محمد عبده، دار الهلال، القاهرة (د.ت).
٦٩ – دفاع عن الثقافة المغربية: الحسن السايح، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ط (١/ ١٩٦٨م).
٧٠ – دفاع عن الشريعة: علال الفاسي، منشورات العصر الحديث، بيروت، ط (٢/ ١٩٧٢م).
٧١ – ذكريات مشاهير رجال المغرب: عبد اللـه كنون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط (١/ ١٩٦١م).
٧٢ – الدين الخالص: محمد صديق حسن خان القنوجي، مطبعة القاهرة، ط (١/ ١٣٧٩هـ).
٧٣ – الرد على الجهمية والزنادقة مع كتاب السنة، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: إسماعيل الأنصاري، دار الإفتاء، الرياض، السعودية (د.ت).
٧٤ – الرسالة: الإمام محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الفكر، بيروت، (١٣٥٨هـ).
٧٥ – رسالة التوحيد: محمد عبده، دار المعارف، مصر، ط (٢/ ١٩٦٦م).
٧٦ – زعماء الإصلاح في العصر الحديث: أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (١٩٤٩م).
٧٧ – السلفية في المجتمعات المعاصرة:د. فتحي عثمان، دار القلم، الكويت الطبعة (٢/ ١٤٠١هـ).
٧٨ – السلفية مرحلة زمنية مباركة، لا مذهب إسلامي: محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق سوريا، ط (١/ ١٤٠٨هـ).
٧٩ – سنة الخلفاء الراشدين، بحث في المفهوم والحجية، بحث مرقون بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، قدمه الأستاذ زيد بوشعرا لنيل دبلوم الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية.
٨٠ – سنن الترمذي: أبو عيسى الترمذي، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط (١/ ١٣٥٧هـ).
٨١ – سنن ابن ماجه: أبو عبد اللّـه محمد بن زيد القزويني، تحقيق: فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، (د.ت).
٨٢ – شجرة النور الزكية في طبقات المالكية:محمد بن محمد مخلوف، دار الفكر (د.ت).
٨٣ – شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: أبو القاسم هبة اللّـه بن الحسن اللالكائي، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط (٢/ ١٤٠٥هـ).
٨٤ – شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية: محمد خليل الهراس، الرئاسة العامة للإفتاء الرياض – السعودية (١٤٠٣هـ).
٨٥ – الصبر في القرآن: د. يوسف القرضاوي، دار المعرفة، الدار البيضاء، المغرب (د.ت).
٨٦– صحيح الإمام البخاري مع فتح الباري: محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، مراجعة قصي محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة، ط (٢/ ١٤٠٧هـ).
٨٧ – صحيح الإمام مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري باختصار عبد العظيم المنذري، وتحقيق: ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي بيروت، ط (٢/ ١٣٩٢هـ).
٨٨ – طبقات الحفاظ: أبو بكر جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١/ ١٤٠٣هـ).
٨٩ – طبقات الشافعية: أبو نصر عبد الواحد السبكي، دار المعرفة بيروت (د.ت).
٩٠ – طبقات الصوفية: أبو عبد الرحمن السلمي، تحقيق: نور الدين شريعة، مطبعة المدني والقاهرة، ط (٣/ ١٤٠٦هـ).
٩١ – الطبقات الكبرى: محمد بن سعد، دار صادر، بيروت (١٣٨٠هـ).

٩٢ - طبقات المفسرين: شمس الدين محمد بن علي الداودي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١/ ١٤٠٣هـ).
٩٣ - عجائب الآثار في التراجم والأخبار: عبد الرحمن الجبرتي، دار الجيل، بيروت، ط (٢/ ١٩٧٨م).
٩٤ - العروة الوثقى: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، دار الكتاب العربي، بيروت، ط (١/ ١٩٧٠م).
٩٥ - عقيدة السلف: أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، الدار السلفية، الكويت، ط (١/ ١٣٩٧هـ).
٩٦ - علم الاجتماع: زهير عبد الملك، منشورات مكتبة الوحدة العربية (د.ت).
٩٧ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي، الدار السلفية، القاهرة، ط (٣/ ١٤٠٧هـ).
٩٨ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد علي الشوكاني. شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ط (٢) بمصر، (١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م).
٩٩ - الفرق بين الفرق: عبد القاهر بن طاهر البغدادي، دار الكتب العلمية بيروت، (د.ت).
١٠٠ - الفكر التربوي الحديث: سلسلة عالم المعرفة، عدد (١١٣)، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
١٠١- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي: محمد بن الحسن الحجوي، الفاسي، دار التراث القاهرة، ط (١/ ١٣٩٦هـ).
١٠٢ - الفهرست: ابن النديم، دار المعرفة، بيروت (١٣٩٨هـ).
١٠٣ - فهرس الفهارس والأثبات: عبد الحي الكتاني، المطبعة الجديدة فاس، المغرب، ط (١/ ١٣٤٧هـ).
١٠٤ - في ظلال القرآن: سيد قطب، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة (٧/ ١٣٩١هـ).
١٠٥ - القاموس الإسلامي: وضع أحمد عطية اللّـه، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة (١/ ١٣٨٣هـ).
١٠٦ - القاموس السياسي: وضع أحمد عطية اللّـه، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة (٣/ ١٩٦٨م).
١٠٧ - قصة التفسير: د.أحمد الشرباصي، دار الجيل، بيروت، ط (٢/ ١٩٧٨م).
١٠٨ - قضايا إنسانية في أعمال المفسرين: د. عفت الشرقاوي، دار النهضة العربية بيروت، (١٩٧٨م).
١٠٩ - القواعد الحسان لتفسير القرآن: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، ط (١/ ١٤٠٢هـ).
١١٠ - القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد: محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: عبد الرحمن عبد الخالق، دار القلم، الكويت، ط (٣/ ١٤٠٣هـ).
١١١ - كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ: محمد بن إسحاق بن خزيمة، دار الشروق للطباعة، (د.ت).
١١٢ - كتاب التوحيد: محمد بن إسحاق بن منده، تحقيق: علي بن محمد ناصر الفقي، طبع مركز شؤون الدعوة، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السعودية (د.ت).
١١٣ - كتاب السنة: أبو عبد الرحمن عبد اللّـه بن أحمد بن حنبل، تحقيق: محمد بن محمد بن سعيد القحطاني، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الدمام، السعودية، ط (١/ ١٤٠٦هـ).
١١٤ - كتاب الصفات: علي بن حمد الدارقطني، تحقيق: د. علي بن محمد بن نصار الفقيهي، سلسلة عقائد السلف (د.ت).
١١٥ - الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار: الحافظ عبد اللّـه بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق: عبد الخالق الأفغاني، الدار السلفية، بومباي، الهند، ط (٢/ ١٣٩٩هـ).
١١٦ - لسان الميزان: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، شركة علاء الدين للطباعة والتجليد، بيروت،

ط (٢/ ١٣٩٠هـ).

١١٧ - لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر بيروت (د.ت).

١١٨ - مبادئ أساسية لفهم القرآن: أبو الأعلى المودودي في الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، ط (١/ ١٣٨٨هـ).

١١٩ - مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد دار الفكر، ط (٣/ ١٣٩٣هـ).

١٢٠ - مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب (د.ت).

١٢١ - محاسن التأويل: محمد جمال الدين القاسمي، دار إحياء الكتب العربية، ط (١/ ١٣٧٦هـ).

١٢٢ - المحدث الحافظ أبو شعيب الدكالي: عبد اللّه الجراري، دار النجاح، الدار البيضاء، المغرب، ط (٢/ ١٣٩٩هـ).

١٢٣ - المحصول في علم الأصول، فخر الدين محمد بن عمر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١/ ١٤٠٨هـ).

١٢٤ - المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: د. فهد عبد الرحمن الرومي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط (٣/ ١٤٠٧هـ).

١٢٥ - المدخل: أبو عبد اللّه محمد بن الحاج، المطبعة المصرية، القاهرة، ط (١/ ١٣٤٨هـ).

١٢٦ - مدخل إلى علوم القرآن والتفسير: فاروق حمادة، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، ط (١/ ١٣٩٩هـ).

١٢٧ - مسند الإمام أحمد بترتيب أحمد عبد الرحمن البنا، دار الشهاب، القاهرة (د.ت).

١٢٨ - المسند: عبد اللّه بن الزبير الحميدي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١/ ١٣٨٢هـ).

١٢٩ - مشكلات القرآن الكريم: محمد عبده، دار مكتبة الحياة، بيروت (١٩٧٩م).

١٣٠ - المصادر العربية والمعربة: محمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط (١/ ١٩٧٢م).

١٣١ - معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، عالم الكتب، بيروت، ط (٣/ ١٤٠٣هـ).

١٣٢ - معجم البلدان: أبو عبد اللّه ياقوت بن عبد اللّه الحموي، دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت).

١٣٣ - معجم الدراسات القرآنية: د. ابتسام مرهون الصفار، جامعة الموصل العراقي، ط (١/ ١٩٨٤م).

١٣٤ - المعجم الفلسفي: إعداد مجمع اللغة العربية، القاهرة، المطبعة الأميرية (١٣٩٩هـ).

١٣٥ - المعجم الفلسفي: د. جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط (١/ ١٩٧١م).

١٣٦ - المعجم الفلسفي: د. مراد وهبة، دار الثقافة الجديدة، مصر، ط (٣/ ١٩٧٩م).

١٣٧ - معجم المطبوعات العربية والمعربة، يوسف إلياس سركيس، مطبعة سركيس، مصر، ط (١/ ١٣٤٦هـ).

١٣٨ - معجم مصنفات القرآن الكريم: د. علي شواخ، منشورات دار الرفاعي، الرياض، السعودية، ط (١/ ١٤٠٤هـ).

١٣٩ - معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، القاهرة، (١٣٩٩هـ).

١٤٠ - معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، مطبعة الترقي، دمشق، سوريا، ط (١/ ١٣٧٦هـ).

١٤١ - المعجم الوسيط: مجموعة من الأساتذة، مطبعة مصر القاهرة، (١٣٨١هـ).

١٤٢ - مقاصد القرآن الكريم: حسن البنا، دار الشهاب للطباعة والنشر، الجزائر (د.ت).

١٤٣ - مقدمة في أصول التفسير: تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: عدنان زرزور، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط (٣/ ١٣٩٢هـ).

١٤٤ - من أئمة التجديد الإسلامي: د.حسن عبد الحميد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب،

ط (١/ ١٤٠٧هـ).
١٤٥ - مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة (د.ت).
١٤٦ - مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب، إعداد جماعة من الأساتذة، جامعة الإمام محمد بن سعود الرياض - السعودية.
١٤٧ - موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية: د.أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ط (٥/ ١٩٧٨م).
١٤٨ - الموسوعة الحركية إعداد مؤسسة البحوث والمشاريع الإسلامية، دار البشير، عمان، الأردن، ط (١/ ١٤٠٣هـ).
١٤٩ - الموسوعة العربية الميسرة، دار الشعب (د.ت).
١٥٠ - موسوعة العقاد الإسلامية: دار الكتاب العربي، بيروت، ط (١/ ١٣٩١هـ).
١٥١ - النبأ العظيم: د.محمد عبد اللّه دراز، دار القلم، الكويت، ط (٢/ ١٣٩٠هـ).
١٥٢ - نحو منهج لتفسير القرآن: محمد الصادق عرجون، الدار السعودية للنشر، الرياض، السعودية، ط (١/ ١٣٩٢هـ).
١٥٣ - نصيحة أهل الإسلام: محمد بن جعفر الكتاني، تحقيق: د.إدريس الكتاني، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، ط (٢/ ١٤٠٩هـ).
١٥٤ - نيل المرام من تفسير آيات الأحكام: صديق حسن خان: المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط (٢/ ١٣٨٣هـ).
١٥٥ - النهاية في غريب الحديث والأثر: أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، (د.ت).
١٥٦ - وجهة العالم الإسلامي: مالك بن نبي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط (٢/ ١٩٧٠م).
١٥٧ - الوحي المحمدي: محمد رشيد رضا، مطبعة المنار، مصر، ط (١/ ١٣٥٢هـ).
١٥٨ - اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار: أنور الجندي، دار العلوم للطباعة، مصر، ط (١/ ١٣٩٨هـ).

المجلات:

- مجلة الأمة القطرية، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية.
١٥٩ - الأعداد (٥١)، س (٥/ ١٤٠٥هـ).
١٦٠ - الأعداد (٥٣)، س (٥ - ١٤٠٥هـ).
١٦١ - الأعداد (٦٥)، س (٦ - ١٤٠٦هـ).
١٦٢ - الأعداد (٧٠)، س (٦ - ١٤٠٦هـ).
١٦٣ - مجلة البصائر عدد (١٤/ ١٩٨٨م) مجلة فصلية تبحث في التراث الشرقي تصدر في فرنسا.
١٦٤ - مجلة التضامن الإسلامي، ع (٥)، س (٣٣)، جمادى الأولى (١٣٩٩هـ)، وزارة الحج والأوقاف السعودية.
١٦٥ - مجلة دار الحديث الحسنية، ع (٣/ ١٤٠٢هـ)، المملكة المغربية، الرباط.
١٦٦ - الدارة، مجلة فصلية تصدر عن دار الملك عبد العزيز، الرياض، السعودية، ع (٤)، س (١٣)، رجب (١٤٠٨هـ).
١٦٧ - مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، العدد الخاص (٢) (١٤٠٦هـ)، المملكة المغربية.

١٦٨ - مجلة الفرقان المغربية، ع (٧)، س (٢)، محرم، صفر (١٤٠٦هـ)، ع (١٣)، س (٤) رجب - شعبان (١٤٠٨هـ).

١٦٩ - مجلة الوعي الإسلامي الكويت، ع (٢٢٥)، س (١٤٠٥هـ).

* * *



الدكتور محمد السيسي.

- من مواليد (١٩٤٩م) بإقليم مكناس بالمملكة المغربية.

- حاصل على الإجازة في الشريعة، من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

- شهادة الدراسات الجامعية العليا في الدراسات الإسلامية من جامعة محمد الخامس بالرباط، المملكة المغربية.

- دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية من جامعة مولاي إسماعيل بمكناس، وأستاذ علوم القرآن والتفسير بنفس الجامعة.

- عضو مؤسس لهيئة الرباط العلمية للبحث في الدراسات الإسلامية.

- عضو مجموعة البحث في مناهج تفسير الخطاب بكلية الآداب مكناس.

- منسق « مركز الدراسات في الاجتهاد والحوار الحضاري » بكلية الآداب مكناس.

- رئيس وحدة التكوين والبحث: « الدرس القرآني والعمران البشري » بكلية الآداب مكناس.

- رئيس شعبة الدراسات الإسلامية سابقًا بكلية الآداب مكناس.

- مشارك في عدة ندوات ومحاضرات وطنية ودولية.

- نشر له مجموعة مقالات في علوم القرآن ومناهج التفسير واتجاهاته.

- رئيس المجلس العلمي لإقليم مكناس حاليًا.

***

رقم الإيداع
٩٠٨٧/ ٢٠١٠
الترقيم الدولي I.S.B.N
978 -977 -342 - 887 - 7

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم . .   السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « المدرسة السلفية في التفسير في العصر الحديث »

ورغبة منا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًا إلى الأمام .

*** فهيَّا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-**

الاسم كاملًا : .... الوظيفة : ....

المؤهل الدراسي : .... السن : .... الدولة : ....

المدينة : .... حي : .... شارع : .... ص.ب: ....

هاتف : ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐ / ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐ e-mail :

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة : .... العنوان : ....

- ما رأيك في الكتاب ؟

☐ ممتاز ☐ جيد ☐ عادي (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟ ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) .... العملة ....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

....

....

....

....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسة منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

(من أجل تواصل بنّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم :


نشكرك على اقتنائك كتابنا هذا ، الذي بذلنا فيه جهدًا نحسبه ممتازًا ، كي نخرجه على الصورة التي نرضاها لكتبنا ، فدائمًا نحاول جهدنا في إخراج كتبنا بنهج دقيق متقن ، وفي مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة على ثلاث مراجعات قبل دفعه للطباعة ، ويشاء العلي القدير الكامل أن يثبت للإنسان عجزه وضعفه أمام قدرته مهما أوتي الإنسان من العلم والخبرة والدقة تصديقًا لقوله تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء : ٢٨)

فأخي العزيز إن ظهر لك خطأ طباعي أثناء قراءتك للكتاب فلا تتوان في أن تسجله في هذا النموذج وترسله لنا فنتداركه في الطبعات اللاحقة ، وبهذا تكون قد شاركت معنا بجهد مشكور يتضافر مع جهدنا جميعًا في سيرنا نحو الأفضل .

الخطأ	رقم الصفحة	السطر

شاكرين لكم حسن تعاونكم . . ،



دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الكتاب في سطور

... ونحن في عصر كثرت فيه المناهج والاتجاهات والمفاهيم والمصطلحات... حتى غطى سيلها صفاء التعامل مع القرآن الكريم...

والبحث في الموضوع من خلال المدرسة السلفية الحديثة في التفسير قاصد إلى العلم بأسلوب ومنهج الرعيل الأول من المسلمين - جيل القدوة - في تعاملهم مع القرآن الكريم وفي معالجتهم للمادة القرآنية... بالتعرف على التطبيق العملي والقول النظري في ضبط ممارسة البيان منذ أولياته وعبر سيرورته التاريخية إلى أن استقر قواعد ضابطة تجد تمثلها العملي في منهج المدرسة السلفية الحديثة... تصحيحًا وتجديدًا ومحقًا للانحراف العقدي والعملي المتولد عن الكلام والفلسفة والغلو... في حقبة تميزت بالدعوة إلى العودة إلى الإسلام في منابعه الصافية واستجدت فيها قضايا إنسانية تستدعي حلولًا إسلامية تراعي ثوابت الإسلام ومتغيراته... توظيفًا لمنهج المدرسة في معالجة الخطاب القرآني رفعًا للتحدي وإرجاعًا للهوية...

وقد اتخذ تفسير المنار تطبيقًا لذلك فإنه أنجز في أهم فترة مثلت نضج المنهج السلفي وخصوبته في التفسير، وللتصريح فيه بأنه « التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور وصريح المعقول، الذي يبين حكم التشريع، وسنن اللّه في الإنسان، وكون القرآن هداية للبشر في كل زمان ومكان، ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر، وما كان عليه سلفهم من السيادة والعزة إذ كانوا معتصمين بها ».

نشر مشترك

مؤسسة البحوث والدراسات العلمية
(مبدع)
الهاتف: ٢٨٨٤ ٠٥٣٥٩٦ (٢١٢)
الناسوخ: ٢٩٢٠ ٠٥٣٥٩٦ (٢١٢)
البريد: ص ب ٦٠١٢ الأدارسة فاس - المغرب
البريد الإلكتروني: mobdii@gmail.com

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)
www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com


ISBN: 978-977-342-8